

عَوْنُ الْحَمِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأليفُ

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللّاحم

الاستاذ في قسم القرآن وعُلموه

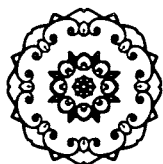
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الخامس عشر

تفسير سورة النور والفرقان

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنِ الْحَمِيدِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

١٥



دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص.ب. وأصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٢/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

🌐 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٤٧١ ص؛ ٢٤×١٧ سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

جميع الحقوق محفوظة

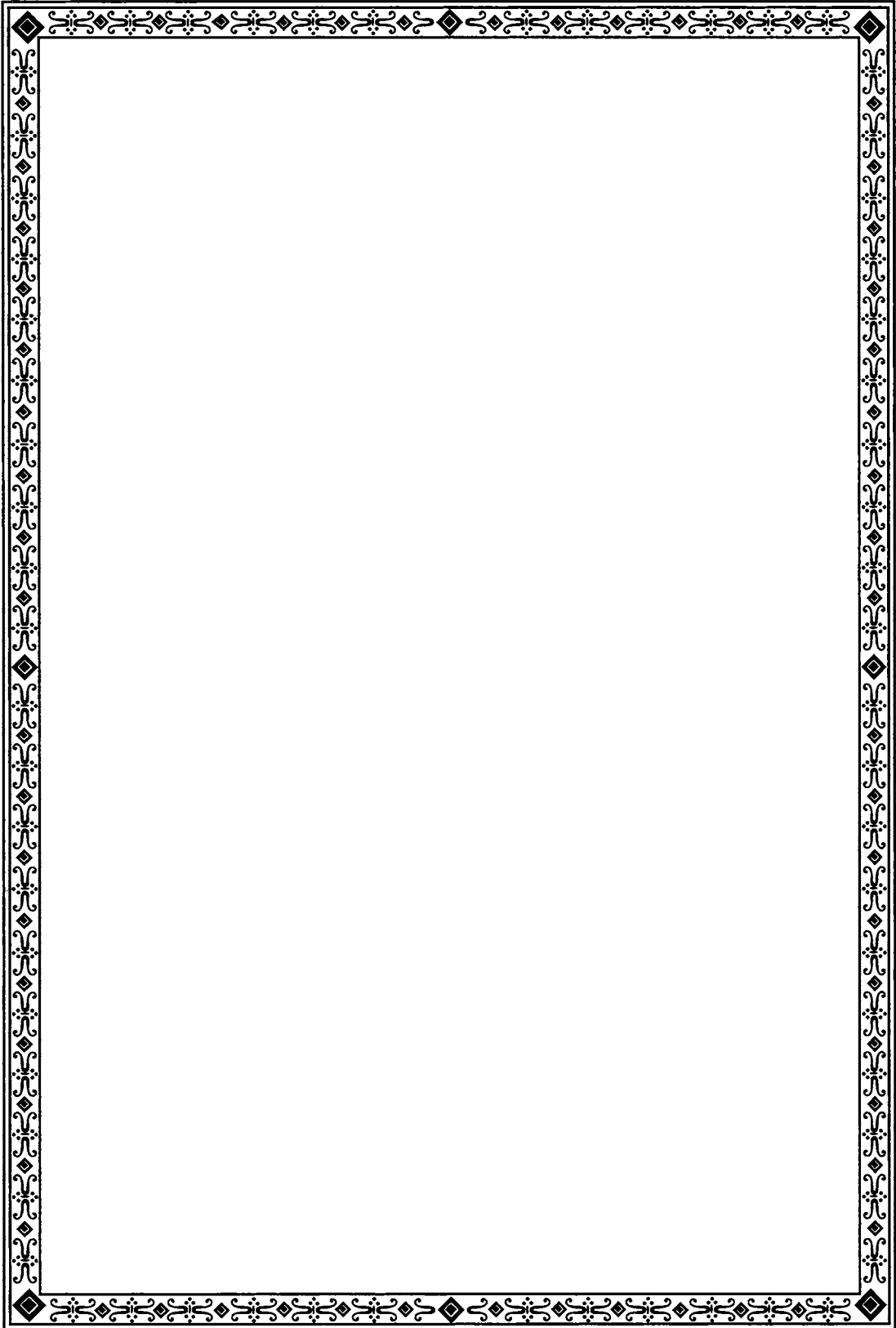
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة سورة النور لذكر النور فيها في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية: ٣٥]، وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الآية: ٣٥]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [الآية: ٤٠].

ب- مكان نزولها:

مدنية.

ج- فضلها:

رُويَ مرسلًا عن مجاهد أن رسول الله ﷺ قال: «عَلِّمُوا رِجَالَكُمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ»^(١).

وعن أبي عطية، قال: كتب إلينا عمر: «أَنْ عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ»^(٢).
وعن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: «أَنْ تَعَلِّمُوا سُورَةَ النِّسَاءِ وَالْأَحْزَابِ وَالنُّورِ»^(٣).

وعن المسور بن مخرمة- رضي الله عنه- أنه سمع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «تَعَلِّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةَ النِّسَاءِ، وَسُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَسُورَةَ الْحَجِّ، وَسُورَةَ النُّورِ؛ فَإِنْ فِيهِنَّ الْفَرَائِضُ»^(٤).

وهذه السورة سورة عظيمة، اشتملت من أولها إلى آخرها على كثير من الأحكام والأخلاق والآداب والجوانب التربوية وغير ذلك.
ولهذا أفردتها جمع من أهل العلم بالتفسير، منهم ابن تيمية والمودودي والشنقيطي وغيرهم، كما أطال الكلام فيها كثير من المفسرين في تفاسيرهم.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ١٨/٥ ونسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣٥.

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٢٨.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» كتاب التفسير ٣٩٥/٢. وقال: «صحيح علي شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بمطلع خاص من بين سور القرآن الكريم؛ تعظيماً لها، وامتثالاً بإنزالها ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

٢- بيان حد الزاني غير المحصن: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

٣- بيان حرمة الزنا، وأن الزاني لا يطاوعه على زناه إلا زانية مثله أو مشركة.

٤- بيان حد القذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥).

٥- بيان حكم اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠).

٦- ذكر قصة الإفك وما تضمنته من الوعد والوعيد والعبر والعظات والحكم والأحكام وغير ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢).

٧- النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وعن الخلف على ترك الإحسان وبذل الفضل.

٨- التحذير من قذف المحصنات الغافلات المؤمنات والوعيد لمن فعل ذلك، وتبرئة عائشة رضي الله عنها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (١٤).

٩- بيان آداب الاستئذان في دخول بيوت الآخرين: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [الآية: ٢٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾.

١٠- الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج، وعدم إبداء الزينة إلا للمحارم فقط إلا ما ظهر منها: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

١١- الأمر بتزويج الأيامي من الأحرار والماليك، ومكاتبة الذين يريدون المكاتبه من الماليك ومساعدتهم، والنهي عن إكراه الإماء على البغاء: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٣٢﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣٣﴾.

١٢- الامتنان بإنزال الآيات البينات، وذكر الأمثال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٤﴾.

١٣- ثناء الله عز وجل على نفسه بأنه نور السموات والأرض، وتعظيم نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية: ٣٥].

١٤- تعظيم عمارة المساجد، والثناء على عمّارها بالتسبيح والصلاة والعبادة وامتداحهم، ووعدهم بأحسن الجزاء والزيادة من فضله: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَيْعٌ وَلَا بِيَعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣٨﴾.

١٥- ضرب مثلين لأعمال الكفار الباطلة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ [الآية: ٣٩]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ زَجَعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ﴿٤٠﴾.

١٦- ذكر مظاهر تمام قدرته عز وجل في تسبيح جميع المخلوقات له، وسعة ملكه، وإزجائه السحاب، وتقليب الليل والنهار، وخلق الدواب كلها من ماء، على اختلاف

أشكالها: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ بِسَبِيحٍ لَهُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَفَتْ كُلُّ قَدْعَةٍ عَلَيْهِمْ صَلَاتُهُمْ وَسَبِيحُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

١٧- تأكيد الامتنان بإنزال الآيات: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

١٨- فضح المنافقين، وبيان دعواهم الإيذان وهم كاذبون، وإعراضهم عن حكم الله ورسوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعنا ثم يتولون فريقاً منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴿٤٧﴾﴾ [الآية: ٥٣]، إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

١٩- امتداح المؤمنين بقبولهم حكم الله ورسوله، وقولهم سمعنا وأطعنا ووعدهم بالفلاح والفوز والاستخلاف في الأرض وتمكين دينهم وتأمينهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ ومن يطع الله ورسوله، ويخش الله ويتقاه فأولئك هم الفايرون ﴿٥٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وأقسموا الصلوة وءاتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴿٥٦﴾﴾.

٢٠- تهديد الكافرين ووعدهم: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ

وَمَا وَدَّعَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

٢١- مشروعية استئذان المالك ومن دون الحلم عند الدخول على أهلهم في

أوقات ثلاثة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذْنَ مِنْكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلْمَ مِنْكُمْ تِلْكَ مَرْثَةٌ ﴿٥٨﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ .

٢٢- رفع الجناح عن القواعد من النساء في وضع ثيابهن: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرُجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ .

٢٣- رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد، وفيما تحول هذه الأعدار بينهم وبين القيام به من الأعمال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ بَيْنٌ﴾ [الآية: ٦١].

٢٤- بيان البيوت التي يجوز الأكل منها وإن لم يعلم رضا أصحابها: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ بَيْنٌ﴾ [الآية: ٦١].

٢٥- بيان صفة المؤمنين حقاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ .

٢٦- نهي المؤمنين أن ينادوا الرسول صلى الله عليه وسلم باسمه مجرداً، كما ينادي بعضهم بعضاً، أو لا يستجيبوا له إذا دعاهم، وتحذير المنافقين المخالفين لأمر الله ورسوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ .

٢٧- تقرير سعة ملك الله عز وجل وعلمه، ورجوع الخلاق إليه ومجازاته إياهم بأعمالهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةٌ لِّكُلِّ طَائِفَةٍ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾.

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

قوله: ﴿سُورَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة، وفي تنكير «سورة» تفخيم وتعظيم لشأنها، وفيه مع تخصيصها بهذا المطلع إشارة إلى عظمة هذه السورة لما اشتملت عليه من أحكام عظيمة وآداب كريمة ومواعظ جليلة (١).
والسورة: مأخوذة من معنى الرفعة والشرف.

قال النابغة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر (٢):

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملكٍ دونها يتذبذبُ

أي: أعطاك منزلة رفيعة شريفة قصرت عنها منازل الملوك.

وهي أيضاً مأخوذة من معنى الإبانة والتمام والإحاطة؛ لأنها بائنة عن السورة الأخرى، منفصلة عنها تامة بموضوعاتها، محيطة بآياتها (٣).

والسورة من القرآن في الاصطلاح: هي القطعة من كلام الله تعالى في كتابه ذات بداية ونهاية معروفة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر (٤).

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن، مادة «سور»، «إرشاد العقل السليم» ٨٩/٤.

(٢) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» ص ٥٦ جمع وتحقيق محمد عاشور.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» ٢٠/١، «جامع البيان» ١/١٠٤-١٠٥ تحقيق أحمد شاكر، «المحرر الوجيز» ٤٦/١،

«لسان العرب» مادة «سور».

(٤) انظر: «البرهان في علوم القرآن» ١/٢٦٤، وانظر ما تقدم في بيان معنى السورة والآية في تفسير سورة الفاتحة،

المبحث السادس.

﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾: الجملة في محل رفع صفة لـ«سورة»، والإنزال يكون من علوٍ إلى أسفل، وفي هذا إثبات علو الله عز وجل على خلقه، وفيه دلالة على أن القرآن منزل غير مخلوق كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافاً لما ذهب إليه المعتزلة من القول: بخلق القرآن، وقولهم باطل بدلالة القرآن كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وَفَرَضْنَاهَا» بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف^(١).

والفرض يطلق بمعنى: الحز والقطع، يقال: فرض الجزار اللحم، أي: قطعها، ويطلق على الإيجاب ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: أوجب على نفسه الحج بالإحرام به.

ويطلق على التقدير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٦]^(٢).

فمعنى ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وقدّرنا ما فيها من الحدود والأحكام تقديراً محكماً، بحيث لا تجوز الزيادة فيها، ولا النقص منها. وفي قراءة التشديد تأكيد الإيجاب والتقدير والإحكام^(٣)؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً. وقيل: قراءة التخفيف بمعنى «الإيجاب» وقراءة التشديد بمعنى «التقدير».

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ وهو كالتفسير والتوكيد لقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾.

﴿آيَاتٍ﴾ جمع آية، وهي لغة: العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص ٣٣٧، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) انظر مادة «فرض» في «المفردات في غريب القرآن»، «لسان العرب».

(٣) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» ٢/ ١٣٣، «النشر» ٢/ ٣٣٠، «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٩٠.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُو بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]. وهي تنقسم إلى قسمين آيات كونية، وهي كل ما بثه الله وخلق في هذا الكون علويه وسفليه من المخلوقات، من السموات والأرض والجبال والملائكة والإنس والجن، والحيوان والنبات، وسائر المخلوقات، فكل ذلك من الآيات والعلامات الدالة على وجود الخالق وعظمته، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدٌ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ وَفَالَ سَحَرًا أَوْ مَجْنُونًا﴾ (٣٩) ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٤٠) ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) ﴿مَا نَذَرُوا مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾ (٤٢) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣) ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٣٨-٤٩].

وفي كل ذلك آية، بل آيات دالة على عظمة الخالق عز وجل.

قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

والقسم الثاني من الآيات: الآيات الشرعية المنزلة من عند الله، وهو الوحي الذي أوحاه الله عز وجل إلى أنبيائه ورسله، وأعظمه القرآن الكريم الذي أنزله الله وأوحاه إلى عبده ونبيه محمد ﷺ، ومنه هذه السورة وما فيها من الآيات البينات.

وسمي ذلك ﴿آيَاتٍ﴾؛ لما فيه من الهدى والإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وأخباره، وصلاحيته لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، ولما فيه من الدلالة على أنه من عند الله عز وجل الذي له الكمال في ذاته وأسمائه وصفاته، وربوبيته وألوهيته، المستحق للعبادة دون سواه، كما قال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولكونه علامة ودلالة على صدق من جاء به وهو نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ: قال «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٢).

﴿يُنْتَبِئُ﴾ جمع بينة، من بان يبين فهو بين، إذا ظهر واتضح، أي: واضحات مفصلات بأنفسهن، لا غموض فيهن ولا إشكال، ولا لبس فيما تضمنته من الأحكام والأخلاق والآداب الشرعية، ومن الدلائل الكونية الدالة على وجود الخالق وكمال قدرته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما ذكر الله عز وجل في مواضع كثيرة هذا البيان والتفصيل، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا، ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا فَضَّلْنَا آيَاتِنَا، فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧)

فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

ففي هذه الآيات الشرعية بيان الأحكام والحلال والحرام.

(١) البیتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإبان ١٥٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف وأصلها «تذكرون»، وقرأ الباقون: «تَذَكَّرُونَ» بالتشديد^(١). و«لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتذكروا، أو للترجي، أي: رجاء أن تذكروا، والرجاء إنما هو من المخاطبين. والأول أصح.

والتذكر: هو الاتعاظ بالقرآن الكريم، والاعتبار بما فيه من الوعد والوعيد، وتدبر ألفاظه ومعانيه وتصديق أخباره، وتطبيق أحكامه. وليس التذكر الثقافي فقط الذي لا يصاحبه عمل كما هو حال الكثيرين اليوم.

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

هذا أول حكم مما فرضه الله عز وجل وأوجبه في هذه السورة وهو حكم الزانية والزاني، أي الحد الذي يقام عليهما، وهو وما بعده تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾، ﴿الزَّانِيَةُ﴾ مبتدأ، و﴿الزَّانِي﴾ معطوف عليه، وخبر المبتدأ قوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

والزانية: هي المرأة التي ارتكبت فاحشة الزنا، والزاني: هو الرجل الذي ارتكب تلك الفاحشة. و«الزنا» بالمد والقصر «الزنا» و«الزنا»^(٣). والقصر أولى. والزنا هو: إتيان الرجل المرأة بطريق الحرام أي: «غيبوبة حشفة الرجل في فرج امرأة لا تحل له».

كما قال معاذ بن مالك - رضي الله عنه - لما سأله الرسول ﷺ: «أتعرف الزنا؟» قال: «نعم: أتيت منها حراماً، ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً»^(٣).

والزنا: من أعظم الفواحش قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) انظر: «اللسان العرب» مادة «زنا».

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٢٨ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَيِّئًا ﴿ [الإسراء: ٣٢].

وقدّم الزانية على الزاني في الذكر هنا- مع أن الغالب في القرآن تقديم الرجال على النساء، وذلك- والله أعلم- إشارة إلى أن المرأة هي السبب الأعظم في حصول هذه الجريمة، فلو احتشمت وحفظت نفسها، وقَرَّت في بيتها، وامتنعت من هذه الفاحشة وابتعدت عن الرجال لانقطع دابر هذه الجريمة، بخلاف جريمة السرقة فإن الله عز وجل قدّم فيها ذكر السارق على السارقة، فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] وذلك لأن الرجل أجزأ على السرقة غالبًا.

وأيضًا فإن الزنا في حق المرأة أشدّ شناعةً وفحشًا، وضرره وآثاره عليها أعظم لما فيه من الفضيحة والعار عليها وعلى عشيرتها، وقد تحمّل بسببه، إضافةً إلى ما قيل من أن داعي الشهوة في المرأة أكثر وأقوى من الرجل على وجه العموم.

وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ يعم كل زانٍ وزانية من المسلمين أو من غيرهم، كما في رحمه ﷺ لليهوديين.

﴿فَأَجْلِدُوا﴾ الأمر للوجوب، والخطاب فيه لولاة أمور المسلمين، فلا يجوز أن يقيم الحد غير الإمام أو نائبه لما في ذلك من حصول الفوضى بين الناس، ما عدا السيد فإنه يقيم الحد على مملوكه على الصحيح.

والجلد: ضرب «الجلد». يقال: جلده، إذا ضرب «جلده» ضربًا يؤلمه، ولا يوضع اللحم، ولا يجرح الجلد^(١)، ولا يكسر العظم.

وهكذا ينبغي أن يكون الضرب وسطًا بين الضربين لا شديدًا، ولا سهلًا خفيفًا لا يؤلم، بل ضربًا مؤلمًا غير مبرح، ولا يرفع الضارب يده حتى يرى بياض إبطه.

ويكون السوط أيضًا وسطًا بين السوطين لا شديدًا ولا لينًا، ويتقي الضارب المقاتل، كالرأس والوجه ونحو ذلك، قال ﷺ: «إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه»^(٢).

وينبغي أن يفرق الضرب على الجسم لينال كل عضو نصيبه من الألم، ويجلد

(١) انظر: «اللسان» مادة «جلد».

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٩٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرجل قائماً والمرأة قاعدة.

﴿كُلٌّ وَجِدْرٌ مِّنْهُمَا﴾، أي: كل واحد من الزانيين المذكورين في قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾.

والآية هنا خاصة بالزناة الأبكار؛ كما سيأتي بيانه في الفوائد والأحكام.

﴿مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، أي: عدد مائة جلدة بالسوط والعصا ونحو ذلك.

وقد خصص من عموم قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَجِدْرٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الإمام

لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصِينَ فَإِنَّ أَنْتَ بِفَتْحِهَا فَعَلَيْنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾

[النساء: ٢٥]، أي: فعليهن نصف حد الحرائر خمسون جلدة، وألحق الجمهور بالإمام

العبيد الذكور فمن زنى منهم جلد خمسين جلدة^(١).

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، «تأخذكم» مجزوم بها، وعلامة

جزمه السكون، «بهما»، أي: بالزانيين.

﴿رَأْفَةٌ﴾ قرأ ابن كثير: «رَأْفَةٌ» بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بسكونها^(٢)، ومعناها واحد.

والمعنى: ولا تغلبكم الشفقة عليهما، والرحمة بهما، والعطف عليهما، فتمنعكم من

إقامة الحد عليهما، أو تحملكم على تخفيفه والخروج به عن الوجه الشرعي المطلوب، أما

الرأفة الطبيعية فإنها أمر جبلي فطر عليه البشر، بل كثير من الحيوانات.

﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾، أي: في سبيل إقامة دين الله وشرعه وحكمه.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] ولفظ

الجلالة «الله» علم على ذات الرب عز وجل، وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز

وجل تابعة له، كما في قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[الحشر: ٢٢-٢٤].

(١) انظر تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِنَّ أَنْتَ بِفَتْحِهَا فَعَلَيْنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾

[٢٥].

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٠.

وقد يأتي تابعا لغيره من أسماء الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب عطف بيان، ومعنى (الله)، أي: المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيماً.

فلا يجوز أن تحول الشفقة عليهما والرحمة بهما دون تنفيذ حكم الله فيهما، أو تحمل على التساهل به وتخفيفه، بل إن عين الشفقة عليهما والرحمة بهما إقامة هذا الحد عليهما تطهيراً لهما من رجس هذه الفاحشة، كما قال ما عزم عليه: «طهرني يا رسول الله»^(١).

وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قال تعالى بعد ذكر قصة أصحاب الجنة الذين عزموا على منع المساكين منها: ﴿فَطَأَتْ عَيْنُهَا طَافُتٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُوَ نَائِمٌ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الْمَذَابُ وَالْمَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ [القلم: ١٩-٣٣].

وقال ﷺ للمتلاعنين: «فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»^(٢).

وهذا بعد رفع الحكم إلى السلطان وثبوت الحد، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً»^(٤).

وفي رواية: «لحد يقام في الأرض بحقه أذكى فيها من مطر أربعين عاماً»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٦٩٥ - من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه. وانظر: «دقائق التفسير» ٣٨٥-٣٨٦/٤.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود- العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان ٤٣٧٦، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٨٦.

(٤) أخرجه النسائي في قطع يد السارق- الترغيب في إقامة الحد ٤٩٠٤، ٤٩٠٥، وابن ماجه في الحدود- إقامة الحدود ٢٥٣٨، وأحمد ٣٦٢/٢، ٤٠٢.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١١٩٣٢.

قال ابن كثير^(١): «وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، لا ترحوهما، وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز ذلك».

وأيضًا فلا تأخذكم بهما شفقة ورحمة فتخففون الجلد والضرب عليهما، بل أقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن هذه الفاحشة، وليس المراد الضرب المبرح. وعن عبيد الله بن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهم - : «أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلها وظهرها. قال عبيد الله: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: يا بني، ورأيتني أخذتني بها رأفة. إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدها في رأسها، وقد أوجعتُ حيث ضربتُ»^(٢).

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ «إن» شرطية، و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه محذوف، دلَّ عليه ما سبق، أي: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فاجلدوهما ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله.

قال ابن كثير^(٣): «وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: فافعلوا ذلك، أقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحًا؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك».

وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله! إنني لأذبح الشاة وأنا أرحمها. فقال: «ولك في ذلك أجر»^(٤).

والإيمان بالله معناه: التصديق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته مع عمل الجوارح بمقتضى ذلك.

والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث بعد الموت والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال وما في ذلك اليوم من الأهوال، والجنة والنار، وغير ذلك مما دلَّ عليه الكتاب

(١) في «تفسيره» ٦/٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/١٤٠، وعبد الرزاق في «المصنف» ١٣٥٣٧، والبيهقي في سننه ٨/٢٤٥. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٦.

(٣) في «تفسيره» ٦/٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣/٤٣٦، ٥/٣٤. من حديث قره المزني رضي الله عنه.

والسنة.

وسُمي اليوم الآخر بهذا الاسم؛ لأنه بعد انقضاء هذه الدنيا بأيامها ولياليها، فأخر ليلة منها صبيحتها ذلك اليوم الطويل ولا ليل بعده.

وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به عز وجل وبين الإيمان باليوم الآخر، وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح، وهو أعظم رادع عن التهادي في الباطل لمن وفقه الله تعالى.

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»، أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في الشرور، واعتدى بعضهم على بعض ونحو ذلك.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، وهو للوجوب أي: وليحضر (عذابها). أي: عقوبتها بجلدهما وإقامة الحد عليهما ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: جماعة من المؤمنين بحيث يكون رجمها علانية بحضور الناس، والطائفة: الجماعة من الناس، من واحد، أو من اثنين، أو من ثلاثة فأكثر^(١).

والحكمة من ذلك - والله أعلم - التنكيل بهما والفضيحة لهما، والردع لأمثالهما، كما قال عز وجل في المحارِبِينَ: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

قال ابن كثير^(٢): «هذا تنكيل للزانيين إذا جلدوا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريبًا وتوبيخًا وفضيحة إذا كان الناس حضورًا».

وهذا عذاب معنوي يقع على القلب، مع العذاب الحسي على الجسد بالجلد.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٤٥ - ١٤٩، وانظر مادة «طوف» من «القاموس المحيط»، و«لسان العرب».

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٦.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١): «فأمر بعقوبتها وعذابها بحضور طائفة من المؤمنين، وذلك بشهادته على نفسه أو بشهادة المؤمنين عليه؛ لأن المعصية إذا كانت ظاهرة كانت عقوبتها ظاهرة، كما روي في الأثر عن عمر رضي الله عنه: «من أذنب سرًّا فليتب سرًّا، ومن أذنب علانية فليتب علانية».

قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

أمر الله عز وجل بجلد الزانين عقوبةً لهما وتنكيلاً بهما، ثم أتبع ذلك ببيان تحريم مناكحتها هجرًا وتأديبًا لهما.

سبب النزول:

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكانت امرأة بغية بمكة يقال لها: عناق، فأراد أن يتزوجها، فسأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله ﷺ، ولم يرد عليه شيئًا حتى نزلت ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد! ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فلا تنكحها^(٢).

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن امرأة يقال لها: أم مهزول كانت تُسافح، وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة، وأن رجلاً من المسلمين أراد أن يتزوجها فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(٣).

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣٨٣/٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٠١، والنسائي في النكاح ٣٢٢٨، والترمذي في «التفسير» ٣١٧٧، والطبري في «جامع البيان» ١٥١/١٧ - ١٥٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٥٢٦/٨، والحاكم ١٦٦/٢، والبيهقي في سننه ١٥٣/٧. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: «حسن الإسناد». وانظر: «لباب النقول» ص ١٥٢، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص ١٤٢.

(٣) أخرجه أحمد ١٥٩/٢، ٢٢٥، والطبري في «جامع البيان» ١٥٠/١٧ - ١٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٥٢٥/٨، والحاكم في النكاح ١٩٣/٢، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٢١٢، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٨/٦.

قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

الزاني والزانية: من يرتكبان فاحشة الزنا، وقدم هنا الزاني على الزانية؛ لأن الكلام في النكاح، والرجل هو الذي بيده عقدة النكاح، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

والمشركة والمشرك: من يرتكبان الشرك، وهو دعوة غير الله، وإشراكه مع الله، وتسويته بالله، فيما هو من خصائص الله، كما قال الله جل جلاله عن المشركين أنهم يقولون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٧) ﴿إِذْ سَوَّيْتُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٨) [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

والنكاح: يطلق على العقد، وعلى الوطء، وأكثر إطلاقاته في القرآن على العقد. واختلف في المراد به هنا، فذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المراد به: الوطء والجماع. فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك^(١).

وهكذا قال جمع من السلف: إن المراد بالنكاح في الآية: الجماع^(٢) واختاره الطبري^(٣) وغيره. قال ابن تيمية^(٤): «فأما المشرك فلا إيمان يزجره عن الفواحش ومجاعة أهلها، وأما الزاني ففجوره يدعو إلى ذلك، وإن لم يكن مشركاً».

وقال ابن كثير^(٥): «هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يوطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاصٍ بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه».

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٥٢٢/٨، وصحح إسناده ابن كثير في «تفسيره» ٧/٦.

كما أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً بمعناه من طرق عدة ٢٥٢٢/٨ - ٢٥٢٦، والطبري في «جامع البيان» ١٧/١٥٣ - ١٥٤، ١٥٧، ١٥٩.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/١٥٧ - ١٥٩، «تفسير ابن أبي حاتم» ٢٥٢١/٨ وما بعدها، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/١٦٧ «تفسير ابن كثير» ٧/٦.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/١٦٠ - ١٦١، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/٥٤٠.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٠٣.

(٥) في «تفسيره» ٧/٦.

والمراد من هذا: تبيح الزنا، والتصريح بخبث الزناة والزواني.
 وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المراد بالنكاح هنا: العقد، وهذا ما يؤيده ما
 رُوي في سبب النزول.

قال ابن القيم^(١): «والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يُعمل بها لم ينسخها
 شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم.. والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح
 بحمد الله تعالى، فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ هل هو
 خبر، أو نهي، أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة، وإن كان
 نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح
 المؤمنات العفاف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك
 قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه، فقال بعضهم: المراد
 من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة - وهذا فاسد،
 فإنه لا فائدة فيه، ويُصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن
 الزاني لا يزني إلا بزانية، فأى فائدة في الإخبار بذلك، ولما رأى الجمهور فساد هذا
 التأويل أعرضوا عنه، ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به: رجل
 واحد وامرأة واحدة وهي «عناق» البغي وصاحبها، فإنه أسلم واستأذن رسول الله ﷺ
 في نكاحها فنزلت الآية، وهذا أيضاً فاسد».

وبعد أن بيّن وجه فساد هذا القول وذكر قول من قال: الآية منسوخة بقوله:
 ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، ويبيّن أن هذا أفسد من الكل إذ لا تعارض بين الآيتين
 قال بعد ذلك:

«فإن قيل فما وجه الآية؟ قيل: وجهها - والله أعلم - أن المتزوج أمر أن يتزوج
 المحصنة العفيفة، وإنما أُبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر سبحانه في سورتي
 النساء والمائدة، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على
 شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.
 فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرّعه على لسان رسوله، أولاً

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٣-٢٤٦.

يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من أشرك مثله.
 وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرّم عليه لم يصح النكاح، فيكون زانياً، فظهر معنى
 قوله: ﴿لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وتبين غاية البيان، وكذلك المرأة». وقال أيضاً: «وأما نكاح الزانية، فقد صرّح الله سبحانه وتعالى بتحريمه في سورة
 النور، وأخبر أن من نكحها فهو إما زانٍ أو مشرك، فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه
 ويعتقد وجوبه، أو لا فإن لم يلتزمه ولم يعتقده، فهو مشرك. وإن التزمه واعتقد وجوبه،
 وخالفه، فهو زانٍ ثم صرّح بتحريمه فقال: ﴿وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾».

واستدل ابن القيم على أن المراد بالنكاح: الزواج بقوله: ﴿لَتَقْبِلُنَّ لِلْخَيْثِثِ
 وَالْخَيْثِثُوكَ لِلْخَيْثِثَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، فقال: «والخبيثات: الزواني، وهذا يقتضي أن من
 تزوج بهن فهو خبيث مثلهن. وأيضاً: فمن أقبح القبيح أن يكون الرجل زوج بغي،
 وقُبْحُ هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة. وأيضاً فإن البغي تفسد على
 الرجل فراشه، وتعلق عليه أولاداً من غيره، والتحريم يثبت بدون هذا، وقد فرّق النبي
 ﷺ بين الرجل والمرأة التي وجدها حُبْلَى من الزنا، ولما استأذنه: مرثد بن أبي مرثد أن
 ينكح «عناق» وكانت بغيّاً قرأ ﷺ عليه آية النور، وقال: «لا تنكحها».

وقد تعقب الشنقيطي^(١) قول ابن القيم بأن ما صح عن ابن عباس يرده. واستدل
 للقول بأن المراد بالنكاح في الآية: الوطء، بالآيات التي فيها تحريم مناكحة المشركين،
 ثم قال: «وهذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقاً؛ لأن حمل النكاح فيها على
 التزويج لا يلائم ذكر المشرك والمشركة، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم
 الأحاديث الواردة المتعلقة بالآية، فإنها تعين أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج، ولا
 أعلم مخرجاً واضحاً من الإشكال في هذه الآية إلا مع بعض تعسف، وهو أن أصح
 الأقوال عند الأصوليين، كما حرّره أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله - في رسالته في علوم
 القرآن، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة، هو جواز حمل المشترك على معنيه أو
 معانيه. وإذا علمت ذلك، فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج، خلافاً لمن
 زعم أنه حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر. وإذا حملت المشترك على معنيه، فيحمل

(١) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ٧١-٨٢.

النكاح في الآية على الوطاء وعلى التزويج معاً، ويكون ذكر المشركة والمشرک على تفسير النكاح بالوطء دون العقد، وهذا هو نوع التعسف الذي أشرنا له.

﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة لما سبق، أي وحرم و حظر شرعاً الزنا، وتزوج الزانيات، وتزويج الزناة على المؤمنين.

كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [الآية: ٢٥] أي: عفيفات غير زانيات علناً ولا سراً، وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفَّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [الآية: ٥].

فالإيذان المطلق يمنع صاحبه من الزنا، ومن تزويج الزناة والزانيات، قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث^(١).

الفوائد والأحكام:

١- عظم هذه السورة وأهميتها، وما فيها من أحكام وآداب؛ لقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فتخصيصها في هذا الموضع من بين سور القرآن يدل على ذلك.

٢- إثبات علو الله عز وجل على خلقه لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، وفي هذا الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن. وقد ظهرت هذه المقولة منذ القرون الأولى - وما بالعهد من قدم - وانتصر لها الخليفة المأمون. وعُدَّ علماء أهل السنة من أجل القول بذلك، منهم إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، الذي تصدى لهذه البدعة وردّها وثبت على القول بأن القرآن مُنَزَّلٌ غير مخلوق.

ولهذا قال علي بن المديني رحمه الله: «أعزَّ الله الإسلامَ برجلين ليس لهما ثالث: أبو

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيذان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيذان ٢٦٢٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- بكر الصديق يوم الرّدة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة»^(١).
- ٤- أن ما أنزله الله عز وجل في هذه السورة من أحكام مما فرضه الله على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾.
- ٥- أن في القرآن وما اشتمل عليه من آياتٍ أعظم الدلالة على وجود الله عز وجل وكمالهِ في ذاته وأسمائه وصفاته، وربوبيته، وألوهيته، وكمال شرعه، وصدق رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَسِّنِّي﴾.
- ٦- الامتتان بإنزال هذه السورة وفرضها، وما فيها من الآيات البينات، وهكذا امتن الله عز وجل على عباده بهذا البيان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.
- ٧- أن المقصود من إنزال السور والآيات: حمل العباد على التذكر والاتعاظ والعمل بما أنزل الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تذكروا. ويؤخذ من هذا رافة الله عز وجل ورحمته بالخلق ومحبه هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأعراف: ٢، ١] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ولولا ذلك لما أرسل الرسل وأنزل الكتب.
- ٨- في تقديم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ إشارة إلى أن السبب الرئيس في وقوع هذه الفاحشة هي المرأة، كما أنها المتضررة به أكثر، إذ لو قرّت في بيتها وحفظت نفسها وامتنعت وابتعدت عن مخالطة الرجال لانقطع دابر هذه الجريمة. وفي هذا دلالة على تحريم التبرج والسفور، ووجوب حفظ المرأة لنفسها وعفتها، والبعد عن مخالطة الرجال وأسباب الفتنة لها وبها.
- وما من شك أن نساء المسلمين لو التزمن الحجاب واللباس الشرعي وقررن في بيوتهن، كما أمر الله بذلك أمهات المؤمنين لكان المجتمع أبعد ما يكون عن هذه الفاحشة. نسأل الله الهداية والتوفيق.
- ٩- بلاغة القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ فقدّم الزانية على الزاني؛ لأن المرأة-

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥/ ٢٧٨، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩٠/ ٦).

كما سبق - هي السبب الأعظم؛ ولهذا في آية السرقة قَدَّم السارق على السارقة فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ لأن الرجل أجزأ على السرقة غالبًا.

١٠- في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ دليل على أنه لا بد من ثبوت الزنا في حق من يقام عليه الحد، وثبوته بشهادة أربعة رجال عدول مكلفين أحرار، يشهدون شهادة صريحة بذلك، أو بالإقرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْءُ يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ تَيَوَّقَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فهاتان الآيتان تدلان بمفهومهما على أن الزنا يثبت بأربعة شهداء. وعلى هذا أجمع أهل العلم. فإن كان الشهود دون الأربعة أو اختلفت شهادتهم أو بعضهم، أو لم تثبت عدالتهم أو بعضهم، أو كان بعضهم مملوكًا لم يثبت الزنا.

كما يثبت الزنا بالإقرار، وهو أن يعترف الزاني على نفسه بالزنا، من غير أن يكره على ذلك، مع التصريح، بذلك بدليل قوله ﷺ في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - لما عز بن مالك رضي الله عنه: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت» قال: لا. قال: «أفنكتها؟» قال: نعم. فعند ذلك، أمر برجمه^(١).

وقد اختلف العلماء هل يكفي الإقرار مرة واحدة أو لا بد من الإقرار أربع مرات؟ فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا بد من الإقرار على نفسه أربع مرات، لما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، وهو في المسجد، فناداه، فقال: يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه، حتى ثنى عليه ذلك أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال له: «أبك جنون؟» قال: لا. قال: «فهل أحصنت؟»، قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهبوا به فارجموه»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨٢٤، ومسلم في الحدود ١٦٩٣، وأبو داود في الحدود - رجم ماعز بن مالك ٤٤٢٧، وأخرجه أيضًا ٤٤٢٨ بمعناه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٧٢، ومسلم في الحدود ١٦٩١، وأبو داود في الحدود ٤٤٢٨، والنسائي في

وعن بريدة- رضي الله عنه- : أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فرده الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «أتعلمون بعقله بأسًا، تنكرون منه شيئاً؟» فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا، فيما نرى. فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه، فأخبروه: أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به فرجم^(١).

وقالوا أيضًا: إن هذا هو الموافق لعدد الشهود في الزنا، فمقابل كل شاهد إقرار مرة واحدة. واشترط بعضهم أن تكون الإقرارات في أربعة مجالس لحديث بريدة- رضي الله عنه.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يكفي الإقرار على نفسه مرة واحدة فإذا أقر على نفسه مرة واحدة ولم ينزع عن إقراره أقيم عليه الحد.

واستدلوا بما جاء في حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها» فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت^(٢).

قالوا: فلو كان يشترط لإقامة الحد على الزاني الإقرار أربع مرات لبيّن النبي ﷺ ذلك لأنيس- رضي الله عنه- فلما أطلق ذلك عرفنا أنه يكفي الإقرار ولو مرة واحدة.

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة- رضي الله عنه- قال: «أتى رسول الله ﷺ بماعز بن مالك- رجل قصير عليه إزار- فردّه رسول الله ﷺ مرتين، ثم أمر به فرجم^(٣).

وروي أنه ردّه ثلاث مرات.

الجنائز ١٩٥٦، والترمذي في الحدود ١٤٢٨.

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٦٩٥، وأبو داود في الحدود ٤٤٣٣. وهكذا جاء في حديث جابر بن سمرة- رضي

الله عنه- وغيره، أخرجه مسلم ١٦٩٢، وأبو داود ٤٤٢٢.

(٢) سيأتي قريباً بتامه وتخريجه.

(٣) أخرجه أحمد ٨٦/٥.

قالوا: فهذا كله يدل على أن العدد غير مقصود، وإنما المقصود التثبيت والتحقق من وقوع الزنا.

والأول أحوط، والثاني أرجح، فما حصل به تمام التثبيت والتحقق كافٍ، سواء اعترف على نفسه مرةً أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو أكثر.

ولهذا لو رجع ونزع عن إقراره قبل منه على الصحيح من أقوال أهل العلم ولم يقم عليه الحد، ولو أقرّ على نفسه مائة مرة لقوله ﷺ في حديث ما عر لما هرب حين أدلقتة الحجارة: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه»^(١).

وأما الحمل فلا يثبت به الزنا لوجود الشبهة، فقد تكون المرأة مكرهة أو زني بها وهي نائمة أو غير ذلك. وقد قال ﷺ: «ادروا الحدود ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة»^(٢).

١١- وجوب جلد كل من الزاني والزانية مائة جلدة، وعدم الرأفة بهما والشفقة عليهما في إقامة حكم الله عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوا كُلَّ ذَنبِيٍّ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي بَيْنِ اللَّهِ﴾ وأجمع المسلمون على هذا.

ويخص من عموم الآية الأمة فحدّها خمسون جلدة، نصف حد الحرّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]. كما دلّت السنّة على أن الجلد مائة جلدة خاص بغير المحصن، وأن عليه أيضاً تغريب سنة.

كما دلّت الآية التي نسخ لفظها وبقي حكمها وكذا السنّة على أن حد المحصن - وهو الذي وطئ بنكاح صحيح - الرجم، فعن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني - رضي الله عنهما: «أن أعرابيين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: إن ابني كان عسيفاً - يعني أجيّراً - على هذا، فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة،

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤١٩ - من حديث يزيد بن نعيم بن هزال، عن أبيه رضي الله عنه، وصححه الألباني. وانظر: «المغني» ١٢/٣٥٤ - ٣٥٥، «أضواء البيان» ٦/٢٨ - ٣٢، ٥٩ - ٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الحدود ١٤٢٤ - من حديث عائشة - رضي الله عنها - وذكر أنه روي موقوفاً عن عائشة وعدد من الصحابة قال والموقوف أصح. وانظر: «أضواء البيان» ٦/٣٧ - ٤١.

فسألت أهل العلم، فأخبروني أن علي ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن علي امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! لأفضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغديا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها» فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»^(١).

وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكرُ بالبكرِ جلد مائة وتغريب عام، والثيبُ بالثيبِ جلد مائة والرجم»^(٢).

فدلّ هذان الحديثان وغيرهما من الأحاديث على أن حد الزاني غير المحصن هو الجلد مائة جلدة وتغريب عام. وبهذا قال جمهور أهل العلم.

واختلفوا في تغريب المرأة، والمملوك ذكراً كان أو أنثى^(٣)، والأظهر - والله أعلم - أن المرأة تغرب كالرجل إلا إذا خيف عليها الفتنة، والغالب أنه إذا كان التغريب بها هو ممكن الآن وهو أن يسجن الزاني في بلد آخر^(٤) - كما رجح ذلك جمع من المحققين منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره^(٥) - فإن الفتنة قد تكون مأمونة.

أما العبد والأمة فالأظهر - والله أعلم - أنهما لا يغربان، لتضرر مالكهما بذلك وقد دلّ على ذلك حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٢٥، ومسلم في الحدود - من اعترف على نفسه بالزنا ١٦٩٨، وأبو داود في الحدود ٤٤٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٤١٠، والترمذي في الحدود ١٤٣٣، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود - حد الزنا ١٦٩٠، وأبو داود في الحدود - في الرجم ٤٤١٥، والترمذي في الحدود - ما جاء في الرجم على الثيب ١٤٣٤، وابن ماجه في الحدود ٢٥٥٠.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي ١/ ٣٠٥، «معالم التنزيل» ١/ ٤٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ١/ ٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ٥/ ٨٧، «زاد المعاد» ٥/ ٣٤، ٣٧، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣.

(٤) وذلك أن مجرد التغريب بدون سجن قد يكون من الصعب التحكم فيه بمن غرب نظرًا لتوفر وسائل المواصلات السريعة والمختلفة، فبمجرد أن ينفي سرعان ما يعود، ومن الصعب جدًا، بل ومن العسير جدًا مراقبته، ولو جهز له جيش كامل.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٩٩.

فتبين زناها، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها..» الحديث^(١) ولم يذكر فيه التغريب. وظاهر حديث عبادة الجمع بين الجلد والرجم للثيب. وقد رُوي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة، وقال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ»^(٢).

وبهذا قال طائفة من السلف، وأهل الظاهر^(٣) وهو رواية عن الإمام أحمد^(٤)، لكن الظاهر من أمر الرسول ﷺ لأُنيس في قوله: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها». ولم يذكر الجلد أن حد الزاني المحصن هو الرجم فقط، وهكذا ثبت من فعل الرسول ﷺ مع ماعز بن مالك، والغامدية الاقتصار على الرجم فقط، ولم ينقل عنه ﷺ أنه جلدهما قبل الرجم.

وعلى هذا دلت الأحاديث الصحيحة بألفاظها وطرقها المختلفة والمتعددة^(٥)، فحد الزاني المحصن الرجم، وهو مما أنزل في القرآن، كما في حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس! فإن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف»^(٦).

(١) سيأتي تحريجه قريباً.

(٢) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨١٢، وأحمد ١/١٤١، وعبد الرزاق في «المصنف» الأثر ١٣٥٠، وابن أبي شيبة ٨٨/١٠.

(٣) انظر: «المحلى» ١١/٢٣٤.

(٤) انظر: «المغني» ١٢/٣٠٨.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٥.

(٦) أخرجه البخاري في الحدود - رجم الحبل من الزنا إذا أحصنت ٦٨٢٩، ومسلم في الحدود - رجم الثيب في الزنا ١٦٩١، وأبو داود في الحدود ٤٤١٨، والترمذي في الحدود - تحقيق الرجم ١٤٣٢، وابن ماجه في الحدود ٢٥٥٣، وأحمد ١/٢٩، ٣٣، ٣٦.

وقد رجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية، والجهنية، واليهوديين، وامرأة العسيف. وجمهور العلماء على أن حد الزاني المحصن هو الرجم فقط دون الجلد، وهو الراجح للأدلة السابقة في رجم بالإجماع، ولا يزداد عليه الجلد عند جمهور أهل العلم^(١). وقد رتب الله على فعل الفاحشة هذه العقوبة العظيمة وهي الرجم، ورجم سبحانه وتعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل (فاحشة اللواط)، وذلك ما لم يجعله في شيء من المعاصي^(٢) مما يدل على شناعة وقبح الزنا واللواط.

١٢- أن الذي يقيم الحد على الزناة هم ولاية الأمر أو من يقوم مقامهم، وليس لأحد غيرهم أن يقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا﴾، ما عدا المملوك فإن الذي يقيم الحد عليه سيده لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فتيين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبلٍ من شعر»^(٣).

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضيف»^(٤)^(٥).

ولا يقال إن الخطاب في قوله: (فاجلدوها) لولاية الأمر ونوابهم لقوله في آخره «فبيعوها ولو بضيف» والذي له حق بيعها هو مالكها.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أيها الناس، أقيموا الحدود على أركانكم،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/٦، «أضواء البيان» ٤١/٦ - ٤٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤١٢.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٣٤، وفي الحدود ٦٨٣٩، ومسلم في الحدود ١٧٠٣، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٩، والترمذي في الحدود ١٤٣٣، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦٥.

(٤) الضيفر: الحبل، كما في الحديث قبله «ولو بحبل من شعر» وانظر: «النهاية» مادة «ضيفر».

(٥) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨٣٧، ٦٨٣٨، ومسلم في الحدود ١٧٠٣، ١٧٠٤، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٩، ٤٤٧٠، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦٥.

من أحسن ومن لم يُحسن؛ فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجعلها»^(١).
وقيل: إن الذي يقيم الحدود على جميع الزناة بها فيهم المالك هو الإمام أو نائبه
لعموم الآية.

والصحيح الأول للأحاديث المذكورة ونحوها فهي مخصصة لعموم الآية، وأنها في
الأحرار. وقد روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه جلد أمة له في الزنا^(٢)،
وكذا روي عن أنس رضي الله عنه^(٣).

١٣- لا يجوز للمؤمنين أن تأخذهم شفقة أو رحمة بالزانيين تحول بينهم وبين إقامة الحد
عليهما وتنفيذ حكم الله فيهما، أو تحملهم على تقليل الجلد أو تخفيفه؛ لقوله تعالى:
﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

١٤- الإشارة إلى تقديم تنفيذ حكم الله وما يقتضيه العقل والمصلحة على العاطفة
مطلقاً، لقوله هنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فإن إقامة الحد عليهما هو عين الرأفة
بهما والشفقة عليهما تطهيراً لهما من رجس الفاحشة، وكما قيل:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أحياناً على من يرحم^(٤)

والمشاهد أن كثيراً من الناس قد تحملهم العاطفة على ترك ما يجب فعله أو على
ارتكاب ما يجب تركه.

١٥- أن من شرط الإيثار بالله واليوم الآخر إقامة الحد على الزناة، وألاً تأخذنا بهما
شفقة ورحمة في تنفيذ حكم الله عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
وفي هذا حث وتأکید على وجوب إقامة الحدود.

١٦- أن الإيثار بالله أعظم أركان الإيثار الستة، وهو أصل الإيثار لتقدمه دائماً في
الذكر على بقية أركان الإيثار كما في قوله هنا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وكما في
قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٧٠٥، وأبو داود في الحدود ٤٤٧٣، والترمذي في الحدود ١٤٤١.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٣٧٦/٧ (١٣٥٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» ٤٢٨/٨ (١٧١٠٩).

(٣) أخرجه البيهقي ٤٢٧/٨ (١٧١٠٨).

(٤) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص ٢٧٤).

وَأَلْمَلَيْتِكَةَ وَالْكِتَابَ وَالَّتِي تَعْنَى ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

١٧- أن الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان وأعظمها؛ لأنه أعظم ما يحمل على العمل ويدفع إليه، لهذا يقرنه عز وجل دائماً بالإيمان به سبحانه وتعالى كما في قوله هنا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

١٨- يجب أن تكون إقامة الحد على الزانيين علناً بحضور طائفة من المؤمنين تنكيلاً بهما وفضيحة لهما وردعاً لمن تسول له نفسه الإقدام على مثل فعلهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: «إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن»^(١).

١٩- شدة حرمة الزنا وشناعته؛ لأن الله عز وجل رتب عليه هذه العقوبة العظيمة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وسأل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فقال: «يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٣).

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»، انظر: «كنز العمال» ١٤٢٨٤، وقد روي نحوه عن عثمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٤٧٧، ومسلم في الإيمان ٨٦، وأبو داود في الطلاق ٢٣١٠، والنسائي في تحريم الدم ٤٠١٣، والترمذي في «التفسير» ٣١٨٢.

(٣) سبق تحريجه.

ومع تشديد الشرع في عقوبة الزنا إلا أنه جعل في هذه العقوبة شيئاً من التدرج، فجعل عقوبته أولاً الحبس والأذى^(١)، ثم شرع بعد ذلك الجلد والرجم، وذلك - والله أعلم - لشدة هذه العقوبة حتى لا يفاجأ بها من كان يستخف بأمر هذه الفاحشة. ٢٠- أن الذين يرتكبون فاحشة الزنا من الرجال والنساء هم من الزناة الذين استهانوا بهذه المعصية العظيمة، والتي هي من كبائر الذنوب، أو من أهل الشرك الذين لا يعتقدون حرمة الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فمن استحضر عظم حرمة هذه الفاحشة، واعتقد ذلك، فإنه في الغالب يتعد عنها وعن أسباب الوقوع فيها. وفي هذا تنفير من الزنا وأهله.

٢١- حرمة تزويج الزناة، والزواني؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا عَاتَبْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفَّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، أو حرم عليهم الجنة، أو لا ينظر الله إليهم: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر في أهله الخبث»^(٣).

وعن عمار بن ياسر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة

(١) وذلك في قوله في سورة النساء: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ الآيتين ١٥، ١٦. وقد ذكر أن

نزول آيات سورة النور بعد هاتين الآيتين بستين ونصف. انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص ٤٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٤ وأبو داود في النكاح - باب قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ ٢٠٥٢، والنسائي في النكاح - باب تزويج الزانية وقال ابن حجر في «بلوغ المرام» ص ٢٠٨: «رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٦٩، ١٣٤، والنسائي في الزكاة - المنان بها أعطى ٢٥٦٢ وقال الألباني: «حسن صحيح».

ديوث»^(١).

وقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى جواز تزويج الزناة والعقد للزاني على العفيفة، وللعفيف على الزانية وحلوا الآية على أن المراد بالنكاح فيها الوطء والجماع. قالوا: فلا دليل فيها على تحريم العقد للزناة^(٢).

وقد تقدم أن كون النكاح مراداً به العقد هو ما تؤيده الروايات في سبب نزول الآية. وعلى القول بأن المراد بالنكاح في الآية: الوطء، أو ما يشمل العقد والوطء، فإن أدلة اشتراط العفة في النكاح كثيرة معلومة، منها قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

فهذه الأدلة وغيرها تدل على اعتبار العفة شرطاً في النكاح فكيف يقال مع هذا بجواز عقد الزاني على العفيفة، وعقد العفيف على الزانية.

وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بأدلة لا تدل على ما ذهبوا إليه، منها قوله تعالى في سورة النساء بعد أن ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤]. قالوا: فيدخل فيمن أحل الزانية. وهذا ليس بصحيح فإن الآية عامة خص منها كل ما حرم نكاحه مما لم يذكر في الآية كالجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، وبين العمتين وبين الخاليتين، ونكاح الخامسة، وزوجة الملاحن، ونكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرة ونحو ذلك^(٣)، ومن ذلك نكاح الزاني والزانية.

كما استدلوا بما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده. انظر: «منحة المعبود» أبواب حد الزنا - النهي عن الزنا ١/ ٢٩٧، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ١٠: «ويستشهد به لما قبله من الأحاديث».

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ٧١ - ٨٢.

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤].

فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لأمس. قال: «عَرَّبَهَا». قال: أخاف أن تتبعها نفسي. قال: «فاستمتع بها». وفي رواية: «طلقها» قال: لا صبر لي عنها قال: «فأمسكها»^(١) وهذا الحديث ضعفه جمع من أهل العلم.

فالصحيح الذي تؤيده الأدلة تحريم نكاح الزاني والزانية حتى يتوبا إلى الله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢): «فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، وفيه آثار عن السلف، وإن كان الفقهاء قد تنازعوا فيه، وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه».

وقال القاسمي^(٣): «واتفقوا على الكفاءة في الدين والزاني ليس كفؤاً للعفيف فكيف يقال بجواز اقترانها».

وقال أخونا الدكتور/ ناصر الحميد^(٤): «وإني لأعجب - مع وضوح الأدلة - أن يذهب جمهور الفقهاء إلى عدم التحريم، فيجيزون ارتباط الزاني الذي لم يتب بالعفيفة، وارتباط العفيف بالزانية. فالعفيف الذي يقترن بالزانية التي لم تتب بمنزلة من يُقر الفاحشة في أهله».

أما إذا تاب الزانيان وأنابا إلى الله عز وجل وصلحت أحوالهما فإنه يجوز تزويجهما^(٥)؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، حتى ولو كان أعظم الذنوب وهو الشرك بالله قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ

(١) أخرجه أبو داود في النكاح - النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ٢٠٤٩، والنسائي في النكاح ٣٢٢٩، وفي الطلاق ٣٤٦٤، ٣٤٦٥.

وقد ضعف هذا الحديث جمع من أهل العلم بل حكموا بوضعه، قال الإمام أحمد: «هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ وهو منكر، ليس له أصل» انظر: «تفسير ابن كثير» ١٠/٦ - ١١، «أضواء البيان» ٧٣/٦ وقال النسائي: «هذا خطأ والصواب مرسل، وهذا الحديث غير ثابت».

وقال الحافظ ابن حجر في «بلوغ المرام» ص ٢٣٣: «ورواه أبو داود والترمذي والبخاري، ورجاله ثقات». وصححه الألباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ٣١٧/١٥.

(٣) في «محاسن التأويل» ١٢/٤٤٤٣.

(٤) في كتابه «تفسير سورة النور» ص ١١٠.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٠٤، «تفسير ابن كثير» ١١/٦ «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٣٨٩.

يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَعَّفَ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلَدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ
وَأَمَّنْ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾
[الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

٢٢- حرمة الزنا على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال عز وجل:
﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا
يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١).

وقد أجمعت الشرائع السماوية والديانات على حرمة الزنا وتأثيم مرتكبه وأنه رذيلة
وعيب وعار^(٢).

٢٣- أن الزاني ليس بمؤمن الإيمان المطلق، وإن كان عنده مطلق الإيمان، لأن الإيمان
المطلق يمنع صاحبه من الزنا، وتزويج الزناة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.
وكما في حديث أبي هريرة المتقدم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

* * *

(١) سبق تحريجه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧١، «تفسير سورة النور» للمودودي ص ٣١.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حد الزنا وحكم مناكرة الزناة، ثم أتبع ذلك بذكر حد القذف، وذلك كله صيانة للأعراض من الانتهاك والأذى، وصيانة للنفوس المعصومة من الإزهاق^(١) والقضاء على وسائل إشاعة الفاحشة في مهدها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الواو: استئنافية. و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، يعم كل من رمى المحصنات من ذكرٍ أو أنثى، وإنما غلب فيه الذكور على الإناث.

ومعنى ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الرمي في الأصل يطلق على الرمي الحسي بالفعل، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، فقد أخذ النبي ﷺ قبضة من التراب يوم بدر فرمى بها في وجوه المشركين، فما منهم من أحد إلا أصاب عينه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين^(٢).

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي^(٣).

ويطلق الرمي على الرمي المعنوي بالقول بالقذف بالزنا وسب القول، قال الشاعر:
رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوي رمانى^(٤)

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٣٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ٨٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٦٧٣، والطبراني في «الكبير» ١١/ ٢٨٥- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال في «مجمع الزوائد» ٦/ ٤٨: «ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩١٧، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٤، والترمذي في «التفسير» ٣٠٨٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٨١٣.

(٤) هذا البيت للأزرقي بن طرفة الباهلي جواباً لبعض بني قشير، وقد اختصا في بئر، فقال القشيري: أنت

﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ الإحصان في اللغة: المنع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. أي: لتمنعكم، أي: لتمنعوا بها في القتال من ضرب السيوف والسهام.

ومنه سُمي الحصن حصناً؛ لأنه يُتحصن فيه ويمتنع من العدو، وسُمي الحصان حصاناً؛ لأن صاحبه يركبه ويمتنع به من العدو كراً، وفرّاً.

ويطلق الإحصان في القرآن الكريم على العفة، كما في قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ [النساء: ٢٤].

كما يطلق أيضاً على الحرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَنِيَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥].

كما يطلق الإحصان أيضاً على التزويج، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

والمراد بالمحصنات في قوله هنا: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾: العفاف الحرائر^(١).

قال ابن كثير^(٢): «﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ هي الحرة البالغة العفيفة».

والحصان بالفتح المرأة العفيفة، كما قال حسان - رضي الله عنه -^(٣) في عائشة -

رضي الله عنها -:

حَصَانُ رِزَانٌ مَا تُزَنُ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْتِي مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ

لص ابن لص. انظر: «معاني القرآن» للفراء ٤٥٨/١.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/١٦١.

(٢) في «تفسيره» ١١/٦.

(٣) انظر: «ديوان حسان» ص ٢٢٨. ومعنى «رزان»، أي: أنها رزينة عاقلة قليلة الحركة، ما تُزَنُّ: ما تتهم،

غَرْتِي: جائعة. وانظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

[النساء: ٢٤] في تفسير سورة النساء.

ومعنى ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، أي: يقذفونهن بالزنا صراحة، فيقولون: فلانة زانية، أو قد زنت، ونحو ذلك، أو بنفي ولدها عن أبيه؛ لأن ذلك يستلزم الزنا. ولا خلاف في أن المراد في الآية القذف بالزنا. وحذف المتعلق ولم يصرح به لفحشه وقبحه، مع إمكان الاستغناء عنه لدلالة قوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ بعد ذكر الزواني على أن المراد بالمحصنات هنا: العفاف عن الزنا، وأيضاً لدلالة قوله: ﴿ثُمَّ لَازِمَاتُ بَارِعَاتٍ شُهَدَاءُ﴾ لأن هذا العدد لا يشترط إلا في الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، مما يدل على أن المراد بـ«المحصنات» في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ المحصنات من الزنا.

ويؤيد هذا أيضاً قوله بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ [النور: ٦]، فسياق الآية ولحاقتها كل ذلك في الزنا وأحكامه.

والرمي بالقول قد لا يقل أثراً وضرراً عن الرمي الحسي بالنبل والنصال، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]. وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ»، وفي رواية: «لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض»^(١). وفي حديث بلال بن الحارث المزني بنحوه، وفيه: «فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(٢).

وقال ﷺ لمعاذ: «كف عليك هذا» وأمسك بلسانه. فقلت يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(٣). وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال:

(١) أخرجه البخاري في الرقاق - حفظ اللسان ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد - التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٢٩٨٨ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٦٩ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣ وصححه الألباني.

«أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»^(١).

قال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان^(٢)

وقال الآخر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرّجل

فعرثته بالقول تودي برأسه وعرثته بالرّجل تبرا على مهل^(٣)

وقال الآخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تماب لقاءه الأقران^(٤)

وقد ذكر أن ابن مسكويه كان يحدث تلاميذه في الصباح عن عثرة اللسان، وأنها أعظم من عثرة الرجل، وفي المساء دخل على الخليفة، فبينما هو عنده إذ دخل ابنا الخليفة، فقال الخليفة: أيهما أفضل ابني هذين أو الحسن والحسين؟ فقال ابن مسكويه: خادم علي قبر أفضل من ابنيك. فاستشاط الخليفة غضباً وأمر جنوده أن يقتلعوا لسانه، ويخرجوه من خلف رأسه^(٥).

وسواء كان المقدوف رجلاً أو امرأة فإن الحكم واحد، وإنما خص بالذكر رمي المحصنات - والله أعلم؛ لأن قذف المرأة أشد ضرراً وأعظم أثراً من قذف الرجل؛ لما في ذلك من آثار سيئة عليها، وعلى أهل بيتها وعائلتها، بحيث يبتعد الناس عن الزواج منها، ومن أهل بيتها وعائلتها؛ بسبب هذه القالة التي تنتشر انتشار النار في الهشيم، وقد تكون أوهى من بيت العنكبوت.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٠٦ وقال: «حديث حسن».

(٢) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «فيض القدير» للمناوي ١٣٩/٦، «روح البيان» لأبي الفداء ٥٠٦/٩.

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص ١٦٠.

(٤) البيتان للشافعي. انظر: «ديوانه» ص ١١٦.

(٥) انظر: «النجوم الزاهرة» ٢/٢٨٥، «وفيات الأعيان» ٦/٤٠٠.

﴿ثُمَّ لَرِيَاؤًا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ «ثم» عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿بِرِّمُونٍ﴾، أي: ﴿ثُمَّ لَرِيَاؤًا﴾ بعد رميهم لهن بالزنا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، أي: بأربعة رجال مكلفين أحرار عدول يشهدون على صحة ما قال أولئك القذفة.

وسُموا شهداء؛ لأنهم يخبرون بما شاهدوه وبما عاينوه؛ ولهذا لا بد أن تكون شهادتهم صريحة بأن يشهد كل منهم أنه رأى ذكر الزاني في فرج الزانية، كما يرى الميل في المكحلة، ولا تقبل في هذا شهادة النساء مطلقاً ولو كان معهن بعض الشهود من الرجال. قال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥]، فأمر عز وجل باستشهاد أربعة من الرجال بقوله: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ وأكد وجوب كون الشهادة صريحة بقوله بعد ذلك: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾، أي: فإن شهدوا شهادة صريحة بأنهم رأوا ذكر الرجل في فرج المرأة^(١).

كل هذا من أجل الحفاظ على الأعراض وصيانتها وصيانة المجتمع من الأفاكين المتقولين، بلا علم. وذلك لما يترتب على القذف من آثار سيئة، وأضرار عظيمة على المقدوف، إذ لو تسامح الشرع في هذا الجانب لأطلق أناس ألسنتهم بأعراض بريئة. فسداً لهذا الباب وإيصاداً له شدد الشرع في أمر ثبوت حد الزنا، فجعل من شرط ذلك أن يكون الشهود أربعة من الرجال الأحرار المكلفين، ولم يقبل فيه شهادة النساء مطلقاً، لا وحدهن، ولا مع الرجال، واشترط أن تكون الشهادة صريحة واضحة على الوجه المذكور.

فإن شهد كل واحد من هؤلاء الشهود شهادة صريحة على الوجه المذكور ثبت حد الزنا، ووجبت إقامته، وإن نقص عدد الشهود عن الأربعة، أو لم تكن شهادة أحدهم صريحة واضحة لم يثبت حد الزنا وأقيم حد القذف على القذفة.

والواقع أن ثبوت حد الزنا بالبينة، وهم الشهود الأربعة على الصفة المذكورة لا

(١) كما روي في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال لما عز بن مالك: «حتى غاب ذلك منك فيها، كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر..» الخ أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٢٨. وهذا وإن كان في الإقرار، فكذلك ينبغي أن تكون الشهادة أو أصرح منه.

يكاد يقع، وقد ذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال: «إنه لم يثبت حد الزنا بالبينة منذ عهد الرسالة إلى يومي هذا».

وليس الدين بالرأي، والشرع ليس متعشياً لإقامة الحد أكثر من تعطشه لصيانة الأعراض وحفظ الأنفس، بل إن مشروعية حد الزنا مقصود منها صيانة الأعراض كمشروعية حد القذف.

﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ خبر المبتدأ «الذين»، وارتبط بالفاء؛ لأن الاسم الموصول فيه معنى الشرط.

والأمر للوجوب، والخطاب فيه لولاية الأمر ومن يقوم مقامهم، والمعنى: فاضربوهم ثمانين جلدة.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الواو: عاطفة في الموضعين، والجملتان معطوفتان على قوله: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ﴾ الواو عاطفة، و«لا» ناهية، أي: ولا تقبلوا لهم بعد قذفهم المحصنات، وعدم إتيانهم بما يثبت صحة وصدق ما قالوه:

﴿شَهَادَةً أَبَدًا﴾، أي: على الدوام؛ في أي وقت من الأوقات، وفي أي حال من الأحوال، وعلى أي أمر من الأمور، ما لم يتوبوا؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الإشارة لمن يرمون المحصنات بالزنا، و«الفاسيقون» جمع فاسق، والفسق هو: الخروج عن طاعة الله تعالى، وعن الصلاح إلى الفساد.

ومنه سميت الفأرة فويسقة، وسميت الفواسق التي تقتل في الحل والحرم^(١) لخروجها من أماكنها للإفساد. ف«الفاسيقون» الخارجون عن طاعة الله تعالى.

وقد أكد عز وجل الفسق فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

(١) كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا» أخرجه البخاري في الحج ١٨٢٩، ومسلم في الحج ١١٩٨، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٢٩، والترمذي في الحج ٨٣٧، وابن ماجه في المناسك ٣٠٨٧.

والفسق في الأصل يطلق على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ويطلق على ما دون الكفر كما في قوله هنا: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وكما في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ كُرْفَاسِقُ بَنِي قَتَيْبَةَ﴾ [الحجرات: ٦].

ففي هذه الآية أوجب الله عز وجل على القذفة إذا لم يقيموا بينة على صحة ما قالوه ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد كل منهم ثمانين جلدة. الثاني: أن ترد شهادته دائماً. الثالث: أن يعد فاسقاً، وليس بعدل، لا عند الله، ولا عند الناس. وهم كاذبون وإن كان خبرهم مطابقاً للواقع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

ويفهم من قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أن القاذف إذا أتى بأربعة شهداء، وشهدوا شهادة صريحة على صحة وصدق ما قال فإنه لا يجلد، ولا ترد شهادته، ولا يعد فاسقاً، ويثبت بذلك حد الزنا على المشهود عليه بذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

«إلا» أداة استثناء، والتوبة: الرجوع والعودة إلى الله عز وجل والإنابة إليه، أي: الرجوع من المعصية إلى الطاعة ومن المخالفة إلى الموافقة والمتابعة.

فمعنى ﴿تَابُوا﴾، أي: رجعوا وأتابوا إلى الله عز وجل من فعل هذه المعصية، وهي قذف المحصنات بالزنا.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: من بعد ما حصل منهم قذفهن، وذلك: بالإقلاع عن هذه المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون التوبة خالصة لوجه الله عز وجل، لا رياء ولا سمعة، ولا خوفاً من مخلوق، وأن تكون في وقتها المناسب: قبل حضور الموت وبلوغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

كُفَّارًا ﴿[النساء: ١٨]، وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرب»^(١). وقبل طلوع الشمس من مغربها لقوله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

وبما أن من شروط التوبة- بل من أهمها-: الإقلاع عن المعصية، فإن على القاذف أن يتوب علانيةً كما قذف علانيةً، وذلك بأن يُكذِّب نفسه ويُبرئ المذدوف^(٣)؛ لأن القذف حق للمذدوف، ومن صدق الإقلاع عن المعصية أن يرد إلى المذدوف حقه وذلك بتبرئته مما قذفه فيه، فلا يُعد القاذف مقلعاً عن المعصية مادام حق المذدوف باقياً عنده، فإن حقيقة الإقلاع عن المعصية إذا كانت تتعلق بالآدميين، من اعتداء على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم أن يرد تلك الحقوق إليهم ما أمكنه ذلك. فمن شرط صحة الإقلاع عن المعصية أن يُسلم القاتل نفسه للقصاص، ويرد من أخذ أموال الناس أموالهم إليهم، ويستحلهم من اعتدى على أعراضهم ويؤدي حقوقهم بأي طريق أمكنه ذلك.

قال ابن القيم في الكلام على قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْتَيْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]: «فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفترى، فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذباً، فأى توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه»^(٤).
﴿وَأَصْلِحُوا﴾، أي: أصلحوا حالهم وعملهم بترك هذه المعصية والبعد عنها، وصلاح العمل بالإخلاص فيه لله عز وجل، وكونه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وليس من شرط قبول التوبة من ذنب إصلاح العمل مطلقاً.

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٣ وأحمد ١٣٢/٢، وابن حبان في «موارد الظمان» ٢٤٤٩، والحاكم ٢٤٩/٢ من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أحمد شاكر في تحريج المسند ٦١٦٠، والألباني في «صحيح الجامع الصغير» ٣٦٨/١.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٥٠.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤٦/٣.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، أي: أصلحوا حالهم وعملهم مطلقاً، وهذا شرط لقبول التوبة. والصحيح الأول.

والاستثناء يعود إلى الجملتين السابقتين قبله، وهما قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، و﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ وذلك أن التوبة تمحو وتجب وتهدم ما كان قبلها.

قال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١)، وقال عمر لأبي بكر- رضي الله عنها- لما شهد مع الذين شهدوا على المغيرة: «إن تبت قبلت شهادتك، أو تب تقبل شهادتك»^(٢).

وقيل: إن الاستثناء في الآية يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، وهي قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فالتوبة ترفع الفسق فقط. والصحيح القول الأول.

إذ لا شك أن عدم قبول شهادة القاذف بعد توبته فيه شيء من العقوبة له، وهذا يتنافى مع ما تقتضيه الأدلة الواردة في تكفير التوبة ما قبلها، وقبول شهادة التائب حتى من تاب من الكفر، بل تبديل سيئات التائب حسنات كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^٤ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا^(١٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا^(١٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ^٥ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^٦﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

ويدل على هذا أيضاً قوله في ختام الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن من مقتضى مغفرته ورحمته أن يتوب على من تاب إليه، وألا يبقى عليه تبعة في شيء بعد توبته. وإلى هذا القول ذهب جمهور أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣): «دلَّت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة، كما هو مذهب الجمهور، فإن من جملتهم مسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحمزة بنت جحش وغيرهم، ومعلوم أنه لم يرد النبي ﷺ ولا المسلمون بعده شهادة أحد منهم؛ لأنهم كلهم تابوا، لما نزل القرآن ببراءتها، ومن لم يتب فإنه كافر مكذب للقرآن، وهؤلاء

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٥٠- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٦٩/٦، والطبري في «جامع البيان» ١٦٣/١٧، والبيهقي في سننه ١٥٢/١٠

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٥.

ما زالوا مسلمين، وقد نهى الله عن قطع صلتهم... وشهادة غيرهم ممن شهدوا على غير عائشة أولى بالقبول إذا تابوا».

أما حد القذف فلا يسقط بالتوبة؛ لأنه حق للمقذوف، فإن عفا عنه سقط وإلا تلزم إقامته.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل رد شهادة القذفة وفسقهم، إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد ذلك ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: إنه عز وجل بمغفرته ورحمته شرع لهم التوبة، ويقبلها منهم.

وهذا يؤيد القول بأن الاستثناء راجع إلى الجملتين، فإن من مغفرة الله عز وجل ورحمته الواسعتين: أن لا ترد شهادة من تاب من القذف وأصلح عمله وحاله، وأن لا يوصف بالفسق.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، «غفور» على وزن «فعلول»، صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرْ لَذُنُوبِكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والمغفرة معناها: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في المناجاة. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدين المؤمن يوم القيامة فيضع عليه كنفه^(١) ويستره، فيقول: «أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟» فيقول: نعم، أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» فيعطى كتاب حسناته^(٢).

ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستر الرأس وتقيه السهام.

(١) كنفه: ستره ورحمته. انظر: «النهاية في غريب الحديث» مادة «كنف».

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، وفي «التفسير» ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

﴿رَحِيمٌ﴾، على وزن «فعليل»، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ورحمة الله تنقسم إلى قسمين: رحمة هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ورحمته الفعلية تنقسم أيضًا إلى قسمين: رحمة عامة لجميع المخلوقات، الإنس والجن، والبر والفاجر، والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة: فرحمته لهم في الدنيا: ما يتمتعون فيه من نعم الله عز وجل، ورحمته لهم في الآخرة: العدل في حسابهم حتى إنه ليقبض للشاة الجلحاء من الشاة القرناء - كما جاء في الحديث^(١).

ومما يدل على أن اسمه عز وجل «الرحيم» يدل على الرحمة العامة قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، و[الحج: ٦٥]. والقسم الثاني من أقسام الرحمة الفعلية: الرحمة الخاصة بالمؤمنين، بهدايتهم إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة، وإدخالهم جنات النعيم. قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- عموم حكم القذف لكل من وقع منه ذلك من ذكر أو أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾، وهو اسم موصول يفيد العموم لكن غلب فيه الذكور على الإناث. لكن إن كان القاذف مملوكًا فعليه نصف حد الحر، لقوله عز وجل في حد الإماء في الزنا: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].
وقاس أهل العلم حكم القذف على حكم الزنا بالتنصيف، كما قاسوا حكم العبد على الأمة، وقيل: عليه حد الحر ثمانون جلدة^(٢).

(١) سبق تحريجه.

(٢) انظر: الكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية ٢٥.

٢- أن الرمي كما يطلق على الرمي الحسي يطلق على الرمي والقذف المعنوي بالقول ونحوه، بل إن الرمي بالقول قد يكون أشد خطراً وأعظم جرماً؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْمُونَ﴾.

٣- من شرط إقامة حد القذف وإجراء الأحكام المذكورة في الآية على القاذف: كون المقذوف مسلماً بالغاً عاقلاً حرّاً عفيفاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، أي: الحرائر العفيفات.

واختلفوا فيمن قذف مملوكاً: فذهب جمهور أهل العلم إلى أن من قذف مملوكاً لا يقام عليه حد القذف في الدنيا وإنما يعزر فقط، بل حكي الإجماع على هذا^(١).

لما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من قذف مملوكاً له بالزنا أُقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال»^(٢).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالمحصنات في الآية العفائف خاصة، فمن قذف عفيفة سواء كانت حرة أو أمة فعليه حد القذف مستدلين بعموم الآية، وعموم قوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»^(٣).

قالوا: وأما حديث أبي هريرة: «من قذف مملوكاً له بالزنا» فهذا خاص بالسيد إذا قذف مملوكه فلا يقام عليه الحد في الدنيا للحديث. كما لا يقام حد القذف على الوالد إذا قذف ولده. أما من قذف مملوك غيره فعليه الحد.

أما إن كان المقذوف صغيراً دون البلوغ، أو كان ذمياً فعلى قاذفه التأديب والتعزير عند أكثر أهل العلم، وقيل: عليه الحد^(٤).

٤- أن رمي المحصنات من النساء أعظم وأشد ضرراً من رمي المحصنين من الرجال، ولهذا خصّه بالذكر، مع أن الحكم واحد في رمي الذكور والإناث.

(١) انظر: «الإجماع» لابن المنذر ١٢/ ٧٠، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧٤-١٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الحدود- قذف العبيد ٦٨٥٨، ومسلم في الإيمان- التغليب فيمن قذف مملوكه بالزنا ١٦٦٠، وأبو داود في الأدب ٥١٦٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣- من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٣٣-١٣٣٤، «المغني» ١٢/ ٣٩٩، «أضواء البيان» ٦/ ٩٣-

٥- بلاغة القرآن الكريم في تخصيصه المحصنات بالذكر هنا دون المحصنين؛ لعظم ضرر قذف المحصنات، وقد كان الغالب في التعبير القرآني الاكتفاء بذكر الذكور وتغليبهم على الإناث، وقد جاء العكس في هذه الآية للحكمة المذكورة ونحوها.

٦- أنه لا بد لتبرئة القذفة من الحد والأحكام المذكورة في الآية، وإثبات الزنا على المقذوف من أربعة شهود من الرجال العدول الأحرار البالغين؛ لمفهوم قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فمفهوم هذا أنهم إذا أتوا بالشهود انتفت عنهم هذه الأحكام كلها. ولا تقبل شهادة غير العدول في تبرئة القاذف؛ لأن قبول شهادتهم قذف للمشهود عليه ورمي له بالزنا حتى ولو لم تثبت حكم الزنا عليه بشهادتهم. فإن المفسدة المترتبة على قبول شهادتهم أعظم من المصلحة.

قال ابن تيمية^(١): «وأما من قال الأصل في المسلمين العدالة فهو باطل، بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].»

٧- ينبغي أن لا يشهد الإنسان على أحدٍ بالزنا صراحة ما لم يكن معه ما يكمل أربعة شهود على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ الآية. ولقوله ﷺ لعويمر العجلاني: «البينة أو حدّ في ظهرك»^(٢).

وقد اختلف العلماء فيما إذا كان الشهود دون الأربعة، أو أربعة لكن اختلفت شهادتهم هل يقام عليهم حد القذف أو لا^(٣)؟ فمن قال: لا يقام عليهم الحد، قال: لأنهم شهود طلبوا لأداء الشهادة بما رأوا فما ذنبهم.

ومن قال: يقام عليهم الحد اعتبرهم قذفة. واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ الآية. ويقولون: ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

وبقوله ﷺ لعويمر العجلاني لما قذف امرأته: «البينة أو حدّ في ظهرك».

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٣-٤٢٤.

(٢) سيأتي تخرجه.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/١٧٧.

وبما رواه سعيد بن المسيب: «أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ضرب أبا بكره، وشبل بن معبد، ونافع بن الحارث بن كلدة حدّهم، وقال لهم: من أكذّب نفسه أجزتْ شهادته فيما يستقبل، ومن لم يفعل لم أجز شهادته، فأكذّب شبل نفسه، ونافع، وأبى أبو بكره أن يفعل»^(١).

واختار بعض أهل العلم كالشنيطي^(٢) وغيره القول بإقامة حد القذف عليهم، وهو ظاهر النصوص، وهو الأحوط والأسلم للأعراض. واختار بعضهم كالمودودي القول: بأنه لا حدّ عليهم^(٣).

٨- احتياط الشرع المطهر للأعراض وحرصه على حفظها وصيانتها؛ فإن إتيان القاذف بأربعة شهداء يشهدون شهادة صريحة على الزنا أمر في غاية الصعوبة والتعذر. ولهذا فإن المخرج من هذا بامسك اللسان عن الخوض في أعراض المسلمين، ولو تسامح الشرع في هذا لأطلق أناس ألسنتهم بأعراض بريئة كذباً وزوراً وبهتاناً، ولأصبح كثير من البيوت مهجورة لا يتزوج منها بسبب ذلك، ولكن الشرع المطهر الحكيم أوصد الباب وسدّ الطريق أمام هؤلاء الأفاكين ومروجي الإشاعات. فسبحان الحكيم العليم.

٩- وجوب جلد القاذف ثمانين جلدة، ورد شهادته، والحكم بفسقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وفي هذا جمع للقاذف بين العقوبة الحسية بالجلد، والعقوبة المعنوية برد شهادته وتفسيقه. والعقوبة المعنوية أشد عليه من العقوبة الحسية، وذلك تنكيلاً له وردعاً لغيره، فإن اللسان عدو الإنسان.

هذا إذا كان القذف بالزنا صريحاً - كما سبق بيانه، فإن كان ذلك كنايةً أو تعريضاً، فهذا لا يوجب الحد بل على القاذف التعزير فقط، ما لم تدل القرائن على أن مراد القاذف الزنا، وذلك لأن الحدود تدرأ بالشبهات وقدر المستطاع، لما رُوِيَ في

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٥٢/٢، وفي «المصنف» الأثران ١٣٥٦٤، ١٣٥٦٥، والطبري في «جامع البيان» ١٧/١٦٣.

(٢) انظر: «أضواء البيان» ١٤/٦، ١٥، ١٠٣.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص ٦١، ٦٢.

الحديث: «ادروا الحدود ما استطعتم، فإن كان له مخرج، فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»^(١).

ولا يجوز أن تعطى الكناية والتعريض حكم التصريح، وقد فرّق القرآن بينهما قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرُضُوا بَيْنَهُنَّ الْوَسْطَةَ الْكَبِيرَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فأباح عز وجل التعريض، ونهى عن التصريح فدلّ هذا على افتراقهما^(٢).

١٠- ينبغي أن يكون الجلد مؤلماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوهُنَّ ثَلَاثِينَ جَلْدَةً﴾ والجلد ضرب الجلد بما يؤلم ولا يشق الجلد، ولا يوضع اللحم، ولا يكسر العظم، ويكون ضرباً بين الضربين، ليس بالشديد، ولا بالخفيف، ويكون بسوط وسطاً بين السوطين، ليس بالشديد ولا باللين.

١١- في جلد القذفة ثمانين جلدة، وتأييد عدم قبول شهادتهم ووصفهم بالفسق بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ مع ما في هذه الجملة من المؤكدات دلالة على عظم جرم القذف وشناعته وأثره السيئ على القاذف وعلى المقدوف والمجتمع الإسلامي.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل فحيث شهد القاذف بالزنا، وهو كاذب جعل الشرع من ضمن عقوبته رد شهادته، ووصفه بالفسق.

١٣- فضل الله عز وجل ورحمته الواسعة ومغفرته حيث استثنى التائبين من القذف، وجعل لهم ولجميع المذنبين متسعاً للتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

١٤- أن من تاب من القذفة فإن شهادتهم تقبل، وينتفي عنهم وصف الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

وهذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين قبله، وهما قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/١٧٣، «أضواء البيان» ٦/٩٤-٩٩.

وقد قيل: إنه يرجع للجملة الأخيرة فقط وهي قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وعلى هذا فالتوبة لا تسقط إلا وصفحهم بالفسق. والصحيح الأول. ومن توبة القاذب أن يُكذِّب نفسه، ويتحلل من المقذوف ما أمكن. وقيل: لا يلزم أن يُكذِّب نفسه بل يكفي أن يندم ويصلح حاله، والصحيح الأول^(١). فإن كانت توبته قبل إقامة حد القذف عليه، وعفا عنه المقذوف سقط عنه الحد وقُبلت شهادته، وانتفى وصف الفسق عنه؛ لأن حد القذف حق للمقذوف فإذا عفا عنه سقط.

وقد قيل: إن حد القذف حق لله تجب إقامته مطلقاً، حتى ولو عفا المقذوف، قالوا: لأن الله لم يذكر سقوطه بالعفو، كما قال تعالى في القتل العمد: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْسَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: آية ١٧٨]، وقال في القتل الخطأ: ﴿لَا أَنْ يَصْكَفُوا﴾ [النساء: آية ٩٢].

والأظهر أن حد القذف حق للمقذوف، أو منه ما هو لله، ومنه ما هو للمقذوف^(٢)، وأنه يسقط بعفو المقذوف عنه، فإن كان قبل الرفع إلى الإمام فلا إشكال؛ لقوله ﷺ: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب»^(٣). وإن كان بعد الرفع إلى الإمام، فالأظهر أنه يسقط، كما يسقط حد القصاص بالعفو، ولو بعد الرفع إلى الإمام.

١٥- أن من شرط التوبة من القذف أن تكون التوبة صادقة تتوفر فيها شروط التوبة، وأن يصلح القاذب حاله وعمله وبخاصة ما يتعلق بها وقع فيه من القذف.

١٦- أن من شرط إقامة حد القذف والحكم على القاذب بما ذكر في الآية أن يكون القاذف مكلفاً، أي: بالغاً عاقلاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ لأن القذف من الحدود، والحدود إنما تقام على المكلفين، وأيضاً فإن

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٤-١٧٦.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢/ ١٧٧، ١٩٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٧٦، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٨٦- من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

الشهادة إنما تعتبر بالنسبة للمكلفين، وكذلك الوصف بالفسق، وقد قال ﷺ: «رُفِعَ القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق»^(١).

١٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾.

١٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

١٩- في ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. إشارة إلى أن من مغفرته عز وجل ورحمته أن وفق من شاء من القذفة وغيرهم إلى التوبة وقبلها منهم.

كما أن في ختمها بذلك توجيهًا للمؤمنين بإسقاط الأحكام المذكورة في الآية عمّن تاب من القذف، بل إن فيها ما يُشير إلى ترك اللوم لهم والتثريب عليهم، أي: فإن الله سيغفر لهم ويرحمهم، فلا تتبعوهم بشيء.

فالله عز وجل أغير على حرمانه، وقد فتح للقذفة وغيرهم باب التوبة، بل فتح باب التوبة لمن ارتكب أعظم الذنوب وهو الشرك بالله، وبمغفرته ورحمته وفق من شاء من القذفة وغيرهم للتوبة وقبلها منهم، بل إنه يُبدل سيئات التائبين حسنات بفضلهم وكرمهم. وعلى هذا فليس من الغيرة الشرعية، ولا من الحق والعدل أن يُلحق التائب من القذف أو غيره بأي لوم أو تثريب.

٢٠- فضل الله عز وجل على عباده حيث شرع لهم التوبة من القذف وغيره من الذنوب، ولو كان أعظم الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث علي- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب» وصححه الألباني، وقد روي من حديث عائشة- رضي الله عنها- وغيرها. انظر: «تفسير ابن كثير» ١٨٧/٢.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

ذكر الله عز وجل في الآيتين السابقتين حد القذف إذا لم يأت القذفة بأربعة شهداء، يشهدون على صحة ما قالوا، ثم أتبع ذلك بيان أنه إذا كان القذفة هم الأزواج، ولم يكن لهم شهداء يشهدون على صحة ما قالوا، فإنه يجري بينها حكم اللعان، كما دلّت عليه هذه الآية، وذلك أن الزوج لا يرمي زوجته غالباً- إلا إذا كان صادقاً؛ لأن زناها فيه ضرر له وعار عليه، والإنسان لا يذكر عيباً يعود عليه.

قال ابن كثير^(١): «هذه الآية فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل».

سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ قال سعد بن عبادة- وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيّدكم؟» قالوا: يا رسول الله، لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله! ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة له قط، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غَيْرَتِهِ. فقال سعد: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكنني تعجبت أني لو وجدت لكاعاً^(٢) قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله! لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية- وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم^(٣)، فجاء من أرضه عشاء، فوجد

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

(٢) اللكاع: الحمقاء.

(٣) أي: الثلاثة الذين خلفوا، وهم: هلال بن أمية العمري، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع. وقد

عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاءً، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكّر رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت الأنصار، فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة^(١). الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويُبطل شهادته في الناس. فقال هلال: والله، إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، وقال هلال: يا رسول الله، إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق. فوالله، إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي - وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تَرَبُّد وجهه^(٢)؛ يعني: فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي - فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحْدَهُمْ﴾ الآية. فسُري عن رسول الله ﷺ، فقال: «أبشر يا هلال، قد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً». فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل. فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ، وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله! يا رسول الله، لقد صدقتُ عليها. فقالت: كذبت. فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما» فليل هلال: اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي تُوجب عليك العذاب. فقال: والله، لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها. فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل لها: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة قيل لها: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي تُوجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة، ثم قالت: والله، لا أفضح قومي.

ذكر الله قصتهم في سورة التوبة في قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [الآية: ١١٨].

(١) وفي هذا إشارة إلى أن البلاء موكل بالمنطق - كما قيل:

احذر لسانك أن تقول فتبلى إن البلاء موكل بالمنطق

نسب هذا البيت في «العقد الفريد» ١٦/٣، لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أي: تغير لون وجهه إلى الرعدة، وهي لون بين السواد والغبرة.

فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى بأن لا يُدعى ولدها لأب، ولا يُرمى ولدها، ومن رَمَاهَا أو رَمَى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها، من أجل أنها يتفرقان من غير طلاق، ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أُصَيْهَبُ أُرَيْسِحُ حَمْسُ السَّاقِينِ^(١) فهو هلال، وإن جاءت به أورك جعدًا جُمَالِيًّا، خَدَلَجُ السَّاقِينِ، سابغ الأليتين^(٢)، فهو للذي رُميت به»، فجاءت به أورك جعدًا جُمَالِيًّا خَدَلَجُ السَّاقِينِ سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن» قال: عكرمة - وهو راوي الحديث عن ابن عباس: فكان بعد ذلك أميرًا على مصر، وكان يُدعى لأمه ولا يُدعى لأب^(٣).

وفي رواية^(٤) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك! إني لصادق، فليزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليها فجاء هلال، فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ثم قامت فشهدت، فلما كان عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها مَوْجِبَةٌ. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع،

(١) الأصيهب: هو الذي تعلق لونه صهبة، وهي كالشقرة، والأريسح: هو الذي لا عجز له، وحمس الساقين: أي دقيق الساقين.

(٢) الأورك: الأسمر، وجعدًا: أي جعد الشعر، وهو ضد السبط المسترسل، وجماليًا: بضم الجيم، وتشديد الياء: هو الضخم الأعضاء، التام الأوصال، وخدَلَجُ السَّاقِينِ: أي: عظيم الساقين، وسابغ الأليتين، أي: عظيم الأليتين.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٤) أخرجه البخاري في «تفسير سورة النور» ٤٧٤٧، وفي الشهادات ٢٦٧١، وأبو داود في الطلاق - باب اللعان ٢٢٥٤، ٢٢٥٦، والترمذي في «التفسير» ٣١٧٩، وابن ماجه ٢٠٦٧.

كما أخرجه مسلم مختصرًا من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - في اللعان - ١٤٩٦، ومن حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - ١٤٩٥، وكذا الإمام أحمد ١/ ٤٢١ - ٤٢٢.

ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن عويمراً العجلاني أتى عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقنته فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سأل لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله ﷺ المسائل فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها. فقال عويمر: والله! لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر، فقال: يا رسول الله، رجلٌ وجد مع امرأته رجلاً أيقنته، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتيك»، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمي الله في كتابه فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله، إن حبستها فقد ظلمتها، فطلقها، فكانت سنة لمن كان بعدهما في المتلاعنين، ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم، أدعج العينين^(١)، عظيم الأليتين، خدلج الساقين، فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرّة^(٢)، فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها، فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر، فكان بعد ذلك ينسب إلى أمه»^(٣).

وفي حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «ثم فرّق النبي ﷺ بين أخوي بني العجلان، وقال: «الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب» ثلاث مرات»^(٤). وقد اختلف أهل العلم هل ما ورد في هذه الروايات قصتان أو قصة واحدة، فمن

(١) أسحم: أسود. أدعج العينين: شديد سواد العينين، واسعهما. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادتي «سحم»، «دعج».

(٢) الوحرّة: دويبة تلتق بالأرض. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «وحر».

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤٥، ومسلم في اللعان ١٤٩٢، وأبو داود في الطلاق ٣٤٠٢، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٦، وأحمد ٥/٣٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في الطلاق - قول الإمام للمتلاعنين: «إن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ٥٣١٢، ومسلم في اللعان ١٤٩٣، وأحمد ١٩١٢.

أهل العلم من قال: هما قصتان، ومنهم من قال: هي قصة واحدة، ولا يترتب على هذا إشكال؛ لأن القصة ثابتة وصحيحة، فهذا الحكم وهو اللعان دَلٌّ عليه الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦).

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الواو: استئنافية، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، يفيد العموم لكل من رمى زوجته من حرٍّ وعبيد. ومعنى ﴿يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، أي: يقذفون زوجاتهم بالزنا، كأن يقول: يا زانية، أو رأيتك تزنين، ونحو ذلك.^(١) والأزواج: جمع زوج، ويُطلق الزوج في القرآن الكريم على المرأة، كما يطلق على الرجل؛ قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

ويطلق على المرأة زوجة في لغة بني تميم؛ وهي دون الفصحى وقد جاء هذا في بعض الأحاديث. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في ذكر نعيم أهل الجنة: «ولكل امرئ منهم زوجته»^(٢). قال الفرزدق^(٣):

وإن السذي يمشي يحرش زوجتي كساعٍ إلى أسد الشرى يستبيلها

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم لم يكن لهم شهداء يشهدون على زناهن، ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾، «إلا» للاستثناء، و«أنفسهم»: بدل من «شهداء»، أي: ليس لديهم من يشهد إلا أنفسهم، ولم يقل هنا: «ولم يأتوا بالشهداء» أو «ولم يأتوا بأربعة شهداء» بل قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ إشارة إلى أن المتوقع غالباً أن لا يكون لدى الزوج شهداء.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٦، «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٨٨، ٢٩٠- ٢٩١، ٢٩٥، «المغني»

١١/ ١٢٢، ١٣٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٦٠٥.

﴿فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ خبر قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء لشبهه الموصول بالشرط من حيث العموم والإبهام.

﴿أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف، وحفص عن عاصم بالرفع في قوله: «أَرْبَعُ» فتكون خبر قوله: ﴿فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بنصبها، فتكون مفعولاً مطلقاً لشهادة^(١).

أي: فشهادة أحدهم التي يسقط بها عنه الحد، أو فالحكم أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، أي: بأن يشهد أربع مرات فيقول: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي من الزنا، أو أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به ونحو ذلك، ويكرر ذلك أربع مرات. والصدق: مطابقة الخبر للواقع، وضده الكذب. قال ابن كثير^(٢): «وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: فيما رماها به من الزنا».

قوله تعالى: ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٧﴾.

قوله: ﴿وَالْخَمْسَةَ﴾، أي: والشهادة الخامسة.

﴿أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قرأ نافع المدني، ويعقوب بتخفيف «أن» ورفع ما بعدها: «أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ»، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب ما بعدها: ﴿أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ﴾^(٣). أي: والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنا، فيقول: أشهد بالله أن لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين، أو إن كنت كاذباً فيما رميت به زوجتي من الزنا.

واللعنة من الله: الإبعاد والطرود عن رحمته، واللعن من المخلوق، معناه: الدعاء بالطرود والإبعاد عن رحمة الله.

(١) انظر: «مشكل إعراب القرآن» ٥٠٩/٢، «النشر» ٣٣٠/٢.

(٢) في «تفسيره» ١٢/٦.

(٣) انظر: «الغاية» ٣٣٧-٣٣٨، «النشر» ٣٣٠/٢.

واختلف أهل العلم هل ألفاظ اللعان شهادات، أو أيان؟ والراجح أنها أيان أكدت بلفظ الشهادة؛ لقوله ﷺ في امرأة هلال: «لولا الأيان لكان لي ولها شأن»^(١). وإذا شهد أربع مرات أنه من الصادقين فيما رماها به من الزنا، وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين في ذلك برئ من حد القذف، وثبت عليها حد الزنا، وبانت منه بنفس هذا اللعان وحُرِّمَت عليه أبداً.

قال ابن كثير^(٢): «فإذا قال ذلك بانت منه بنفس اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا».

قوله تعالى: ﴿وَيَذُرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٨).

قوله: ﴿وَيَذُرُوا عَنْهَا﴾، أي: ويدفع عنها، ﴿الْعَذَابَ﴾ العقوبة بحد الزنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَشَهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَعَلَيْتِهِنَّ نَصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

﴿أَنْ تَشْهَدَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: ويدفع عنها العذاب شهادتها أربع شهادات بالله إنه - يعني زوجها - لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا، فتقول: أشهد بالله إن زوجي كاذب فيما رماني به من الزنا، ونحو ذلك. وتكرر ذلك أربع مرات.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٩).

قوله: ﴿وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ قرأ عاصم بنصب: ﴿وَالْخَمِيسَةَ﴾؛ فتكون معطوفة على قوله: ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ﴾.

وقرأ الباقر بضمها: «والخامسة»؛ فتكون مبتدأ، وخبرها ما بعدها.

وقرأ يعقوب: «أَنْ غَضِبَ»؛ بتخفيف «أَنْ» ورفع ما بعدها.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٨. «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٨٧، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٢٤٧، «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ١٨٦- ١٨٧ «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٢، «أضواء البيان» ٦/ ١٣٤- ١٣٨.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

وقرأ نافع أيضًا بتخفيف «أن» وكسر الضاد وفتح الباء: «غَضِبَ» ورفع لفظ الجلالة على أن «غَضِبَ» فعل ماضٍ.

وقرأ الباقون بتشديد «أن» ونصب ما بعدها: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾^(١).

﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: والشهادة الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به، فتقول: أشهد بالله أن غضب الله عليّ إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به من الزنا، ونحو ذلك.

والغضب أشد من اللعنة؛ لأنه سبب للانتقام، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وإنما جعل الغضب - وهو الأشد - في حق المرأة؛ لأن الزوج - غالبًا - أقرب إلى الصدق، ويبعد أن يرمي زوجته بالزنا إلا إذا يقن ذلك؛ لأنه يتضرر بذلك، ولأنه إذا كان الزوج صادقًا والمرأة تنكر، صارت ترد الحق مع علمها به، ومن رد الحق مع علمه به فجزاؤه الغضب، كحال اليهود.

قال ابن كثير^(٢): «فخصّها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به؛ ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يجحد عنه». فإن نكلت الزوجة، ولم تلاعن ثبت عليها الحد، لمفهوم قوله: ﴿وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ الآية. فمفهومه أنها إذا لم تشهد ثبت عليها العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾^(١٠).

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الواو: عاطفة، و«لولا»: حرف امتناع لوجود، وهي شرطية غير عاملة، وجوابها محذوف للتفخيم والتحويل، ليذهب العقل في تصويره كل مذهب، أي: ولولا فضل الله عليكم وإحسانه إليكم ورحمته بكم لكان كذا وكذا، ولخرجتم، ولما قيل منكم هذه الأيمان، ولعاقبكم، ولما صلح أمر دينكم

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ٣٣٧-٣٣٨، «النشر» ٢/٣٣٠.

(٢) في «تفسيره» ١٢/٦.

ودنياكم ونحو ذلك.

والفضل: الزيادة والإحسان.

ورحمة الله قسمان: رحمة هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة هي صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وهي أثر من آثار رحمته الثابتة، ومن آثارها الإحسان، وليست هي الإحسان كما يقول بعض أهل التحريف.

قال السعدي^(١): «وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام، أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منها ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين؛ لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفضاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها».

﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ «تَوَّابٌ»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على أن من صفته عز وجل التوبة الواسعة الكثيرة على عباده. يتوب على الكثيرين منهم، ويتوب عليهم مرات كثيرة.

وتوبته عز وجل على عباده تنقسم إلى قسمين: توفيقهم للتوبة، كما قال عز وجل في قصة الثلاثة الذين خَلَّفُوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]؛ أي: ثم وفَّقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

﴿حَكِيمٌ﴾ صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه عز وجل ذو الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة الغائية، والحكمة الصورية. فهو عز وجل حاكم له الحاكمة ومحكم متقن في خلقه وشرعه وأمره ونهيه، يضع الأمور في مواضعها.

ومن توبته عز وجل الواسعة على عباده، وحكمه التام وحكمته البالغة حرم الزنا ومناكحة الزناة، وشرع حد الزنا وحد القذف، وحكم اللعان تطهيراً للنفوس، وصيانة

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٣٩٤/٥.

للأعراض.

الفوائد والأحكام:

١- أن الزوج إذا قذف زوجته وأتى بأربعة شهود من الرجال العدول المكلفين الأحرار، يشهدون شهادة صريحة على صحة ما قال ارتفع عنه حد القذف، وثبت حد الزنا على زوجته كمن رمى غير زوجته، ولا لعان عليه؛ لمفهوم قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ﴾.

وقيل: لا بد من اللعان لرفع الفراش ونفي الولد.

والأظهر أنه لا يلاعن ولا ينفي الولد؛ لأن الولد للفراش^(١)، لحديث عائشة-

رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(٢).

٢- في مشروعية اللعان بين الزوجين- إذا قذف الرجل زوجته- فرج ومخرج له، إذ من

الصعب جداً والمتعسر أن يكون لدى الزوج شهود في تلك الحال؛ ولهذا لم يقل الله

عز وجل: (ولم يأتوا بأربعة شهداء) بل قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾، أي: كما هو

المتوقع غالباً. ولهذا قال هلال بن أمية: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً

ينطلق يلتمس البينة؟ ورسول الله ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك»، فقال هلال:

والذي بعثك بالحق، إني لصادق، ولينزلن الله ما يرى ظهري من الحد. وفي بعض

الروايات: والله، إني لأرجو الله أن يجعل لي منها مخرجاً، فأنزل الله هذه الآيات».

وفي حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- أن الرجل قال: يا رسول الله، إن أحدنا إذا

رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على

غيظ، اللهم افتح. قال: فأنزلت آية اللعان^(٣). فحصل بذلك الفرغ والمخرج

للزوج، وهذا من تيسير الله عز وجل في هذه الشريعة المطهرة، فكلما اشتد الأمر جاء

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٠-٢٩٢، «المغني» ١١/ ١٤١، ١٨١، «الجامع لأحكام

القرآن» ١٢/ ١٩١، «زاد المعاد» ٥/ ٣٨٥-٣٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٥٣، ومسلم في الرضاع ١٤٥٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٧٣، والنسائي

في الطلاق ٣٤٨٤، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٥، وأبو داود في الطلاق ٢٢٥٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٨.

اليسر من الله عز وجل قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦]. وفي الأثر: «لن يغلب عسر يسرين»^(١).

ولهذا شرع الله الرخص لأهل الأعذار، ومن قواعد الشريعة: أن المشقة تجلب التيسير - فله الحمد والمنة.

٣- في نقل الزوج الذي قذف زوجته إذا لم يكن لديه شهود إلى الشهادة بنفسه وحكم اللعان بخلاف غيره من القذف إشارة إلى أن الزوج في الغالب لا يقدم على قذف زوجته وفضيحتها إلا إذا كان صادقاً؛ ولهذا فرّق الله عز وجل في الحكم بين من قذف زوجته، ومن قذف غير زوجته، فخفف على الأول دون الثاني. وخاصة أن الزوج قد يجب عليه قذف زوجته وملاعتها إذا وجد ولدٌ من هذا الزنا، كأن يراها تزني في طهر لم يجامعها فيه، ثم تلد لسته أشهر فأكثر، أو يكون غائباً عنها مدة طويلة، وهي حامل فتلد، ثم تحمل في حال غيبته وتلد، فهذا الولد قطعاً ليس منه فيجب عليه القذف واللعان. أما في حال عدم وجود ولد فالأولى الستر عليها وعدم القذف واللعان. هذا إذا رآها تزني. أما إذا لم يتحقق، فيحرم عليه^(٢).

٤- إذا رمى الرجل زوجته بالزنا ولم يكن له شاهد إلا نفسه، فإنه يجري بينها حكم اللعان وهو أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به، أو في أن زوجته قد زنت. وهذه الشهادات الأربع بدل من الشهود الأربعة، ثم يقول في الخامسة: إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. وبهذا يرتفع عنه حد القذف، فإن وجد ولد، ينتفي عنه الولد الذي وجد من هذا الزنا، فلا ينسب إليه ولا تلزمه نفقته ولا يتوارثان.

ويدفع عنها العذاب أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا. مقابل شهاداته، ثم تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ

(١) رُوي هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه مالك في الموطأ. انظر: «تنوير الحوالك» للسيوطي

٢٩٦/١.

(٢) انظر: «المغني» ١١/١٥٦-١٦٠.

الْكَذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُاَ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخُمْسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾.

وهكذا جاء في سبب نزول الآية. ويجب البداءة بالرجل في اللعان وترتيب ألفاظه كما ذكر الله عز وجل (١).

وإذا تم اللعان بين الزوجين فُرق بينهما فرقةً أبدية، وألحق الولد بأمه، لما جاء في حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: «حضرت عند رسول الله ﷺ، فمضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ولا يجتمعان أبداً» (٢).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما-: «أن رجلاً لاعن امرأته على عهد رسول الله ﷺ ففرق رسول الله ﷺ بينهما وألحق الولد بأمه» (٣).

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الحكم يجري بين الزوجين الحرين فقط، أو بين الأحرار والمماليك لعموم قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوْجَهُمْ﴾، كما اختلفوا هل تحصل الفرقة بلعان الزوج وحده دون لعان الزوجة، أو لا بد من لعانها معاً؟ وهل تحصل الفرقة بينهما بمجرد اللعان أو بتفريق الحاكم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٤): «وقد مضت سنة النبي ﷺ بالتفريق بين المتلاعنين، سواء حصلت الفرقة بتلاعنها، أو احتاجت إلى تفريق الحاكم، أو حصلت عند انقضاء لعان الزوج؛ لأن أحدهما ملعون، أو خبيث، فاقتراها بعد ذلك يقتضي مقارنة الخبيث الملعون للطيب». وفي حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن امرأة لعنت ناقة لها، فأمر النبي ﷺ فأخذ ما عليها وأرسلت، وقال: «لا تصاحبنا ناقة ملعونة» (٥).

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٤٧، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩١- ١٩٢، «زاد المعاد» ٥/ ٣٨٥- ٣٩١، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق- باب في اللعان ٢٢٤٨ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٧٤٨، وفي الطلاق ٥٣٠٦، ومسلم في اللعان ١٤٩٣، ١٤٩٤، وأبو داود في الطلاق ٢٢٥٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٧، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٩.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٧.

(٥) أخرجه مسلم في الصلوة والبر والآداب ٢٥٩٥، وأحمد ٤/ ٤٢٠.

وإذا حصل اللعان بين الزوجين فإنها لا يُعاقبان، ولا يجوز قذف الملاعنة بالزنا، ولا يقال لولدها: ولد زنا، ومن قذفها بالزنا أقيم عليه الحد؛ لأنه لم يثبت زناها، وإنما انتفى نسب الولد عن الزوج بلعانه، ولا يسقط صداقها، ولا نفقة لها عليه^(١).
 ٥- أن الزوج إذا قذف زوجته لا مخرج له من إقامة حد القذف عليه إلا باللعان، فإن نكل عن اللعان وجب إقامة حد القذف عليه وعلى هذا جمهور العلماء. وعليه يدل قوله ﷺ لهلال ابن أمية: «البينة أو حدّ في ظهرك» وقوله له: «اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة». وقوله تعالى في آية القذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].
 وقيل: يحبس حتى يلاعن أو يكذب نفسه فيقام عليه حد القذف^(٢).

٦- إذا لاعن الزوج ثبت على الزوجة حد الزنا، فإذا لاعنت اندفع عنها الحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ﴾ الآية.

٧- مفهوم قوله تعالى: ﴿وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ﴾ الآية. أن الزوج إذا لاعن زوجته ونكلت هي عن اللعان أن عليها العذاب، وعلى هذا يدل قوله ﷺ لزوجة هلال: «اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».
 وبناءً على هذا ذهب جمهور العلماء إلى أن الزوجة إذا نكلت وجب إقامة حد الزنا عليها. وهذا هو الراجح، وقيل: تحبس حتى تلاعن أو تعترف بالزنا^(٣).

٨- أن الشهادات تطلق على الأيمان لتوكيدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَهَدَةَ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: يمين أحدهم بالله، ولهذا قال ﷺ لما جاء الولد يشبه المقدوف: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن». كما قال تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/٣٠٣، ٣٠٤، «المغني» ١١/١٤٤-١٤٧، ١٥٢-١٥٤، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/١٨٦، «أضواء البيان» ٦/١٥٧، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٣٩٣.
 (٢) انظر: «المغني» ١١/١٣٦-١٣٧.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/١٨٧-١٨٨، «أحكام القرآن» للجصاص ٣/٢٩٦، «المغني» ١١/١٨٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/١٩١، «زاد المعاد» ٥/٣٦٥-٣٧٤، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٣٩٣، «أضواء البيان» ٦/١٣٢-١٣٣.

أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْرَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَحَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴿١٠٨﴾، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٩﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١١٠﴾﴾ [المنافقون: ١، ٢].

٩- أن الزوج بحكم المدعي، عليه الإتيان بالبينة: أربعة شهود، فلو أتى بثلاثة شهود، مع شهادته هو لم يثبت حكم الزنا، وعليه أن يلاعن؛ لأنه مدع والبينة لم تكمل، وقوله: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ بمعنى: «يمينه». وقيل: يثبت بذلك حكم الزنا؛ لأن الله سمى الزوج شاهداً، فقال: ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا لأنفُسُهُمْ﴾.

والأظهر القول الأول، وعليه أكثر أهل العلم^(١).

١٠- مراعاة عدد الأيمان وأن تكون أربع مرات؛ لتكون- والله أعلم- كل يمين مكان واحد من الشهود الأربعة في القذف.

وهكذا في شهادة الإنسان وإقراره على نفسه بالزنا لا بد أن يُقرَّ أربع مرات عند طائفة من أهل العلم، لما جاء في قصة ماعز بن مالك- رضي الله عنه-، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يكفي الإقرار مرة واحدة^(٢).

١١- التشديد في أمر اللعان حيث طلب من المتلاعنين أن يشهد كل منهما أربع شهادات، وأن يقول الرجل في الخامسة: إن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين، وتقول المرأة في الخامسة: إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

١٢- في جعل اللعنة في جانب الرجل بأن يقول في الخامسة: أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين، وجعل الغضب في جانب المرأة بأن تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ما يشير إلى أن الزوج هو الأقرب للصدق؛ لأن اللعنة والغضب- وإن كان في كلٍّ منها وعيد شديد وتهديد أكيد، إلا أن الغضب- والله أعلم- أشد من اللعنة؛ لأن فيه معنى اللعنة وأشد فهو سبب الانتقام قال تعالى:

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٥، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٩- ١٩٠.

(٢) انظر ما سبق في فوائد الآية: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وهو من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، كما قال تعالى: ﴿ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: آية ٧]، فالمغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى.

١٣- أن أحكام الشرع على حسب الظاهر، ولو كان الواقع يخالفه؛ لأن المتلاعنين متكاذبان، فالزوج يثبت أن زوجته زانية، وهي تدعي أنه قاذف كاذب، وأحدهما كاذب لا محالة كما قال ﷺ: «إن الله يعلم أن أحدهما كاذب، فهل منكما من تائب»^(١). قالها ﷺ لهلال بن أمية وزوجته لما تلاعنا.

١٤- امتنان الله عز وجل على عباده بما شرع لهم من الفرج والمخرج من الضيق والشدة، ومن اليسر بعد العسر - بفضله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾. أي: لو قعتم في الحرج والمشقة، أو لهلكتم، ولما قِيلَ منكم الظاهر، مع أن الباطن غير صحيح^(٢)، وغير ذلك.

قال ابن كثير^(٣): «أي: لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم».

١٥- أن الإنسان ليس له غنى عن ربه طرفة عين، ولا أقل من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾؛ ولهذا جاء في الدعاء: «اللهم، رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله»^(٤).

١٦- أن كل ما يتقلب فيه الخلق كلهم من نعم الدين والدنيا، وما أعده الله لأوليائه من النعيم في الآخرة كل ذلك بفضل الله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَكُومُنَّ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٥٣].

١٧- إثبات صفة التوبة لله عز وجل بقسميها، وهما توفيقه عبده للتوبة، وقبولها منه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾.

(١) جاء هذا في لفظ البخاري وغيره - وقد سبق الحديث وتخريجه.

(٢) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٥٥.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ١٣.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٥٩ - من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

وفي ختام آية اللعان بهذا ما يدل على أن المتلاعنين قد حصل منهما ما يوجب التوبة من زنا المرأة، أو قذف الزوج لها، والأيمان الكاذبة، والدعاء على أنفسهما، وفي ذلك أيضًا دلالة على أن من تاب منها تاب الله عليه.

١٨- إثبات صفة الحكم لله عز وجل بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، والحكمة بقسميها: الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ وأنه عز وجل الحاكم المحكم فيما خلق وشرع وقدر، ومن ذلك حكمه العدل وحكمته التامة في مشروعية اللعان الذي به مخرج وفرج للزوجين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

سبب النزول:

عن عائشة - رضي الله عنها - : قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه، مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل، ودنونا من المدينة، أذن ليلة بالرحيل، فقامت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحسني ابتغاه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يُهبلن^(١) ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقمة من الطعام^(٢)، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمال وساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فتيمنت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فتمت،

(١) لم يتقلن باللحم والشحم.

(٢) أي: القليل والبلغة من الطعام.

وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني، قد عرس من وراء الجيش، فادّج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله! ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا، موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني. وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمنا المدينة شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني في وجعي، أي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ، فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يرييني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح، قبل المناصع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عبّاد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، وقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت، أتسيين رجلاً قد شهد بدرًا؟! قالت: أي هتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ، فسلم، ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمّته، ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوّني عليك، فوالله! لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها، قالت: قلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبت الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم

أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب، فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق! إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک.

قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية. فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه. فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالتق كبدتي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن كذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلم، ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأنني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيروك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب، تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعني، حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت لأمي: أجبيني رسول الله ﷺ. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت، وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ

كثيراً من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ قالت: ثم تحولت، فاضطجعت على فراشي. قالت: وأنا والله أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن، والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يُتلى، ولشأنني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمرٍ يُتلى، ولكنني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء^(١) عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان^(٢) من العرق في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك». فقالت لي أُمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي. قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ عشر آيات. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي. قالت: فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا يُحِثُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة، التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري: «ما علمت، أو ما رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني^(٣) من أزواج النبي ﷺ

(١) أي: الشدة.

(٢) أي: الدر، شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ في الحسن والصفاء.

(٣) أي: تضاهيني بجهاها ومكانها عند النبي ﷺ وتفاخرن.

فعصمها الله عز وجل بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها^(١)، فهلكت فيمن هلك^(٢).

وفي بعض روايات حديثها زيادة: «وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره، وحمنة».

وفي بعضها: «أنه بلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل فيه، فقال: سبحان الله، والله ما كشفت عن كنف أنثى قط» قالت: «وقتل شهيداً في سبيل الله».

وفي بعضها أن عائشة كانت تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: «فإنه قال:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء»^(٣)

وفي بعض الروايات عنها قالت: «لما نزل عذري قام النبي ﷺ على المنبر، فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم»^(٤).

قال أبو داود بعد إخراج هذه الرواية: «وحدثنا النفيلي حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق بهذا الحديث لم يذكر عائشة، قال: «فأمر برجلين وامرأة ممن تكلم بالفاحشة: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة» قال النفيلي: «ويقولون: المرأة حمنة بنت جحش».

قال ابن كثير^(٥): «هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن أم المؤمنين - رضي الله

(١) أي: تتعصب لها فتحكي ما يقوله أهل الإفك.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤١، ومسلم في فضائل الصحابة، فضل عائشة - رضي الله عنها - ٢٤٨٨، وفي التوبة حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٢٧٧٠، وأبو داود في النكاح ٢١٣٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٧٠، وأحمد ١٩٤/٦، والطبري في «جامع البيان» ١٧/١٩٧ - ٢٠٤، وقد روي من حديث أم رومان أم عائشة - رضي الله عنها - مختصراً، أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥١، وفي المغازي - حديث الإفك ٤١٤٣، وأحمد ٣٦٧/٦ - ٣٦٨.

(٣) كل هذه الروايات جاءت عند مسلم.

(٤) أخرجه أحمد ٣٥/٦، وأبو داود في الحدود - حد القذف ٤٤٧٤، والترمذي في تفسير سورة النور ٣١٨١، وابن ماجه في الحدود - حد القذف ٢٥٦٧، وقال الترمذي: «حديث حسن» وحسنه الألباني.

(٥) في «تفسيره» ١٧/٦.

عنها- ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها، ولنبيه- صلوات الله وسلامه عليه- فأنزل براءتها صيانةً لعرض الرسول- عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقد اتفق أهل السير على أن هذه الحادثة وقعت في غزوة «المريسيع» ماء لخزاعة، وهي غزوة بني المصطلق، لكنهم اختلفوا متى وقعت هذه الغزوة فأكثرهم على أنها سنة ست من الهجرة، وذهب بعضهم إلى أنها سنة أربع من الهجرة وقيل غير ذلك^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ الإفك: الكذب الشنيع، والافتراء والبهتان، مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه، ومنه سُميت قري قوم لوط بالمؤتفكات؛ لأن الله جعل عاليها سافلها، وسُمي الكذب إفكاً؛ لأنه قلب للحقيقة عن وجه الصواب إلى وجه الباطل، وهو الإثم الكبير، والذنب العظيم^(٢)، قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وذكر منهن: «قذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٣).

والمعنى: إن الذين اختلقوا هذا الكذب الشنيع، وافتروا هذا البهتان العظيم، وهو قذف عائشة رضي الله عنها.

﴿عُصْبَةٌ﴾ العصابة: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، وقيل غير ذلك وسُمي الجماعة عصابة؛ لأنه يعصب بعضهم بعضاً ويقويه^(٤).

﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وقال: ﴿مِّنكُمْ﴾ مع أن فيهم عبد الله بن أبي، رأس المنافقين؛ لأن المنافقين في الظاهر من المؤمنين.

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» ٣/ ٣٠٩، «صحيح البخاري مع الفتح» غزوة بني المصطلق ٧/ ٤٢٨، «البداية والنهاية» ٤/ ١٦٠.

(٢) انظر: «القاموس المحيط»، «لسان العرب»، «النهاية» مادة «أفك».

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩٨، «لسان العرب» مادة «عصب».

والمراد بهم الذين تكلموا في شأن عائشة - رضي الله عنها - وفي صفوان بن المعطل - رضي الله عنه - كما جاء في سبب النزول، وهم ثلاثة رجال وامرأة: عبد الله بن أبيّ، وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش.

قال ابن كثير^(١): «أي: جماعة منهم، يعني ما هو واحد ولا اثنان، فكان المقدم في هذه العصبة عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن».

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وحزرة، وأبو جعفر بفتح السين: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ وقرأ الباقون بكسرها^(٢).

والخطاب للنبي ﷺ وزوجه عائشة وأبي بكر وأهل بيته و صفوان بن المعطل، والمؤمنين.

أي: لا تظنوا هذا الإفك شرّاً لكم، أي: إنه وإن كان ظاهره الشر، وكان فيه أذية لكم، فهو ليس شرّاً محضاً.

﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لأن عاقبته إلى خير، والأمور إنما هي بعواقبها وما تؤول إليه، فقد أثبت الله عز وجل براءة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وأنزل في ذلك قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، وهو امتحان من الله عز وجل فيه الأجر العظيم والثواب الجسيم لمن رُمي به. فالأمور بعواقبها لا بظواهرها القريبة.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٧-١٨.

(٢) انظر: «المهذب في القراءات» ٧١/٢

فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٥﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه» (١).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة» (٢).

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الخيرة فيما يختاره الله عز وجل للعبد، وأن الإنسان قد يظن أن هذا الأمر شر، لنظرة فقط إلى ظاهر الأمر، بينما هذا الأمر خير في الحقيقة؛ لأن عاقبته ومآله إلى خير. وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعمة (٣)
فما حصل من هذا الإفك وإن كان ظاهره شراً إلا أن عاقبته ومآله إلى خير، ففيه الأجر والثواب العظيم لمن رُمي به وهي أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل، ولكل من تأذى به، منهم رسول الله ﷺ وأهل بيته وآل أبي بكر- رضي الله عنهم- وغيرهم من المؤمنين.

كما أن في هذا الابتلاء تمحيصاً للمؤمنين، وبيان عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وأهل بيته، ودفاعه عنهم، ورفع شأن عائشة- رضي الله عنها-، بإزالة براءتها وتخليد ذكرها في القرآن الكريم.

وقد روي عن عائشة وزينب ؓ أنها تفاخرتا، فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء: وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتابه، حين حملني ابن المعطل على الراحلة. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلت حين ركبتها؟ قالت: قلت:

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص ٥٧٧.

حسبي الله ونعم الوكيل: قالت: قلت كلمة المؤمنين»^(١).
كما أن في ذلك فضيحة المنافقين وبخاصة رأسهم عبد الله بن أبيّ، فشره وضرره
عائد عليهم؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْتِزَاعِ﴾.
فهذا كله خير للمؤمنين في دينهم ودنياهم في الحال والمآل.

قال ابن كثير رحمه الله^(٢): «﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾،
أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف
لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَا
يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولهذا لما دخل عليها
ابن عباس - رضي الله عنهما، وهي في سياق الموت قال لها: أبشري، فإنك زوجة
رسول الله ﷺ، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء».

فحمداً لك اللهم أن كل ما يصيب المسلم مما يتأذى به ظاهراً فعاقبته ومآله إلى خير،
إذا احتسب ذلك عند الله عز وجل، كما قال ﷺ في حديث صهيب - رضي الله عنه - :
«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته
سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب
ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها
من خطاياها»^(٤).

فتأمل أخي الكريم هذه النصوص الكريمة وما فيها من المعاني العظيمة، فإن فيها
بتوفيق الله الطمأنينة القلبية وانسراح الصدر، وشفاء القلوب والأبدان، والسعادة في الدنيا
والآخرة بإذن الله عز وجل. نسأل الله التوفيق للحق والثبات عليه إلى أن نلقاه عز وجل.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/١٧٤ - ١٩٥ من حديث محمد بن عبد الله بن جحش.

(٢) في «تفسيره» ٦/٢٤ - ٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق ٢٩٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٢، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٣، والترمذي في الجنائز

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ «لكل»: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و«ما» موصولة أو مصدرية في محل رفع مبتدأ، أي: لكل امرئ منهم الذي اكتسبه، أو اكتسابه من الإثم. و«اكتسب» أبلغ من كسب؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً.

والمعنى: لكل شخص من هؤلاء الذين تكلموا بالإفك وتناقلوه، وخاضوا فيه ﴿مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾، أي: ما استحقه وحصل عليه «من الإثم» وهو الذنب والعذاب، بحسب حوضه في ذلك بين مقل ومكثر، وبحسب نيته وما انطوى عليه قلبه، فإن من بين هؤلاء من قصد إشاعة الفاحشة في المؤمنين ممن يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ومنهم من انطى عليه الأمر فخاض فيه وهو لا يشعر.

والكسب كما يكون بالجوارح الظاهرة يكون بالقلب، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَآخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

قال ابن كثير^(١): «أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب». ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قرأ يعقوب الحضرمي «كبره» بضم الكاف، وقرأ الباقون بكسرها^(٢).

والضمير في قوله «كبره» يرجع إلى الإفك، المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أو إلى الإثم في قوله: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾.

والضمير في قوله: «منهم» يرجع إلى الاسم الموصول في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾. ومعنى قوله: ﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾، أي: تولى كبر هذا الإفك، وكبر الشيء بكسر الكاف وضمها: معظمه، أي: والذي تولى معظم هذا الإفك بكونه هو الذي يستوشيه ويجمعه، كما قالت عائشة رضي الله عنها، أو بكونه أول من ابتدأه واختلقه وعمل على نشره وإشاعته وإذاعته.

والمقصود بالذي تولى كبره منهم: عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كما

(١) في «تفسيره» ٢٥/٦.

(٢) انظر: «النشر» ٣٣١/٢.

قالت عائشة- رضي الله عنها- ، وعلى هذا أكثر المفسرين (١).

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك وكان الذي يتكلم فيه مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم» (٢).

وعن مسروق قال: دخلنا على عائشة- رضي الله عنها- وعندها حسان بن ثابت ينشدنا شعراً يشب بأبيات له، وقال:

حصان رزان ما تُزن بريية وتصبح غرثى من لحوم الغوافل (٣)

فقالت له عائشة: «لكنك لست كذلك. قال مسروق: فقلت لها: لم تأذنين له أن يدخل عليك، وقد قال الله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأي عذاب أشد من العمى- وكان قد ذهب بصره- لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح، أو يهاجي عن رسول الله ﷺ» (٤).

وعنها أنها قالت: «ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان:

هـجوت محمدًا فأجبتُ عنه
فإن أبي ووالده وعرضي
أشتمته ولسنت له بكفاءٍ؟
لساني صارم لا عيب فيه
وعند الله في ذاك الجزاء
لعرض محمد منكم وقاء
فشركما لخيركما الفداء
وبحري لا تكدره الدلاء

فقليل: يا أم المؤمنين، أليس هذا لغواً؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: أليس قد أصابه عذاب

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٩٥-١٩٧، «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٤٥، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- حديث الإفك ٤١٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠.

(٣) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» ص ٢٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥٥، ٤٧٥٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٨٨ وانظر:

«تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٥.

عظيم؟ أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف؟»^(١)(٢).

قال ابن كثير^(٣): «تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك فعلاه بالسيف، وكاد أن يقتله».

ومع أن هذه الروايات قد يفهم منها أن حسان بن ثابت ممن تولى كبر الإفك، فإن الرواية السابقة صريحة في أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي.

وأيضاً فإن مما يرجح كون الذي تولى كبره عبد الله بن أبي، لا حسان بن ثابت ما عند عبد الله بن أبي من سوء النية وخبث الطوية والقصد المتعمد لأذية الرسول ﷺ وعائشة والمؤمنين - كما هو معلوم عنه مما يبرأ منه حسان بن ثابت، وإن كان قد خاض فيه، وانطلى عليه الأمر من غير قصد، ولهذا قال ابن كثير^(٤) عن هذا القول: «وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يذُبُّ عن رسول الله ﷺ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وروح القدس معك».

وأيضاً فإن حسناً - رضي الله عنه - أنكر ذلك ودعا على نفسه إن كان قال ذلك، وقال في أبياته المشهورة في الثناء على عائشة والدفاع عنها:

حصان رزان ما تُزن بريبة	وتصبح غرثي من لحوم الغوافل ^(٥)
حليمة خير الناس ديناً ومنصباً	نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب	كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة قد طيّب الله خيمها	وطهرها من كل شين وباطل
فإن كان ما بلغت أني قلته	فلا رفعت سوطي إلي أنساملي
فكيف وودي ما حييت ونصرتي	لآل رسول الله زَيْن المحافل

(١) كنعه بالسيف، أي: أيس جلدته فرقاً وخوفاً وهلعاً.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/١٩٣.

(٣) في «تفسيره» ٦/٢٦.

(٤) في «تفسيره» ٦/٢٥.

(٥) رزان، أي: عاقلة زينة. ما تُزن، أي: ما تُتهم. غرثي، أي: جائعة، أي: أنها لا تتكلم في الغفلات. وقد تُكلم فيها.

له رتبة عال على الناس فضلها تقاصر عنه سورة المتطاول^(١)

﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: في الآخرة وهو عذاب النار العذاب الأكبر، وأيضاً عذاب الدنيا مما يترتب على الكفر والمعاصي من الآثار السيئة النفسية والبدنية والمعيشية وغير ذلك، فإن الكفر والمعاصي سبب لفقدان السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة.

قال السعدي^(٢): «﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ هو المنافق الخبيث عبد الله بن أبي ابن سلول لعنه الله، ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار».

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

هذا توبيخ للمؤمنين في عدم ظنهم الخير بأنفسهم ورد الأكاذيب، وتوجيه لهم.

قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾: «لولا» هنا للتوبيخ والتنديم على التفريط في أمر قد مضى، وفيه تحذير من مثله مستقبلاً.

والهاء في «سمعتموه» ضمير يعود إلى الإفك، أي: هلا إذ سمعتم هذا الإفك.

﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: ظن المؤمنون والمؤمنات، كحسان ومسطح وحمته وغيرهم من المؤمنين ﴿بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: ظنوا بقلوبهم بأم المؤمنين عائشة وصفوان ؓ وغيرهم من المؤمنين خيراً، بأن غلبوا جانب حسن الظن والخير والعفاف في عائشة - رضي الله عنها - وفي صفوان، وفي غيرهم من المؤمنين، وأن هذا الفعل لا يقع من مؤمن، كما قال النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث^(٣) فكيف بأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - والصحابي الجليل صفوان بن المعطل رضي الله عنه؟!

(١) انظر: «ديوان حسان» ص ٢٢٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٠.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيما ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيما ٢٦٢٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وترتيب الظن على السماع بترتيب الجزاء على الشرط يدل على وجوب المسارعة إلى الظن الحسن حال سماع هذا الإفك.

ونص على المؤمنات في قوله: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ ولم يكتف بذكر ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ كما هي طريقة القرآن في تغليب الذكور على الإناث؛ لبيان أنه وقع هذا الأمر من ذكور وإناث، وأنه ينبغي أن يحسن المؤمنون ذكورهم وإناثهم الظن بإخوانهم المؤمنين.

﴿يَأْتُسِبُّهُمْ﴾؛ لأن المؤمنين كلهم بمثابة نفس واحدة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، وقتل المسلم لأخيه المسلم بمثابة قتله لنفسه.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»^(١).

فحسنُ الظن وتغليب جانب الخير في المؤمنين كلهم واجب، فكيف بأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - والصحابة ﷺ كصفوان بن المعطل وغيره.

وقد قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بَعْضُ الظَّنِّ إِتْرٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «إذا ظننت فلا تحققي»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦ - من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وأخرجه الحافظ عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني في الإيمان عن الحسن البصري مرسلًا. انظر: «الجامع الصغير» ٣٤٦٦. وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣٥٧/٧ من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه.

قال ابن تيمية^(١): «لكن مع العلم بما عليه المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر».

وتحتمل الآية معنى ثانياً أي: كما يظن الإنسان بنفسه الخير ينبغي أن يظن ذلك بإخوانه المؤمنين.

أي: كما تظن بنفسك الخير يجب أن تظن ذلك بإخوانك، إلا بيقين يدل على خلاف ذلك، بل لو ظن الإنسان بنفسه الشر والوقوع في الفاحشة إذا حصلت له الخلوة، فلا يجوز له أن يظن ذلك بالآخرين من إخوانه المؤمنين، فكيف بأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - . والآية تشمل هذا كله.

قوله: ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: فبادروا عند سماعه بظن الخير بأنفسهم، وتفنيده هذا الخبر وتكذيبه، أي: قالوا بألستهم: هذا كذب وافتراء بيّن واضح ظاهر في نفسه أنه كذب وافتراء ومُبيّن أمر قائله بأنه مفتر كذاب.

فجمعوا بين حسن الظن بأم المؤمنين - رضي الله عنها - في باطنهم، وبين رد هذه الفرية ظاهراً والجزم ببطلانها، وأنها كذب وافتراء بيّن واضح.

قال ابن كثير^(٢): «﴿وَقَالُوا﴾ بألستهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة».

وهكذا يجب على المؤمنين أن يقدموا حسن الظن بمن هم محل العدالة والثقة من المسلمين، وأن يردوا بألستهم ما يلفقه المغرضون من افتراءات كاذبة، ما لم يظهر لهم

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤١١.

(٢) في «تفسيره» ٦/٢٧.

خلاف ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٣).

قوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾ «لولا» كالتي قبلها للتوبيخ والتنديم والضمير في «جاؤوا» يعود إلى العصبة الذين جاؤوا بالإفك. أي: هلا جاء أولئك العصبة الذين تكلموا بهذا الإفك ﴿عَلَيْهِ﴾، أي: على الإفك ﴿بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾ من الرجال الأحرار المكلفين العدول يشهدون شهادة صريحة على صحة ما قالوا. وفي هذا إشارة إلى مطالبتهم بالإتيان بأربعة شهداء على هذا الإفك، كما أن فيه إشارة إلى عجزهم عن الإتيان بالشهداء؛ لأنهم كذّبة مفترون، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾: عاطفة، و«إِذْ» ظرف للزمان الماضي بمعنى: «حين» مُضْمَنٌ معنى الشرط.

وقوله: ﴿بِالشُّهَدَاءِ﴾ ولم يقل: «فإذ لم يأتوا بهم» بل أظهر في مقام الإضمار للتوكيد، أي: فإذا لم يأتوا بالشهداء على صحة ما قالوا، ولن يأتوا بهم.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية. أي: فأولئك الذين قذفوا عائشة وصفوان - رضي الله عنهما. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لشأنهم.

﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في علمه وحكمه الشرعي ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الكذب والافتراء والفجور.

وأكد تحقق هذا الوصف فيهم وبلوغه غايته بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: الكاذبون غاية الكذب دون غيرهم.

قال ابن القيم^(١): «فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب، وإن كان خبره مطابقاً».

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٦.

وقال السعدي^(١): «﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأنه حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، لهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون» وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق».

ولهذا أمر النبي ﷺ بإقامة حد القذف على حسان بن ثابت. ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش، أما عبد الله ابن أبي، فيحتمل - والله أعلم - أنه لخبثه ومكره، يشيع هذا الخبر ويلفقه، دون أن يصرح بذلك، كأن يقول: يقولون حصل كذا من عائشة، أويتكلم به لدى خواصه الذين يطمئن أنهم لا يشهدون عليه بذلك، لينشروه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ «لولا»: حرف امتناع لوجود، وهي حرف شرط

غير جازم.

﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الفضل: الزيادة، أي: ولولا فضل الله وزيادته التي يتفضل بها

على عباده من جلب الخير لهم، ودفع الضر عنهم، والتوبة عليهم، والتجاوز عنهم.

والخطاب في قوله (عليكم) للذين تكلموا في قضية الإفك، وبخاصة المؤمنين

منهم؛ وهم: حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش؛ لأن المؤمنين هم

الذين أهل لفضل الله ورحمته الخاصة.

﴿وَرَحْمَتُهُ﴾، أي: ورحمته لكم، والمراد هنا رحمته الخاصة بالمؤمنين؛ لأن الخطاب

معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

والرحمة هي سبب الفضل من الله.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ «الدنيا»: هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت «دنيا» من

الدنو وهو القرب؛ لأنها قبل الآخرة فهي متقدمة عليها من حيث الزمن؛ ولهذا سماها

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٧.

الله عز وجل الأولى قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠].

وهي أيضًا مأخوذة من الدناءة، لأنها حقيرة دنيئة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١).

﴿وَالْآخِرَةُ﴾ هي الدار الآخرة التي بعد هذه الدار الدنيا، وسميت الآخرة؛ لأنها متأخرة في الزمن بعد الدنيا؛ ولأنها آخر دار، فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار. والمراد: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم في الدنيا بأن وفقكم للتوبة وقبلها منكم، وشرع لكم ما يطهركم به من حد القذف، وفي الآخرة بأن عفا عنكم، وتجاوز عن ذنوبكم ليحللكم دار كرامته.

﴿لَسْتُكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا هو جواب «لولا» والخطاب في قوله: ﴿لَسْتُكُمْ﴾ إلى الذين خاضوا بالإفك.

أي: لأصابكم ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ «في» سببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب الذي خضتم وتكلمتم فيه في حديث الإفك. يقال: أفاض في الحديث، أي: أكثر منه ونشره^(٢).

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: عذاب عظيم من حيث كمه وكيفه ونوعه في الدنيا مما يفوق الجلد والتوبيخ، وفي الآخرة بالنار، والذي سيمس أولئك الذين حرموا فضل الله ورحمته ممن خاضوا في الإفك من المنافقين كعبد الله بن أبي وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولكن بفضل الله عز وجل ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، وتطهيرهم بالجلد،

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «فيض».

وتوفيقه لهم للتوبة وقبولها منهم عفا الله عنهم، وتجاوز عن ذنوبهم وأنجاهم من العذاب، وفازوا بالجنات وعظيم الثواب.

قال ابن كثير^(١): «يقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه».

وقال السعدي^(٢): «﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب».

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(٣).

قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين»، والأصل «تلقونه» فخفف بحذف إحدى التاءين، أي: حين تلقونه وتلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض ويرويه وينقله بعضكم عن بعض، والضمير في ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ يعود إلى الإفك، ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، أي: بقولكم: قال فلان كذا، وسمعت فلاناً يقول كذا، وذكر بعضهم كذا، وقيل: كذا وكذا ونحو ذلك^(٣).

وأُسند التلقي وأضيف إلى الألسن، مع أن الكلام يتلقى بالأذن إشارة - والله

(١) في «تفسيره» ٢٧/٦.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٣٩٧/٥ - ٣٩٨.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٢٧/٦.

أعلم- إلى مبادرتهم إلى نقله والتكلم فيه بألسنتهم وهلة وحال سماعه، وكأنهم تكلموا به قبل أن يستقر في الأذان من سرعة تلقيهم له.

وقد كانت عائشة- رضي الله عنها- تقرأ ﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ والوَلَقُ: الإسراع. والمراد به هنا الإسراع إلى اختلاق الكذب.

عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة- رضي الله عنها- أنها كانت تقرأ: ﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُ﴾ تقول: إنما هو وَلَقِيَ القول- والوَلَقُ: الكذب. قال ابن أبي مليكة: وكانت أعلم من غيرها بذلك؛ لأنه نزل فيها^(١).

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾، أي: قولاً لا مستند له ولا حقيقة، بل مجرد قول بالأفواه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] أي: بألسنتكم مما لا حقيقة له. وقيل: هذا من باب التأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فقوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ توكيد إذ من المعلوم أن القلوب في الصدور، ومثل هذا قول القائل: رأيت بعيني، وسمعت بأذني.

﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي ليس لكم به علم، أو مصدرية، أي: قولاً ليس لكم به علم، أو نكرة بمعنى شيء في محل نصب مفعول به أي: وتقولون بأفواهكم شيئاً ليس لكم به علم. أي: تقولون ما لا تعلمون^(٢).

فأصبح حالكم كمن يقول: «سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»^(٣).

وقد قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»^(٤).

وعن حذيفة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسناً، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤٤، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢١٥-٢١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٤٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥، من حديث أساء- رضي الله عنها-.

(٤) أخرجه مسلم في المقدمة ٥، وأبو داود في الأدب ٤٩٩٢- من حديث حفص بن عاصم رضي الله عنه.

تحسنوا، وإن أسأؤوا فلا تظلموا»^(١).

وروى عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه قال: «إذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أسأؤوا فاجتنب إساءتهم»^(٢).

قال ابن تيمية^(٣): «وقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ يَا فَأُوْهُكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ قال: فهذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان: القول بالباطل، والقول بلا علم».

﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها^(٤).

أي: وتظنون أن هذا الإفك الذي افتريتموه في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. ﴿هَيَّا﴾ أي: سهلاً يسيراً. قال السعدي^(٥): «ولهذا أقدم عليه من أقدم من المؤمنين، ثم تابوا وتطهروا بعد ذلك».

﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الواو للحال أي: والحال أنه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: في حكمه الشرعي، وحكمه الجزائي وفي علمه.

﴿عَظِيمٌ﴾، أي: ذنب عظيم، وجرم كبير، وعقابه عظيم وعذابه أليم؛ لأنه قذف لزوجة أفضل الرسل نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وهي أفضل أزواج الأنبياء وسيدتهم أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بل إن القذف مطلقاً من أعظم الذنوب الموبقات.

كما في حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن: «قذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٦).

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة - ما جاء في الإحسان والعتق ٢٠٠٧، وقال «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٩٥.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤ / ٤١١.

(٤) انظر: «المهذب في القراءات العشر» ص ٧١.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥ / ٣٩٨.

(٦) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧ ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧.

قال ابن كثير^(١): «ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل». وإذا كان الرب العظيم وصف هذا الإفك بأنه عنده عظيم، فلا يستطيع أحد أن يقدر كنه عظمة هذا القول وخطورته إلا العظيم سبحانه وتعالى، مصداق ذلك قوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ، وفي رواية لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض»^(٢).

وفي حديث بلال بن الحارث المزني أن رسول الله ﷺ قال: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عز وجل عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(٣).

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل: «كف عليك هذا- وأمسك بلسانه- فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(٤). وعن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^(٦). قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الواو: استئنافية، و«لولا»: للتوبيخ والتنديد؛ لأنه فات وقتها ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين»، أي: وهلا حين سمعتم هذا الإفك. ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، أي: قلت منكرين لذلك ومسارعين حال سماعه بالبراءة منه.

وترتيب القول على السماع بترتيب الجزاء على الشرط يدل على وجوب المسارعة

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- حفظ اللسان ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد- التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٦٩. وصححه الألباني

(٤) أخرجه الترمذي في الإيذان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٠٦ وقال الترمذي: «حديث حسن».

إلى نفي هذا الإفك والبراءة منه حال ساعه.

و«ما»: نافية، أي: قلتُم: ما يجوز لنا أن نتكلم بهذا الإفك العظيم ولا يمكن أن نتكلم به، ولمكانة عائشة- رضي الله عنها- أجل وأعلى من أن ينسب إليها هذا الأمر، أو يقع منها. وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف^(١).

﴿سُبْحَانَكَ﴾: تنزيها لله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وعن أن يقدر على زوجة سيد الخلق، وسيدة نساء الأنبياء أن تقع فيما قيل عنها ورميت به، فهو عز وجل أغير على نبيه ﷺ وعلى زوجة نبيه ﷺ، ولهذا لم تزن امرأة نبي قط لعصمة الله عز وجل هن عن ذلك فكيف بعائشة- رضي الله عنها- أفضلهن وزوجة أفضلهم^(٢).

وأيضًا: سبحانهك وتنزيها لك من أن نتكلم بهذا الإفك فنخالف أمرك.

﴿هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: هذا الإفك الذي رميت به عائشة وصفوان ﴿بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: كذب عظيم.

و﴿بُهْتَنٌ﴾ على وزن «فعلان» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على أن هذا الإفك بلغ الغاية في الكذب، ولهذا وصفه بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾.

والبهتان: هو الكذب على البريء، والقول عليه بما ليس فيه، كما قال ﷺ في الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: رأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته»^(٣).

وسمي الكذب بهتانًا، وبهتًا؛ لأنه يبهت ويحير من رمي به ويدهشه كما أنه في نهاية الأمر يبهت ويحير صاحبه الذي افتراه واختلقه؛ لأن وبال ذلك عليه.

ولهذا يطلق البهت والبهتان على المجادلة بالباطل كما قال تعالى: ﴿بُهْتَمَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: تحير وانقطع وقال تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بِبُهْتَانٍ أَثَمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠]،

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١.

(٢) انظر: «زاد المسير» ٨/ ٢١٥، «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٧، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٨-٢٩، ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: كذباً وذنباً عظيماً ودعوى باطلة.

قوله تعالى: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧﴾.

قوله: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ الموعظة: معناها: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، وما يلين القلوب. أي: ينهاكم الله متوعداً ومحذراً لكم أن ترجعوا لشبه هذا القول.

﴿أَبَدًا﴾، أي: مطلقاً فيما يستقبل من رمي عائشة أو غيرها من أزواج النبي ﷺ أو غيرها من المؤمنين.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ «إن» شرطية و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين بالله ورسوله، وكل ما يجب الإيمان به، فلا تعودوا لمثله أبداً؛ فمن شرط الإيمان: ألا تعودوا لمثل هذا القول أبداً؛ تعظيماً لحرمة الله عز وجل، واحتراماً لرسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾.

قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾، أي: يوضح ويفصل لكم الآيات الشرعية والكونية وما يؤخذ منها من أحكام وحكم، شرعية وكونية وجزائية. فقد بين الله عز وجل في معرض ذكر هذه الحادثة حادثة الإفك كثيراً من الأحكام والحكم الشرعية والكونية والجزائية.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، كما قال موسى عليه السلام لما سُئِلَ عن القرون الأولى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]، فلا يعتري علمه عز وجل جهل سابق، ولا نسيان لاحق.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة الغائية

والحكمة الصورية، فهو عز وجل حاكم محكم متقن في خلقه وشرعه وقدره وجزائه^(١).
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩).

هذا وعيد وتهديد وتحذير للذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾، أي: يرغبون ويودون ويتمنون بقلوبهم إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وربما عملوا على ذلك بجوارحهم، فتكلموا بألسنتهم، وكتبوا بأقلامهم ونحو ذلك؛ لإظهار الشماتة بالمؤمنين وأذيتهم، ولإشباع رغباتهم وشهواتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾، أي: يحبون شيوع الفاحشة، أو إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

ومعنى ﴿أَنْ تَشِيعَ﴾، أي: أن تظهر وتفشو وتنتشر^(٢).

والفاحشة والفحشاء والفحش: ما يستقبح ويستفحش في الشرع وعرف المسلمون من الأقوال؛ كالقذف والغناء والسب والشتم، ونحو ذلك، ومن الأفعال؛ كالزنا واللواط وأسبابها من الاختلاط بين الرجال والنساء والخلوة بالنساء وبالمردان، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [إسراء: ٣٢].

واللواط أشد وأفحش من الزنا، ولهذا أطلق عليه اسم الفاحشة بالتعريف، قال تعالى عن لوط أنه قال لقومه: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

قال ابن تيمية^(٣): «وهذا ذم لمن يحب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم في الفاحشة، أو يخبر بها محبة لوقوعها في

(١) يحسن مراجعة تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

(٢) انظر مادة «شيع» في «المفردات» و«لسان العرب».

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤ / ٤١٢.

المؤمنين إما حسداً أو بغضاً، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، فكل من أحب فعلها ذكرها». **﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** العذاب: هو العقوبة والنكال، و«أليم» على وزن «فعليل» بمعنى «مُفْعِل»، أي: مؤلم موجع حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب. وهكذا جميع الذنوب والمعاصي وعقوباتها المترتبة عليها في الدنيا والآخرة لها آلامها الحسية والمعنوية.

قال ابن كثير^(١) في كلامه على الآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾**: «أي: يختارون ظهور الكلام عليهم بالقيح **﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾** أي بالحد، وفي الآخرة بالعذاب».

فلهم عذاب أليم في الدنيا بجلدهم حد القذف ثمانيين جلدة، لنطقهم بالقذف بألستهم وأفواههم، مع العذاب المعنوي الدنيوي بسبب الذنوب والمعاصي وهو قلقهم واضطراب حياتهم.

ولهم عذاب أليم في الآخرة حسياً ومعنوياً في النار، لما انطوت عليه قلوبهم من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين وسعيهم إلى ذلك.

وذلك أن الحدود على الصحيح كفارات فلا يجمع للقاذف بين عقوبتين؛ الحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، اللهم إلا أن يحمل ذلك على المنافقين فإن العقوبة في الدنيا لا تكفر عنهم عقوبة الآخرة إلا من تاب منهم من النفاق.

وفي حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك»^(٢).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو

(١) في «تفسيره» ٢٩/٦.

(٢) أخرجه البخاري في الإبان ١٨، ومسلم في الحدود ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩، وابن ماجه في الحدود ٢٦٠٣.

كان كيف كان يكون، علمه محيط بالأشياء في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم فهو عز وجل يعلم أحوال خلقه، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]، ويعلم ما يصلحهم من الأحكام الشرعية والقدرية.

ويعلم ما تنطوي عليه قلوب أناس من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين. ومن علمه عز وجل تقديره كوناً أن يحصل ما حصل من قضية الإفك، وعاقبته خير للمؤمنين كما ذكر الله عز وجل.

ومن علمه عز وجل أنه رتب العذاب الدنيوي وهو الجلد، والعذاب الأخروي بالنار على من وقع في ذلك ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، تأديباً لهم وردعاً لأمثالهم، ولو لم يقم عليهم حد القذف لانبرى أناس يتكلمون في أعراض بريئة ولشاعت الفاحشة بين المؤمنين بسبب ذلك.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: لا تعلمون وجه الحكمة فيما شرع الله وقدر، ولا علم عندكم؛ لأن ما عندكم من العلم لا يساوي شيئاً بالنسبة لعلم الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولا تعلمون أيضاً إلا ما علمكم الله. قال ابن كثير^(١): «فردوا العلم إليه ترشدوا».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾. كرر عز وجل تذكيرهم بفضله ورحمته هنا، وقد سبق في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: ١٠] تأكيداً لعظيم فضله عليهم ورحمته بهم وامتناناً عليهم بذلك؛ ليشكروه، وتنبهاً لهم على عظم هذا الإفك كما قال عز وجل: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

«لولا» شرطية غير عاملة، وحذف جوابها للتعظيم والتفخيم؛ ليذهب فيه الفكر كل مذهب، أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكان كذا وكذا، أو لعاجلكم بالعقوبة، أو لما صلح أمر دينكم ودنياكم ونحو ذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ﴾، أي: ذو الرأفة العظيمة بعباده وخلقته. والرأفة: أخص من

(١) في «تفسيره» ٢٩/٦.

الرحمة، بل هي أشد الرحمة.

﴿رَحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة.

فلكونه عز وجل رؤوفاً رحيماً تفضل على المؤمنين ورحمهم، ووفقهم إلى التوبة مما حصل منهم من الخوض في هذه القضية، وقبلها منهم وطهرهم من ذلك.

قال ابن كثير^(١): «﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه».

ففي الآيات السابقة ذكر عز وجل الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فجعل لهم مخرجاً من ذلك بالملاعنة بين الزوجين بفضله عز وجل ورحمته؛ لأنه التواب الحكيم.

وذكر عز وجل في هذه الآيات أنه جعل لعائشة - رضي الله عنها - وللمؤمنين فرجاً ومخرجاً من هذه القضية، وجعل العاقبة لهم بفضله ورحمته؛ لأنه الرؤوف الرحيم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات براءة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - مما قاله فيها أهل الإفك، وعناية الله عز وجل بها وفضلها وعظيم مكانتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات.

٢- دفاع الله عز وجل عن نبيه وأهل بيته، وعن آل أبي بكر وعن المؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

٣- فضيحة أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم بما أنزل الله فيهم من الآيات وبيان أن ما جاؤوا به كذب وإفك مبين، وبهتان عظيم.

٤- أن الذين تكلموا في قضية الإفك جماعة من المؤمنين، بما فيهم المنافقون الذين هم في الظاهر من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾.

٥- أن عاقبة الابتلاء قد تكون إلى خير؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإن ما حصل لعائشة - رضي الله عنها - من هذا الإفك عاقبته خير لها ولرسول الله ﷺ.

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٠.

وأهل بيته ولآل أبي بكر ولصفوان بن المعطل، وغيرهم من المؤمنين. فقد فضح الله عز وجل أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم وبيّن كذبهم، وبرأ أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وأهل بيته ﷺ والمؤمنين، وأثنى عليهم وامتدحهم، وبيّن لهم الحكم وعلمهم الأدب في مثل هذا، وهذا كله خير، هذا في الدنيا. وفي الآخرة لهم عند الله عظيم الأجر والثواب، كما قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه»^(١).

٦- أن لكل من هؤلاء العصبة الذين تكلموا بالإفك نصيبه من الإثم والذنب وجزاءه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُم مَّا آكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾. فمن أطال الخوض في هذا وأكثره فنصيبه من الذنب والجزاء أعظم، ومن أقل في ذلك فذنبه وجزاؤه على قدر خوضه في ذلك.

ومن خاض فيه عن قصد وسوء نية وخبث طوية كعبد الله بن أبي فذنبه وجزاؤه أعظم ممن خاض فيه من غير قصد، وإنما انطلى عليه الأمر. ومن جزاء ذلك الجزاء الدنيوي بإقامة حد القذف على من ثبت عليه ذلك منهم ورد شهادته، والحكم بفسقه حتى يتوب.

٧- أن أعظم أصحاب هذا الإفك عذاباً من تولى كبر هذا الأمر، ابتداءً به ونشراً وإشاعة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهو عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فهو من أعظم الخائضين في هذا مع نفاقه وسوء نيته، وخبث طويته ومحبتة إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

٨- أن الذنوب تتفاوت من حيث كبرها وكثرتها وخلاف ذلك، وتتفاوت عذابها على حسب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُم مَّا آكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٩- تويخ من تكلم بالإفك من المؤمنين، وتنديمهم وعتابهم، وتعليمهم الأدب في مثل هذا؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

(١) سبق تخریجها.

١٠- وجوب حسن الظن بالمؤمنين، وأن الأصل فيهم العدالة والبراءة والخير والعفاف، حتى يثبت خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

١١- أن اتهام المؤمن لأخيه بمثابة اتهامه لنفسه، وأن حسن الظن به بمثابة حسن الظن بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ﴾، أي: بإخوانهم المؤمنين، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

١٢- أن ما رُميت به عائشة - رضي الله عنها - كذب بين واضح ظاهر، وبهتان عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

١٣- وجوب رد الأخبار والإشاعات المغرضة ورفضها بقوة وحزم؛ لكذبها وعدم صحتها، ولما تسببه من شرور وفتن على المجتمع الإسلامي؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله في الآيات بعد هذه الآية: ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، أي: هذا كذب بين مردود جملة وتفصيلاً.

وقد قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلَكِهِمْ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

١٤- وجوب إتيان القذفة بأربعة شهداء يشهدون بصحة ما قالوا؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾.

١٥- إذا لم يأت القذفة بأربعة شهداء يشهدون بصحة ما قالوا فهم عند الله الكاذبون المفترون، الذين بلغوا الغاية في الكذب، ووجب إقامة حد القذف عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

وحيث إن ما جاء به هؤلاء الذين تكلموا في عائشة - رضي الله عنها - إفك وكذب مبین، وبهتان عظيم، فقد أقام النبي ﷺ الحد على القذفة منهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش، وتاب الله عليهم.

فعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «لما نزل عذري قام النبي ﷺ على

المنبر فذكر ذاك وتلا- يعني القرآن- فلما نزل أمر بالرجلين والمرأة فُضربوا حدهم»^(١).

وعن محمد بن إسحاق قال: «ثم أمر رسول الله ﷺ بمسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصحوا بالفاحشة فُضربوا حدهم»^(٢).
وقيل: إن النبي ﷺ أقام الحد على أربعة، هؤلاء الثلاثة، وعبد الله بن أبي ابن سلول. والمشهور القول الأول: وهو أنه ﷺ أقام الحد على الثلاثة: حسان ومسطح وحمنة، دون عبد الله بن أبي؛ لأنه لخبثه ودهائه وخوفه من أن يفتضح نفاقه، كما قالت عائشة- رضي الله عنها-: «يستوشيه ويجمعه»، فهو يعمل على نشره وإشاعته بطرق خفية وملتوية، ولا يصرح به. وإن صرح به فعند أمثاله من المنافقين الذين يتسترون عليه، وقيل غير ذلك^(٣).

١٦- فضل الله عز وجل على المؤمنين ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، حيث طهر من وقع منهم بالإفك بإقامة الحد عليهم، ووقفهم للتوبة، وقبلها منهم، فسلموا من أن يمسه العذاب العظيم لو لم يتوبوا، وفي هذا وعيد شديد وتحذير أكيد من الوقوع في مثل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٧- العتاب الشديد للذين تلقوا الإفك وتناقلوه بألسنتهم فيما بينهم، وتكلموا بأفواههم بما ليس لهم به علم، والنهي عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

١٨- وجوب الثبوت في الأخبار وفي نقل الكلام، والإمساك عما ليس للإنسان به علم؛ لأن الله عاتب المؤمنين على ما حصل منهم من تلقي الإفك والقول بلا علم.

١٩- عظم ذنب وإثم من خاضوا في هذا الإفك، وأنه ليس بالأمر الهين، فهو قذف لأم

(١) سبق تحريجه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣١٥.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢١، «تفسير ابن كثير» ٦/٢٣، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٦٦.

المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ وابنة الصديق رضي الله عنه وعنهما، فأذوها وأذوا رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، وأذوا أبا بكر وأهله ﷺ، وصفوان بن المعطل رضي الله عنه والمؤمنين.

علمًا أن القذف بحد ذاته ذنب عظيم، فكيف إذا كان لإحدى أمهات المؤمنين، بل لعائشة التي هي من أفضل أمهات المؤمنين، والتي هي أحب أزواج النبي ﷺ إليه والتي فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كما قال ﷺ^(١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن كثير^(٢): «وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به الذين ذكروا في هذه الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم».

٢٠- عتاب الله للمؤمنين ثانيًا وتأديبه وتعليمه لهم، وبيان أنه كان الواجب عليهم لما سمعوا حديث الإفك أن يمسكوا عن الكلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

٢١- وجوب الذب عن عرض المسلم برد ما يقال فيه من الإفك، وبيان أنه كذب وبهتان عظيم وفي الحديث: «من رد عن عرض أخيه المسلم رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»^(٣).

٢٢- وجوب الإمساك والبعد عن الخوض في الكلام الباطل، وإن خاض فيه من خاض من الخلق، وما أكثرهم، فالعافية غنيمة، والسلامة لا يعدلها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾.

وانظر إلى كثير من المسلمين في مجالسهم العامة والخاصة ومنتدياتهم وفي مواقعهم على «الإنترنت» وفي الساحة المفتوحة الساحة السوداء ساحة الحراج وغير ذلك

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٣٤، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٣١، والنسائي في عشرة النساء

٣٩٤٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٣١/٦.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٣١، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وقال: «حديث حسن».

يندى جبينك من سوء أخلاق كثير من المسلمين، وخوضهم في الباطل، بما يحمل بين طياته الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ويؤدي إلى تمزيق كلمة المسلمين ووحدهم، وجعلهم أيدي سبا، ولقمة سائغة لأعدائهم، بل ويؤدي إلى ما هو أعظم من ذلك وهو الإساءة إلى الشرع المطهر والدين الإسلامي الحنيف ووصمه بأنه مصدر هذه التصرفات، وحاشا الدين الإسلامي من ذلك.

٢٣- تسبيح الله عز وجل وتنزيهه عن كل ما لا يليق به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾، وأن حكمته عز وجل تأبى أن يقع في فراشه ﷺ ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها.

٢٤- أن ما قيل من الإفك في عائشة- رضي الله عنها- كذب بلغ من الكذب غايته ومنتهاه؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٥- وعظ الله للمؤمنين ونبيه لهم نهياً مؤكداً وتحذيرهم من الرجوع إلى مثل هذا الإفك؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾.

٢٦- أن من شرط الإيثار وكماله عدم الرجوع في مثل ذلك، وعدم الوقوع في أعراض المسلمين وقذفهم كذباً وبهتاناً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٢٧- أن الذنوب والمعاصي تضعف الإيثار، وأن كمال الإيثار بالبعد عنها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يتتبع نهبه يرفع الناس إليه بها أعناقهم حين ينتهبها وهو مؤمن»^(١).

٢٨- تبين الله وإيضاحه لعباده الآيات الشرعية والكونية، وما فيها من الأحكام والحكم؛ إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل والحكم التام والحكمة البالغة له- سبحانه

(١) سبق تحريجه.

وتعالى - لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٣٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، والتحذير للذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذوا المؤمنين ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»^(١).

وإذا كان هذا الوعيد بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لمن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فكيف بما هو أعظم من ذلك، من فعل ذلك وقوله ونقله وإظهاره^(٢).

٣١- يجب أن يعمل المؤمنون جميعاً على القضاء على أسباب إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي.

٣٢- يجب رد الأمور إلى الله تعالى والتسليم لأمره، والرضا بقدره؛ لسعة علمه وحكمته، فما حصل من خبر الإفك فبعلمه وتقديره، ولحكمة يعلمها، وبعلمه شرع ما شرع من الأحكام لعلاج هذه القضية وأمثالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٣- أن علم الخلق لا شيء بالنسبة لعلم الله عز وجل فهم لا يعلمون كيف المخرج من مثل هذه الوقائع، وكيف علاجها، ولا يعلمون الحكمة في تقدير الله لها، وفيما شرع من أحكام لعلاجها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٤- أن ما فيه العباد من النعم، وما اندفع عنهم من النقم في دينهم ودنياهم هو بفضل الله عز وجل عليهم ورحمته لهم ورأفته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَهُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ومن ذلك تبرئة عائشة - رضي الله عنها - والمؤمنين، وفضيحة أهل الإفك وبخاصة المنافقين.

٣٥- إثبات صفة الرأفة الواسعة لله عز وجل وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، وهي

(١) أخرجه أحمد ٥/٢٧٩ - من حديث ثوبان ؓ.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٤٠٠.

رحمة ذاتية صفة من صفاته عز وجل الثابتة، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل قضية الإفك، وما حصل من الخوض فيها فمن متكلم فيها، ومن ناقل، أو مصدق لها أتبع ذلك بيان أن ذلك كله من خطوات الشيطان وعمله تحذيرًا من ذلك.

وقد نهى الله عز وجل في آيات عدة من القرآن الكريم عن اتباع خطوات الشيطان. أعادنا الله وجميع المسلمين من الشيطان وخطواته.

قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة لـ«أي»، أو بدل منها، و«آمنوا» صلة الموصول. والإيمان في اللغة: التصديق قال تعالى عن أولاد يعقوب أنهم قالوا لأبيهم: ﴿أَنْتَ يَمْؤُمِنُنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال ابن تيمية معناه الإقرار لا مجرد التصديق^(١).
فعل هذا أبو طالب عم النبي ﷺ مصدق برسول الله ﷺ لكنه لم يقر؛ لهذا لم يدخله تصديقه في الإيمان، فهو القائل:
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل^(٢)

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٦٣٨، ٥٢٩-٥٤٣.

(٢) انظر: «ديوان أبي طالب» ص ١٢٨، «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩٩، «الحجاسة المغربية» ١/ ١٠٤.

والقائل:

ولقد علمت بأن دين محمد
لولا الملامة أو حذار مسبة
من خير أديان البرية دينا
لوجدتني سمحًا بذاك ميينا^(١)

ولهذا لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء إليه النبي ﷺ، وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل، فقال ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقال له عبد الله بن أمية وأبو جهل: قل: بل على ملة عبد المطلب. فقال: بل على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول لا إله إلا الله^(٢).

والإيمان في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح^(٣).

قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرעה سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه^(٤).

﴿لَا تَتَّبِعُوا﴾، اتباع الشيء: الأخذ به واقتفاؤه وسلوك منهجه وطريقه.

﴿خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾، قرأ نافع وحمة وأبو عمرو، وخلف، وأبو بكر عن عاصم:

«خُطُوت» بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بضمها^(٥).

وخطوات: جمع خُطوة، والخطوة في الأصل: ما بين قدمي الماشي.

وخطوات الشيطان: طرقه ومسالكه ووساوسه ونزغاته، وتزيينه وهمزاته

وتسويله وعمله.

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال تعالى:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا

(١) انظر: «شرح الطحاوية» ٢/ ٤٦١، «ديوان أبي طالب» ص ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٤، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥- من حديث ابن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ٧/ ٦٧٢، ١٧٠.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤.

(٥) انظر: «النشر» ٢/ ٢١٥، ٢١٦.

يَزْعُوكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَزْعُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [النمل: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَى آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ [القصص: ١٥].

والشيطان: كل متمرّد عات خارج عن طاعة الله عز وجل، مأخوذ من شطن، بمعنى: بعد عن رحمة الله وجنته، وعن كل خير^(١).

ويكون من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى: ﴿ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»^(٢). ورأس الشياطين وكبيرهم إبليس لعنه الله، ومن خطرات الشيطان وطرقه وأعماله محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ الواو: عاطفة، و«من» اسم شرط جازم، و«يتبع» فعل الشرط، وجوابه قوله: ﴿ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويحتمل كون «الفاء» تعليلية، والجملة تعليل للنهي أو للشرط. وجواب الشرط محذوف، تقديره: فقد غوى. ونحو ذلك، وهذا أقرب.

وقوله: ﴿ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾، أي: الشيطان ﴿ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ الفحشاء: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين، ومن ذلك الزنا والقذف ونحو ذلك.

(١) انظر: «الكتاب» لسبويه ص ٢٦٠، ٢٨٦، ٣٢١، وانظر مادة «شطن» في «تهذيب اللغة» و«مقاييس

اللغة»، وانظر: «تفسير ابن كثير» ١/ ٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة- ما يقطع الصلاة ٧٠٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

و«المنكر»: كل ما أنكره الشرع وعرف المسلمون، وهو ضد المعروف، ويشمل جميع المعاصي والذنوب، فعطفه على الفحشاء من عطف العام على الخاص. والمعنى: أن من يتبع طرق الشيطان ومسالكه وأعماله فإنه لا يدلّه إلى خير بل يأمره بالفحشاء والمنكر ويقوده إلى كل شر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْبَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قال ابن كثير^(١): «هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها».

ورحمك الله يا ابن كثير فما أفصح هذه العبارة وما أوجزها وأبلغها وأحسنها وأدلها على المقصود، فإن قوله: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ اشتمل على نهي وتحذير، ودل على أنه يأمر بكل ما خالف الشرع والعرف، أي يأمر بجميع المعاصي والذنوب والشور، ومفهوم ذلك أنه لا يأمر بها لم يكن فاحشاً ولا مستنكراً في الشرع والعرف، فلا يأمر بخير أبداً.

اللهم إلا إذا كان سترتب على ذلك الخير شر أعظم منه، أو يمتنع بسببه خير أعظم منه فإن هذا من مسالك الشيطان كما قال ابن القيم - رحمه الله - : «إن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل»^(٢).

وقد قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصداً وصولاً إلى باب من الشر أعظم
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿مَا زَكَّيْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جواب «لولا» و«ما» نافية ﴿زَكَّى﴾ قرأ روح ويعقوب في رواية زيد «زكى» بتشديد الكاف، وقرأ الباقون بتخفيفها^(٣).

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٥/ ٤٥٨. «التفسير القيم» ص ٦١٣.

(٣) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

و«زكى»، أي: طهر، طهارة معنوية من دنس الشرك والذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الأعلى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٨].

و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي. «أحد» نكرة في سياق النفي، فتعم كل أحد. والمعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم بتوفيقه لكم للتوبة، وبيان الحق لكم، وحفظكم من خطوات الشيطان ما طهر منكم من أحد أبداً من الشرك، ومن جميع الذنوب والمعاصي، من الفجور والفحش والأخلاق الرديئة وغير ذلك، فطهارة من طهر منكم إنما هي بفضل الله ورحمته؛ ولهذا قال:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، أي: ولكن الله عز وجل بفضلله ورحمته يطهر من يشاء من عباده ممن يعلم أنهم أهل للتركية. فيوقفهم للتوبة، ويقبلها منهم، ويوقفهم لسلوك الطريق المستقيم، ويحفظهم من خطوات الشيطان وطرق أهل الجحيم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۗ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَيْلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَهِدَى لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] لهذا أمر المسلمون أن يرددوا في صلواتهم، بل في كل ركعة منها قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وفي الدعاء: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»^(١).

وكان ﷺ يردد في أناس من أصحابه ﷺ، يوم الخندق:

والله لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينتنا علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا ^(٢)

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد- حفر الخندق ٢٨٣٧، ومسلم في الجهاد والسير- غزوة الأحزاب ١٨٠٣-

نسأل الله عز وجل الهداية والتوفيق بفضله ورحمته.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي ذو السمع الواسع لكل شيء، سميع مجيب الدعوات، سميع لجميع الأصوات خفيها وجليها سرها وعلانياتها، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَآرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقالت عائشة - رضي الله عنها - : «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾»^(١).

فهو عز وجل سميع لدعاء عباده وجميع الأصوات، يسمع أنين المذنبين وتوبة التائبين وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي أحاط علمه بكل شيء، ومن ذلك علمه عز وجل بمن يستحق التزكية والتطهير ممن لا يستحق ذلك، والعلم بما يظهر الخلق وما يطنون، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

سبب نزول الآية:

لما أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى عشر آيات فيها براءة عائشة - رضي الله عنها - مما قال أصحاب الإفك، وكان ممن تكلم فيه مسطح بن أثاثة. قالت عائشة - رضي الله عنها - : فقال أبو بكر - رضي الله عنه - وكان ينفق على

من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(١) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨. وصححه الألباني.

مسطح لقرابته منه وقره: والله لا أنفق عليه أبدًا بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة، التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدًا^(١).

قوله: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الواو استثنائية، و«لا» ناهية.

قرأ أبو جعفر «ولا يتأل» وقرأ الباقر: ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾.

ومعنى القراءتين واحد، أي: ولا «يخلف»^(٢) مأخوذ من «الأليّة» وهي الحلف واليمين كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧]، أي: للذين يخلفون على عدم قربان نسائهم تربص أربعة أشهر.
قال الأعشى^(٣):

فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفى حتى تلاقى محمداً
وقال الآخر:

قليل الأيا حافظ ليمينه إذا صدرت منه الألية برت^(٤)
والمعنى: ولا يخلف أولو الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولى القربى واليتامى والمساكين. فحذفت «لا» النافية^(٥).

وقيل معنى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾، أي: ولا يألو، أي: ولا يقصر، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨]، أي: لا يقصرون في جلب الخبال لكم. ومنه ما روي عن معاذ: «أجتهد رأبي ولا آلو»^(٦)، أي: ولا أقصر.

(١) سبق نحرجه.

(٢) انظر: «النشر» ٣٣١/٢.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ١٨٥-١٨٧، «السيرة النبوية» ٢/٢٦-٢٧.

(٤) البيت لكثير عزة. انظر: «ديوانه» ص ٣٢٥.

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٠٩، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٧٦.

(٦) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧- من حديث معاذ في قصة بعث

ويكون المعنى: ولا يقصر أولو الفضل منكم والسعة في أن يؤتوا أولي القربى^(١). والآية تحتل المعنيين، لكن المعنى الأول أظهر وأشهر، وعليه يدل سبب النزول. ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾، أي: أصحاب الفضل منكم، و«الفضل»: الزيادة، أي: أصحاب الزيادة والتفضل والإحسان والصدقة. وقيل: المراد بالفضل هنا الصلاح في الدين، لعطف السعة عليه.

﴿وَالسَّعَةِ﴾: الغنى والطول والجدة، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]. ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾، أي: أن لا يؤتوا، فحذفت منه «لا» النافية، وحذفتها بعد القسم مطرد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا بِاللَّهِ تَفْتُوًا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥] أي: لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف.

وعلى المعنى الثاني تكون جملة ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ في محل جر، والتقدير: ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة في أن يؤتوا أولي القربى، أي: ولا يقصروا في أن يعطوا أولي القربى.

﴿أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾، أي: أصحاب القرابة المحتاجين. وذلك أن أم مسطح بنت خالة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان مسطح مسكيناً لا مال له إلا ما ينفقه عليه أبو بكر - رضي الله عنه - وكان من المهاجرين في سبيل الله، وكان ممن تكلم في الإفك وجلد حد القذف وتاب الله عليه - رضي الله عنه^(٢).

وقدم «أولي القربى»؛ لأن الصدقة على القريب أولى، فهي صدقة وصلة - كما جاء في حديث سلمان بن عامر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن

النبي ﷺ له إلى اليمن.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠٨/١٢، «أضواء البيان» ٦/١٦٠-١٦٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣١/٦.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٨٢، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٤، والدارمي في الزكاة ١٦٨٠. وصححه

ظهر غنى وابدأ بمن تعول»^(١).

وعن طارق المحاربي قال: قدمنا المدينة، فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك، أدناك»^(٢).

وعن حكيم بن حزام - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٣).

ولهذا قال ﷺ لأبي طلحة - رضي الله عنه - لما أراد أن يتصدق بحائطه المسمى «بيرحاء» قال ﷺ: «وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسما أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»^(٤).

وحتى في الدعوة إلى الله فهم أولى من غيرهم ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ولهذا كان الميراث للأقربين، الأقرب فالأقرب، وكذا النفقة تجب للأقرب فالأقرب. وقد استدل ابن تيمية^(٥) وغيره بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ الآية على وجوب الصلة والنفقة لذوي الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب قال: «لأن أم مسطح بنت خالة أبي بكر، وقد جعله الله من ذوي القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم، والنهي يقتضي التحريم، فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل كان الفعل واجباً؛ لأن الحلف على ترك الجائز جائز».

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي لا يجد إلا بعض كفايته أو لا يجد شيئاً، وسمي مسكيناً أخذاً من السكون وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، فتجده بين

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٦، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٣٢. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٨، ومسلم في الزكاة ١٠٣٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٣.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦١، ومسلم في الزكاة ٩٩٨، وأبو داود في الزكاة ١٦٨٩، والنسائي في الأحباس ٣٦٠٢، والترمذي في التفسير ٢٩٩٧ - من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٣.

الناس ساكتاً لا يتكلم. وإن تكلم لم يسمع الكثيرون له، بل قد يمن عليه بعض الناس بالسلام، وحاله كما قيل:

إذا قل مال المرء قل بهاؤه وضائق عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازماً أقدامه خير له أم وراؤه
وإن غاب لم يشفق إليه خليله وإن مات لم يسرر صديقاً بقاؤه^(١)

والمراد بالمساكين هنا ما يشمل الفقراء؛ لأن «الفقير» و«المسكين» من الأسماء التي إذا افرقت اجتمعت وإذا اجتمعت افرقت وقد اختلفوا أيها أشد حاجة الفقير أو المسكين، والأكثر على أن الفقير أشد حاجة^(٢)؛ لأن الفقر مأخوذ من «القفر» وهي الأرض الخالية، أو من انفصام فقار الظهر، الذي هو من أشد ما يكون، وقد يؤدي إلى الهلاك نسأل الله العافية. وقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»^(٣).

﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: والمهاجرين من مكة إلى المدينة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: في طريق الله وإخلاصاً له، وفراراً بدينهم، ونصرة لدين الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٠٠] أي: إخلاصاً لله عز وجل ومتابعة للرسول ﷺ.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام^(٤). وخص «المهاجرين» مع أن المسكنة والحاجة قد تكون فيهم وفي غيرهم من الأنصار وغيرهم، وذلك لما جاء في سبب نزول الآية من منع أبي بكر النفقة على مسطح وهو من المهاجرين؛ ولأن المهاجرين أشد حاجة حال نزول الآيات؛ لأنهم ﷺ خرجوا من مكة وتركوا أزواجهم وأولادهم وأموالهم وديارهم، كل ذلك فراراً بدينهم، ولهذا آخى النبي ﷺ في أول الهجرة بينهم وبين إخوانهم الأنصار، حتى كان الأنصاري يجعل ماله نصفين

(١) الآيات لأبي حيان التوحيدي. انظر: «ديوانه» ص ٢٤٦. وانظر: «الكشكول» ٢/٢٣٩، «الوابل الصيب» ص ٧٦.

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/٤٤٢-٤٤٨، «لسان العرب» مادة «سكن»، «فقر».

(٣) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ من حديث أبي بكر رضي الله عنه. وصححه الألباني ١٢٧٦.

(٤) انظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة «هجر».

بينه وبين أخيه المهاجري، ويطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المهاجري. بل يرث بعضهم بعضاً بتلك المؤاخاة حتى نسخ الله ذلك وجعل الميراث للأقربين.

والمعنى: لا يحلف أصحاب الفضل منكم والغنى، الذين من الله عليهم بذلك أن لا يعطوا المحتاجين من أصحاب القرابة والمساكين والمهاجرين، وكل هذه الصفات الثلاث موجودة في مسطح، فهو من قرابة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وهو من المساكين المحتاجين، وهو من المهاجرين.

وعطف هذه الصفات على بعض تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات للدلالة على أن كل صفة منها بمفردها تستوجب الإنفاق والإحسان، فكيف إذا اجتمعت هذه الصفات.

والنهي موجه إلى ما يقع في المستقبل، ويفهم منه أن ما وقع من أبي بكر - رضي الله عنه - كما دل عليه سبب النزول - أمر لا ينبغي، لكن دون توبيخ.

قال ابن كثير^(١): «أي: لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام».

وقد نهى الله تعالى عن جعل اليمين بالله تعالى عرضة لعدم البر؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ اللام لام الأمر في الموضعين، ولهذا جزم الفعل بعدها. والعفو: ترك العقوبة على الذنب، والتجاوز عنها. والصفح: ترك التثريب واللوم، ونسيان ما حصل، كما قال يوسف لإخوته - عليه وعليهم السلام - : ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

أي: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ عما حصل أو يحصل من هؤلاء المنفق عليهم من الإساءة والأذى وسوء الأدب - إذ لا شك أن الواجب مقابلة الإحسان بالإحسان، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، لكن إذا قابل المحسن إليه بالإساءة فلا ينبغي أن يكون ذلك حاملاً على ترك الإحسان إليه، فإن الاستمرار بالإحسان إليه أقرب لرده إلى الحق، وهو أخلص لله تعالى، يدل على أن باذل الإحسان لا ينتظر من أحسن

(١) في «تفسيره» ٦/٣١.

إليهم شيئاً كما قال الله عز وجل عن عباده المؤمنين: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَبَيْتًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لِيُؤْتِيَهُ اللَّهُ لَازِدًا مُّكْرِمًا جَزَاءً لِّمَا شَكَرْتُمْ ﴿[الإنسان: ٨-٩].

وقال تعالى في الثناء على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في إنفاقه في تخليص المستضعفين من المؤمنين بمكة من أيدي المشركين ﴿وَسَيَجْنِبُهَا آلَ نَعْمَىٰ﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمِمَّا أَحَدِي عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ جَزَاءً ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿[الليل: ١٧-٢١].

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ «ألا»: أداة عرض لاستمالة قلوب المخاطبين. ﴿تُحِبُّونَ﴾، أي: تودون. ﴿أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، والتقدير: ألا تحبون مغفرة الله لكم، أو غفران الله لكم. ومفعول «يغفر» محذوف للعلم به، أي: أن يغفر الله لكم ذنوبكم. والمغفرة: ستر الذنوب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره، وتقيه السهام. ولما أنزل الله عز وجل هذه الآية بادر أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فعفا وصفح، وأعاد النفقة إلى مسطح وقال رضي الله عنه: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي». مع أن خوض مسطح في هذا الإفك من مقابلة الإحسان بالإساءة ومن ظلم ذوي القربى الذي ما أشد وقعه على النفس كما قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند (١)

وهكذا ينبغي للمسلم إذا حلف على أمر فرأى غيره خيراً منه أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه» (٢).

كما ينبغي للمسلم أن يكون إلى العفو والصفح عن أساء أقرب منه إلى الانتقام لينال مغفرة الله عز وجل كما في هذه الآية، وليكون أقرب للتقوى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولينال الخيرية الموعود بها في

(١) البيت ينسب لطرفة بن العبد، وهو في «ديوانه» ص ٣٦ طبعة دار صادر، وينسب لعدي بن زيد العبادي، وهو موجود في «ديوانه» ص ١٠٧ تحقيق محمد جبار، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد.

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان ١٦٥٠، والترمذي في الأيمان والنذور ١٥٣٠، ومالك في النذور ١٠٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وليكون أجره على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، وليأخذ بعزائم الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من الترغيب في الخير والحث على المبادرة إليه والحض على المسارعة إليه والمنافسة فيه، وفي مغفرة الله، ما يقصر التعبير عنه، مما يدل على بلوغ القرآن الغاية في الترغيب فيما يريد الترغيب فيه، ومن ذا الذي لا يقول: «بلى» إذا قيل له: ألا تحب أن يغفر الله لك. رغبة فيما عند الله، كما قال الصديق رضي الله عنه: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

لكن من كتب الله عليه الخذلان قد يقول: «لا» بلسان حاله أو بلسان مقاله، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأَوْرَوْسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

ولما قيل لرجل: «ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ» قال: إني لست بمجنون^(١). ولهذا قال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»^(٢).

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ سبق الكلام عليه^(٣)، وفي ختم الآية بهذا وعد بالمغفرة والرحمة لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الذي نزلت فيه هذه الآية، ولغيره من أهل الإحسان والعفو.

الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.
- ٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشریف وتكريم لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده بفعله إن كان أمراً، وتركه إن كان نهياً يعد من

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١١٥، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦١٠، وأبو داود في الأدب ٤٧٨١ - من حديث سليمان بن سرد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٠، ومسلم في الإمارة ١٨٣٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في الكلام على قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

- مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك يعد نقصاً في الإيمان، وأن الإيمان قبل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٣- نهي المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان وطرقه ومسالكه ووساوسه وما يزينه من أعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٤- أن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، ولا يأمر بخير أبداً، مما يوجب الحذر منه ومن مسالكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.
- ٥- تزكية الله عز وجل للمؤمنين وتطهيره لهم من الذنوب والمعاصي بالإيمان والتوبة بفضلته عز وجل ورحمته، ولولا ذلك ما زكى منهم من أحد أبداً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٦- أن الأمر في الهداية والإضلال، وتزكية النفوس وتطهيرها، وعدم ذلك كله بمشيئة الله يهدي من يشاء ويطهرهم بفضلته، ويضل من يشاء بعدله، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٧- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل، الذي وسع جميع الأصوات، وصفة العلم الواسع لله عز وجل، الذي وسع وأحاط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
- ٨- نهي الله عز وجل لمن أعطاهم الله الفضل والسعة في الرزق عن الحلف على ألا يؤتوا المحتاجين من أصحاب القربى والمساكين والمهاجرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾.
- وأول من يدخل تحت هذا النهي أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - الذي نزلت بسببه الآية.
- فلا ينبغي للمسلم أن يحلف على ترك شيء من أعمال البر والخير، وأن من فعل ذلك ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير، وهكذا فعل الصديق - رضي الله عنه.
- ٩- مشروعية الإنفاق على الأقارب، وقد يكون ذلك واجباً.
- ١٠- الترغيب في الصدقة والإحسان لمن عنده فضل ووُسْع عليه في رزقه بأن يعطي المحتاجين من أصحاب القرابة والمساكين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾.

١١- أن الصدقة على القريب أفضل من الصدقة على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ فقدم «أولى القربى» على «المساكين» فدل على أن الصدقة عليهم أفضل، وفي الحديث «الصدقة على القريب صدقة وصلة»^(١).

١٢- ذل الحاجة، ولهذا سمي الله المحتاجين بالمساكين؛ لأن الحاجة أذلتهم وأسكتتهم فكانوا كالساكن الذي لا حراك فيه، وكما ساهم في مواضع أخرى بالفقراء؛ لأن الحاجة جعلتهم كمن انقصمت فقار ظهره نسأل الله العافية.

١٣- في ذكر المهاجرين في سبيل الله إشارة إلى ما كان عليه المهاجرون ﷺ من الفاقة والحاجة حيث تركوا ديارهم وأموالهم ﷺ، وأن المعتبر في الهجرة ما كان في سبيل الله؛ لإقامة دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١٤- الترغيب في العفو والصفح عن أساء عموماً، وعن أهل الحاجة من الأقارب والمساكين خصوصاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾، وأن ذلك سبب للمغفرة؛ ولهذا قال بعده: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤].

١٥- أنه لا ينبغي أن تحمل إساءة من أساء، ومعصيته على ترك الإحسان إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾، بل إن الإحسان لمن أساء دليل على الإخلاص، كما أنه سبب لرد المسيء إلى الحق وترك الإساءة.

١٦- الرد على المعتزلة القائلين بأن الكبائر تحبط الأعمال؛ لأن مسطحاً- رضي الله عنه- ممن خاض في الإفك، وذلك كبيرة من الكبائر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ولعن الله فاعليه وتوعد عليه بالعذاب العظيم، فقال: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ

(١) سبق تخرجه.

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ومع ذلك أثبت أن هجرة مسطح باقية بل نوّه بهجرتة^(١).

١٧- بلوغ القرآن الغاية في الترغيب في العفو والصفح وطلب مغفرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فإن في هذا من حسن التعبير ولطافته وتحبيب هذا العمل ما لا مزيد عليه؛ ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

١٨- أن الجزاء من جنس العمل فإن من عفا وصفح عن الخلق، غفر الله له وتجاوز عن ذنوبه وسترها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن كثير^(٢): «فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله ما أنفعه بنافعة أبداً. فلهذا كان الصديق هو الصديق».

وفي حديث أسامة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٣).

١٩- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه قبل نزول الآية وبعدها، فقد كان رضي الله عنه معروفاً بالإحسان والفضل والأيادي على الأقارب والجيران والمستضعفين من المؤمنين، لكنه بعد خوض مسطح في الإفك أراد أن يمنع النفقة عنه، فلما أنزل الله هذه الآية رد النفقة، وقال: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي» ومقابلة الإساءة بالإحسان درجة عظيمة لا يناها إلا من وفقه الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ مَوْلَىٰ حَمِيمٌ﴾^(٣١) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أَلَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]. اللهم نسألك من فضلك.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٨/١٢، «أضواء البيان» ٦/١٦٢-١٦٣.

(٢) في «تفسيره» ٣١/٦.

(٣) أخرجه البخاري في الجناز ١٢٨٤، ومسلم في الجناز ٩٢٣، وأبو داود في الجناز ٣١٢٥، والنسائي في الجناز ١٨٦٨.

وهذا المعنى متحقق في الصديق- رضي الله عنه- أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لانتخذت أبا بكر خليلًا»^(١). قال بكر بن عبد الله المزني: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه»^(٢).

٢٠- من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل الذي هو خير.

٢١- إثبات سعة مغفرة الله عز وجل وتجاوزه عن ذنوب عباده وستره عليهم. وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٢- دل ختم الآية بصفتي المغفرة والرحمة له عز وجل، على أن زوال المهرب بسبب مغفرته عز وجل، وحصول المطلوب بسبب رحمته سبحانه وتعالى.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلاة- باب الخوخة والممر ٤٦٦، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٣٨٢، والترمذي في المناقب- مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣٦٦٠، وابن ماجه في المقدمة- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٩٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الصلاة، ٤٦٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «المقاصد الحسنة» ص ٣٦٩ رقم ٩٧٠.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَأُنَاقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمْ
اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق حد الذين يرمون المحصنات في الدنيا وهو جلدهم ثمانون جلدة ورد شهادتهم، وفسقهم. ثم ذكر ما قاله أصحاب الإفك من الكذب المبين والبهتان العظيم في حق أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وما لهم من العذاب العظيم في الدنيا والآخرة. ثم أتبع عز وجل ذلك بالوعيد للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات عموماً باللعن والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، وهو متناول لمن قذف عائشة، أو غيرها من أمهات المؤمنين من باب أولى.

وقد روي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «رميت بما رميت به، وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، فبينما رسول الله ﷺ جالس عندي إذا أوحى إلي، قالت: وكان إذا أوحى إلي أخذه كهيئة السبات، وإنه أوحى إلي وهو جالس عندي، ثم استوى جالساً يمسح على وجهه، وقال: يا عائشة أبري، قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك، فقراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ حتى قرأ: ﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾»^(١).

وهذا - إن صح - إنما فيه أن عائشة هي سبب النزول، ولعل هذا هو مراد ابن عباس رضي الله عنه - فيما روي عنه - أنه قال: «نزلت في عائشة خاصة»^(٢)، أي: أن عائشة هي سبب النزول.

والصحيح أن الآية عامة كما اختار ذلك أكثر المفسرين منهم الطبري^(٣)، وابن كثير^(٤)، واستدل له بما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف،

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٢٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/٢٥٥٧ - الأثر ١٤٢٨٥ - وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٣٢.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/٢٣٠.

(٤) انظر: «تفسيره» ٦/٣٢ - ٣٣.

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ «الذين» اسم موصول لجمع الذكور، وغلب الذكور هنا على الإناث؛ لأن الآية تشمل من رمى من الذكور والإناث.

ومعنى: ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، أي: يقذفونهن بالزنا و«المحصنات» العفاف. ﴿الْغَافِلَاتِ﴾، أي: عن الفاحشة، البعيدات عنها فلا تحظر لهن على بال، ولا يخطر على بالهن ما يقال عنهن من أمر الفاحشة لحسن سرائرهن، وطهارة قلوبهن، وسلامة صدورهن^(٣) كما قالت عائشة - رضي الله عنها: «رميت بما رميت به وأنا غافلة. وكما قال عنها حسان^(٤)»:

حَصَان رَزَان مَا تُزِن بَرِيبةً وَتُصْبِحُ غَرثِي مِنْ لِحُومِ الْغَوَافِلِ
فقوله: «وتصبح غرثي»، أي: جائعة، «من لحوم الغوافل»، أي: أنها لا تقع في أعراض النساء الغافلات عن الفاحشة.

﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: جمع مؤمنة، أي: المصدقات المتقادات ظاهراً وباطناً، والمؤمنات إيماناً يمنعهن من الفجور. وسواء كان القاذف رجلاً أو امرأة، وسواء كان المقذوف أيضاً رجلاً أو امرأة، وهذا بإجماع المسلمين^(٥).

وإنما خصّ - والله أعلم - بالذكر رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، دون رمي المحصنين من المؤمنين، مع أن كل ذلك لا يجوز ومتوعد عليه؛ لأن رمي المرأة أشد ضرراً وأعظم أثراً من رمي الرجل؛ ولأن سياق الآيات جاء بعد ذكر من رموا أم

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان - بيان الكبائر ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١.

(٢) انظر: «فتح القدير» للشوكاني ١٧/٤، «أضواء البيان» ٨٧/٦.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٢٢٨.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠٩/١٢، «أضواء البيان» ٨٩/٦.

المؤمنين عائشة - رضي الله عنها.

وقدم الوصف بالإحصان على الإيمان في الآية مع أن الإيمان أكمل وأولى بالاعتبار؛ لأن الزنا ينقض الإحصان وينافيه، فبدأ بالوصف الذي ينقض ما رُمين به وهو الإحصان. ﴿لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يقل: لعنهم الله، ليشمل لعن الله وغيره، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

واللعن من الله معناه: الطرد والإبعاد عن رحمته، ومن المخلوقين معناه: الدعاء بالطرود والإبعاد عن رحمة الله.

فهؤلاء القذفة: ملعونون مبعدون عن رحمة الله وعن الخير في الدنيا والآخرة، ومن طرد عن رحمة الله وعن الخير، فليس له إلا العقوبة والشر، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بحد القذف، وألم الذنب والمعصية المعنوي وأثره السيئ على مرتكبه مدة حياته، وهذا أمر مشاهد.

فإن المعاصي والذنوب تورث قسوة في القلب، وضيقاً في الصدر، وسواداً في الوجه، ومحققاً للبركة في الرزق والعمر، وشقاءً في الحياة، ويزداد ذلك بقدر بعد الإنسان عن الله عز وجل قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعْ عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَشَىٰ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]. ولهم عذاب عظيم في الآخرة بالنار، وهو أعظم وأشد من عذاب الدنيا. ولهذا الوعيد الشديد ذهب بعض أهل العلم كابن عباس رضي الله عنه وغيره إلى أن الآية فيمن رمى أزواج النبي خاصة. ويقوي هذا قوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي رمي أمهات المؤمنين أعظم الأذى له ﷺ.

ولهذا قال ﷺ كما في حديث الإفك: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد

بلغني أذاه في أهل بيتي»^(١).

وظاهر الآية عمومها لجميع المحصنات من أزواج النبي ﷺ وغيرهن من المؤمنات، وهو الصحيح كما سبق بيانه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢٤).

قوله: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ يوم: ظرف للعذاب، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء: «يشهد»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿نَشْهَدُ﴾^(٢).

والمعنى: تقر وتعترف عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بحيث لا يستطيعون الإنكار كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَا الرَّسُولِ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي بالذي كانوا يعملون، أو بعملهم، وهو يشمل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

أي: يوم القيامة تشهد عليهم ألسنتهم بما تكلموا بها من الخوض في الباطل من رمي المحصنات بالزنا، وإشاعة الفاحشة والغيبة والنميمة وغير ذلك.

وتشهد أيضًا عليهم أيديهم بما بطشوا بها وظلموا واعتدوا، وبما أخذوه بها من غير حق، وتشهد عليهم أرجلهم بما مشوا بها إلى الباطل والحرام والظلم.

فيا سبحان الله هذه الجوارح التي كانت تدافع عنهم في الدنيا، أشهدا الله عليهم

وأنتقل ما لم يكن منها ناطقًا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(١٩) حتى إذا

مآجها وها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون^(٢٠) وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا

أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون^(٢١) وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم

سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون^(٢٢) وذلكم ظنكم الذي ظننتم

بربكم أزدنكم فأصيحبتهم من الخسيرين ﴿ [فصلت: ١٩- ٢٣].

وفي بعض المواضع يُحْتَم على الأفواه وتنطق الجوارح فقط، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ

نَحْنُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «النشر» ٢ / ٣٣١.

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، فقال: أتدرون مم أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجزى عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين عليك شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانها: انطقي، فتنتطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل»^(١).

قال السعدي رحمه الله^(٢): «ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَذِ يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَذِ﴾ «يوم» بدل من الأولى في قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ والتنوين عوض عن المحذوف، أي: يومئذ تشهد عليهم تلك الجوارح، وذلك يوم القيامة.

﴿يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمْ﴾، أي: يعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا تامًا، لا نقص فيه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَبِيهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُؤْتُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْفَيْصِمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

«الحق»، أي: الذي هو غاية الحق والعدل والإنصاف، من غير زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يُظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْفَيْصِمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: ويعلمون عندما يوفيهم الله أعمالهم علمًا جازمًا أن الله عز وجل هو الحق الثابت فهو عز وجل حق، ووجوده حق، وصفاته حق، وربوبيته حق،

(١) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٦٩.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤٠٤/٥.

وألوهيته حق، ودينه حق، ووعدته حق، ولقاؤه حق، وحسابه حق، وكلامه حق، صدق وعدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام الكونية والشرعية والجزائية.

﴿الْمَيِّنُ﴾، أي: البين أنه حق في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته بدلالة آياته ومخلوقاته، الميين أنه عز وجل الحكم العدل سبحانه وتعالى، فهو سبحانه حق، وما عداه باطل، قال لبيد^(١):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وهو عز وجل المظهر للأمور على حقائقها، والذي لا تخفى عليه خافية، والذي لا يظلم أحد عنده مثقال ذرة.

الفوائد الأحكام:

١- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للذين يرمون العفائف الغافلات عن الفاحشة المؤمنات بالطرد عن رحمة الله، والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وذكر منهن: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

٢- أن من رمى غير العفائف الغافلات المؤمنات لا يستحق هذا الوعيد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾

٣- حرص الشرع المطهر على صيانة المجتمع الإسلامي وحفظه من إشاعة الفاحشة.

٤- عناية الدين الإسلامي بعفاف المرأة المسلمة وطهرها، لتبقى مكرّمة مصونة؛ لهذا جاء في الآية النص على من يرمون المحصنات، دون من يرمون الرجال المحصنين، وإن كان رمي الجنسين كلاهما محرّم وقذف، إلا أن تضرر المرأة العفيفة بالقذف أشد من تضرر الرجل كما هو معلوم.

(١) انظر: «ديوانه» ص ٢٥٦.

(٢) سبق تحريجه.

- ٥- إثبات الدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.
- ٦- شهادة الجوارح: الألسنة والأيدي والأرجل على الإنسان بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- ٧- في شهادة الجوارح على الإنسان بما عمل إجارة له من الظلم، ودليل على كمال عدل الله تعالى.
- ٨- تمام قدرة الله تعالى، حيث أنطق هذه الجوارح.
- ٩- في شهادة الجوارح على صاحبها، وقد كانت في الدنيا تدافع عنه دليل على إحقاق الحق، وقيام العدل في ذلك اليوم بأدق صورته.
- ١٠- عدم استطاعة الإنسان الاستتار بفعله؛ لأن جوارحه شهود عليه، مع شهادة الكرام الكاتبين، وإطلاع العليم الخبير.
- ١١- مجازاة الخلق على أعمالهم وحسابهم عليها بدقة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْقِفُهمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾.
- ولهذا يقول المجرمون إذا وضع الكتاب ﴿يَوَيْلَ لَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّرْتُكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].
- ١٢- في تلك العرصات يوم القيامة يظهر للخلائق تمام الظهور أن الله عز وجل هو الحق المبين، الحكم العدل، الذي لا يظلم أحد بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

قال الله تعالى: ﴿الْخَيْثُ الثُّ لِّلْخَيْثِيْنَ وَالْخَيْثُ ثُ لِّلْخَيْثِيَّتِ وَالطَّيْبُ الثُّ لِّلطَّيْبِيْنَ وَالطَّيْبُ ثُ لِّلطَّيْبِيَّتِ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿الْخَيْثُ الثُّ لِّلْخَيْثِيْنَ وَالْخَيْثُ ثُ لِّلْخَيْثِيَّتِ وَالطَّيْبُ الثُّ لِّلطَّيْبِيْنَ وَالطَّيْبُ ثُ لِّلطَّيْبِيَّتِ﴾. الخيث والطيب من الأوصاف المتضادة، فيقال: الخيث للحرام والرديء والنجس، ويقال: الطيب للحلال والجيد والطاهر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيْبِ﴾ [النساء: ٢] فسر الخيث بالحرام والرديء، وفسر الطيب بالحلال والجيد.

وقال تعالى: ﴿وَيُحَدِّثُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهُمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، أي: ولا تقصدوا الرديء منه تنفقون.

والخيث والطيب من الأوصاف التي قد توصف بها الأقوال والأعمال والأعيان والأشخاص والمعتقدات وغير ذلك.

فالقول منه الطيب والخيث، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وفي الحديث: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(١). والعمل منه الطيب والخيث، قال تعالى: ﴿وَنَجِّنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٨، ومسلم في الزهد والرفائق ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والرجس: النجس والخبيث.

وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(١).

وهذا يشمل الطيب من الأقوال والأعمال والأعيان أيضاً وغير ذلك.

والأعيان: منها الطيب والخبيث.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَأَلْبَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

وَأَلَّذِي خَبَثٌ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقال تعالى ﴿وَمَسَكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ﴾

[التوبة: ٧٢]، و[الصف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

والأشخاص منهم الطيب والخبيث، فال مؤمن طيب طاهر، والكافر خبيث نجس،

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل

عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوَدِّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والنجس: الخبيث.

قال الراغب^(٢) في تعريف الخبيث: «وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في

المقال والقبیح في الفعال».

وقال في تعريف الطيب: «والطيب: ما تستلذه الحواس وتستلذه النفس، والطعام

الطيب في الشرع ما كان مباحاً، وفي حدود ما جاء في الشرع والطيب من الإنسان من تعرى

من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال».

ولهذا فإن قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ

الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] يشمل كل ما يمكن وصفه بالخبيث والطيب، أي: لا يستوي

الخبيث أياً كان من قول أو عمل أو عين أو شخص أو غير ذلك بالطيب أياً كان.

وبناء على هذا فإن قوله هنا: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٥، والترمذي في التفسير ٢٩٨٩ والدارمي في الرقاق ٢٧١٧ - من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «المفردات» مادة «خبث»، ومادة «طيب».

لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴿١﴾ يحتمل أن المراد به: أن الزانيات من النساء للزناة من الرجال، وأن الزناة من الرجال للزانيات من النساء، واللام للاستحقاق، أي: فهن لهم وهم لهم شرعاً واستحقاقاً.

والطيبات العفيفات من النساء للطيبين العفيفين من الرجال، و«الطيبون» العفيفون من الرجال «للطيبات» العفيفات من النساء، أي: فهن لهم وهم لهم شرعاً واستحقاقاً.

فالمراد بالخبث على هذا القول الزنى، وهو الوصف الذي لا يمكن أن ينسب لزوجات الأنبياء عليهم السلام؛ كما جاء في الأثر: «وما زنت امرأة نبي قط». بخلاف ما عدا الزنى من الأوصاف الخبيثة؛ فقد كانت امرأة نوح ولوط عليهما السلام كافرتين.

والمراد بالطيب على هذا القول: العفاف.

فعلى هذا فالمراد بالخبيثات: الزانيات من النساء، والمراد بالخبيثين: الزناة من الرجال، والمراد بالطيبات: العفيفات من النساء، والمراد بالطيبين: العفيفون من الرجال.

وفي هذا تأكيد لبراءة عائشة - رضي الله عنها - وأن الله عز وجل لم يكن ليختار لأفضل الخلق وأطيبهم وسيد الأولين والآخرين إلا أفضل وأطيب وأطهر وأعف نساء العالمين، ومنهن عائشة الطاهرة المطهرة وسيدة نساء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن كثير^(١): «أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً، ولا قدرًا».

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾، أي: «الخبيثات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات كالفواحش من الزنا وقذف المحصنات والخوض في الكلام الباطل «للخبيثين» من الرجال والنساء وهم أهل الفحش فعلاً وقولاً وأخلاقاً وصفاتٍ و«الخبيثون» من الرجال والنساء «للخبيثات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، فهن لهم، وهم لهم يصدرن منهم ويلقن بهم ويوصفون بهن، ومن ذلك رمي المحصنات

(١) في «تفسيره» ٣٥/٦.

الغافلات المؤمنات بالزنا، وغير ذلك.

و«الطيبات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، وهي الصالحات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، من الصلاة والزكاة والصيام وذكر الله عز وجل والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس وحسن السمات وحسن الخلق وغير ذلك «للطيبين» من الرجال والنساء وهم المؤمنون المتقون. و«الطيبون» من الرجال والنساء وهم المؤمنون المتقون «للطيبات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات^(١) فهن لهم وهم لمن يصدرن منهم ويلقن بهم ويوصفون بهن.

ولا مانع من حمل الآية على القولين بحيث يحمل الخبث والطيب على خبث الأشخاص وطيبهم، وخبث العمل والقول والخلق والصفات وطيبها قال ابن القيم^(٢) بعد أن ذكر القولين: «وهي تعم ذلك وغيره، فالكلمات، والأعمال، والنساء الطيبات لمناسبتها من الطيبين، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبتها من الخبيثين». وقدم ذكر الخبيثات والخبيثين - والله أعلم؛ لأن السياق في إثبات براءة عائشة - رضي الله عنها - والرد على أهل الإفك وغيرهم من قذفة المحصنات الغافلات المؤمنات، وبيان حكم ذلك وشناعته والوعيد عليه.

وفي قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ إطناب وتوكيد وحصر.

ففي عطف قوله: ﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ وقوله: ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ على ما قبلها إطناب وتوكيد لذلك.

كما أن في الجمل الأربع لفظها ومفهومها توكيداً وحصرًا وبيان أن لكل صنف خبيثاً كان أو طيباً قرينه الذي يستحقه ويليق به شرعاً؛ لأن اللام في قوله: ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ وكذا ما بعدها للاستحقاق. وفي ذلك حصر من جهتين: حصر الخبيثات للخبيثين، وحصر الخبيثين للخبيثات، وحصر الطيبات للطيبين وحصر الطيبين للطيبات، بحيث

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/٢٣٢-٢٣٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢١١، «تفسير ابن كثير» ٦/٣٥.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٢٤٧.

لا تبقى خبيثة لطيب، ولا خبيث لطيبة، ولا تبقى طيبة لخبيث، ولا طيب لخبيثة^(١).
﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ الإشارة تعود إلى الذين رُموا بالإفك، وهم عائشة
وصفوان- رضي الله عنهما- ومن نالهم أذى ذلك وهم الرسول ﷺ وآل أبي بكر،
وغيرهم من المؤمنين ممن قد يُرمون بذلك، وهم الطيبون والطيبات المذكورون بقوله:
﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾؛ تنبيهاً على شرفهم وفضلهم وعلو منزلتهم
و﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ، و﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾: خبره، ومعنى: ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، أي:
أن الله برأهم، فهم أبرياء مما قيل فيهم، منزهون منه، و«من» في قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾
حرف جر، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: من الذي قاله أو يقوله أهل الإفك، أو
من قول أهل الإفك.

وفي قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ توهين لهذا القول وتضعيف له، وأنه مجرد قول لا حقيقة
له فهم بريئون بترثة الله عز وجل لهم من قول أهل الإفك فيهم. وهذا شهادة من الله
عز وجل ببراءة عائشة رضي الله عنها وكفى بها شهادة، فهو خير الشاهدين.
فبرأ عز وجل عائشة بنفسه، كما برأ يوسف عليه السلام على لسان صبي في المهدي،
وكما برأ مريم على لسان ابنها عيسى عليهما السلام^(٢).

وهم أيضاً بريئون مما يقوله أهل الإفك والكذب عموماً وأهل القذف بالباطل
للمحصنين والمحصنات، فليس بصحيح ما قيل فيهم، وليسوا ممن يرمون أهل العفة
والإحصان بالفاحشة، أو يخوضون في الباطل؛ ولهذا قال تعالى:

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة
عليه. والرزق: العطاء. والكريم: الكثير الواسع الحسن، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله
عنه: «وإياك وكرائم أموالهم»^(٣)، أي: خيارها وحسنها.

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٠٦.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢١٢، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٤٠٥، «تفسير سورة النور»
للشنقيطي ص ٨١.

(٣) سبق تخريجه.

أي: لهم خاصة من الله عز وجل ستر لذنوبهم عن الخلق وتجاوز منه عن عقوبتهم عليها، وعطاء منه عز وجل لهم واسع حسن كثير في الدنيا، وفي الآخرة في جنات النعيم بسبب ما قيل فيهم من الكذب، وما حصل لهم من الأذى، فصبروا عليه، وبسبب بعدهم عن قول الإفك في غيرهم وعن الخوض بالباطل.

قال ابن كثير^(١): «وفيه وعد بأن تكون زوج النبي ﷺ في الجنة» يعني: عائشة- رضي الله عنها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات حكمة الله تعالى في الأحكام الشرعية والقدرية؛ حيث جعل الأشياء متناسبة؛ كل شيء له ما يناسبه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَحْسُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصفات: ٢٢]، فالأماكن الطيبة العامرة بذكر الله مأوى الملائكة، والأماكن الخبيثة- كمواضع الأذى- مأوى الشيطان، والتفسس الطيبة يقترن بها الطيب، وتؤديها الملائكة، والتفسس الخبيثة يقترن بها الخبيث ويسلط عليها قرينها من الشياطين، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآية.

٢- أن الخبيثات الزانيات من النساء للخبيثين الزناة من الرجال، وأن الخبيثين الزناة من الرجال للخبيثات الزانيات من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

٣- أن الطيبات العفيفات من النساء للطيبين العفيفين من الرجال، وأن الطيبين العفيفين من الرجال للطيبات العفيفات من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ فلا يجوز تزويج عفيفة بزنان، ولا تزويج عفيف بزانية.

٤- توكيد براءة عائشة رضي الله عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾؛ لأن رسول الله ﷺ أطيب الطيبين، وعائشة أفضل نساء الأنبياء وسيدتهن رضي الله عنها وعنهن أجمعين.

٥- أنه لا يجوز تزويج الطيبين من الرجال بالخبيثات من النساء، ولا تزويج الطيبات من

(١) في «تفسيره» ٣٥/٦.

النساء بالخبِيثين من الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

وقال تعالى في أول السورة: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

٦- أن الخبيثات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات للخبِيثين من الرجال والنساء، وأن الخبيثين من الرجال والنساء للخبِيثات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

٧- أن الطيبات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات للطيبين من الرجال والنساء، وأن الطيبين من الرجال والنساء للطيبات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

٨- أن الخبيث لا يلتقي مع الطيب، وأن الطيب لا يلتقي مع الخبيث بحال، لأن الله جعل أهل الخبث بعضهم لبعض، وجعل الطيبين بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وأن كل صنف يلتقي مع نظيره وقرينه، ويلتئم معه، ويطمئن إليه، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(١).

وروي عن عمر - رضي الله عنه - قال: «نزلنا الكوفة ليل، فنزل الأخير على الأخير، ونزل الأشرار على الأشرار». وفي المثل: «الطيور على آلافها تقع»^(٢).

٩- وجوب تنزيل الناس منازلهم، فلا يوصف الطيب بالخبِيث، ولا الخبيث بالطيب.
١٠- تبرئة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وأهل بيته ﷺ مما قال أهل الإفك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا قُولُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء - الأرواح جنود مجندة ٣٣٥٣، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في البر والصلة والآداب - الأرواح جنود مجندة ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤.

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» للنيسابوري ١/ ٤٤٢، «الأمثال المولدة» للخوارزمي ص ١٢٨.

قال ابن كثير^(١): «وهو عز وجل لا يقدر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك - يعني الفاحشة - حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة».

١١ - دفاع الله تعالى عن رسوله ﷺ وعن المؤمنين عموماً.

١٢ - بُعد الطيبين والطيبات عن الخوض في الباطل وعن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

١٣ - وعد الله عز وجل للطيبين والطيبات البعيدين عن الفواحش، وعن قول الإفك، وعن قذف المحصنين والمحصنات، وقول الباطل بالمغفرة والرزق الواسع الحسن في الجنة، وفي مقدمتهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

* * *

(١) في «تفسيره» ٢٨/٦.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّمَا نَزَّحُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آزِجُوا فَأَزِجُوا هُرَّازِكِي لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة، من أول السورة إلى ما قبل هذه الآيات حد الزنا والقذف وأحكامهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بالاستئذان عند دخول بيوت الغير، وذلك كله حفاظاً على الأعراض، وصيانة لها، وذلك أن الاستئذان من أسباب الوقاية من الاطلاع على ما لا يجوز والنظر إلى العورات، وما قد يؤدي إليه ذلك من الوقوع في الفاحشة، أو القذف وذكر عورات الآخرين.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ «لا» ناهية، ﴿بُيُوتًا﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وورش

وحفص عن عاصم بضم الباء هنا وفي قوله ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ وفي جميع القرآن.

وقرأ الباقون بكسرها (١).

و«بُيُوتًا»: جمع بيت، والبيت في الأصل ما له أعمدة. ومنه سمي البيت الحرام.

﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، أي: بيوت غيركم، أي البيوت التي يسكنها غيركم، سواء

كان الساكن في هذه البيوت مالكا لها أو مستأجرا.

ويفهم من ذلك أن دخول بيوتهم ليس بحاجة إلى ما ذكر من الاستئناس والسلام،

وسياتي بيان حكم ذلك في آخر السورة.

﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ حتى: لانتهاه الغاية، والمعنى: حتى تستأذنوا، أي: تطلبوا

الإذن بالدخول، وتعلموا بأنه قد أذن لكم، كأن يقول من يريد الدخول: أَدْخِلْ

ونحوه، ويجاب إلى ذلك، وبأي عبارة أو وسيلة حصل الاستئذان كفى ذلك كدق

الباب ونحو ذلك^(١).

وسُمي الاستئذان: استئناسًا؛ لأن الطارق قبل أن يؤذن له كالمستوحش، فإذا استأذن واستعلم واستكشف، وأذن له بالدخول أنس وزالت عنه الوحشة. والدليل على أن المراد بالاستئناس: الاستئذان والاستعلام قوله بعد هذا: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾^(٢).

وكذا قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا»^(٣). وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ: «حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها»، ويقول: «تستأنسوا» وهم من الكاتب، أو يقول: «أخطأ الكاتب»^(٤)، فهذا إن صح عن ابن عباس رضي الله عنهما فإن الذي يؤخذ منه أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرأها: «حتى تستأذنوا» كقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه، وهي تفسر قراءة: «حتى تستأنسوا».

أما قول ابن عباس رضي الله عنهما: «وهم من الكاتب أو أخطأ الكاتب» فهذا في صحة نسبه لابن عباس نظر، ولو صح فهو مردود بإجماع الأمة قاطبة على أن ما بين دفتي المصحف هو مما أنزله الله عز وجل بلا نقص ولا تغيير ولا تبديل؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد فند صحة هذه المقالة عن ابن عباس وردها جمع من أهل العلم منهم ابن العربي والقرطبي وأبو حيان والشنقيطي وغيرهم^(٥).

(١) كما في حديث جابر - رضي الله عنه - وسيأتي.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/٢٤١ - ٢٤٢، ٢٤٥ - ٢٤٦، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/١٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢١٣ - ٢١٤، «تفسير ابن كثير» ٦/٣٦، ٣٨، «أضواء البيان» ٦/١٦٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٤١، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٨٨٠٠.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٣٩ - ٢٤٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/٢٥٦٦، والحاكم ٢/٣٩٦.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/١٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢١٤، «البحر المحيط» ٦/٤٤٥، «أضواء البيان» ٦/١٦٨.

﴿وَتَسَلَّمُوا عَلَىٰ آهْلِهَا﴾ بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
قال الطبري^(١): «وهو من المقدم الذي معناه التأخير إنها هو: حتى تسلموا
وتستأذنوا».

وقال ابن كثير^(٢): «فيستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده»
لكن ليس في الآية ما يدل على أن الأولى تقديم الاستئذان على السلام؛ لأن الواو
تقتضي الجمع ولا تقتضي الترتيب، فيجوز عطف الأول على الأخير بالواو كقوله تعالى:
﴿يَمْرِيئُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، والركوع قبل
السجود، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]
فالواو إذا تجردت من القرائن والأدلة الخارجية لا تقتضي إلا مطلق الجمع
والتشريك، وقد تقتضي الترتيب إذا دلت القرائن أو الأدلة على ذلك، كما في قوله تعالى:
﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقد قال ﷺ في الحديث: «ابدأ بها بدأ الله به»^(٣).
وقد دلت السنة على تقديم السلام على الاستئذان، فعن كلدة بن حنبل - رضي الله
عنه - قال: دخلت على النبي ﷺ، ولم أسلم، ولم استأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل:
السلام عليكم أدخل»^(٤).

وعن ربعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيته،
فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعلمه الاستئذان، فقل له: قل:
السلام عليكم، أدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أدخل؟ فأذن له النبي

(١) في «جامع البيان» ١٧/٢٤٦.

(٢) في «تفسيره» ٦/٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٦، ومسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٩٠٥، والنسائي في
مناسك الحج ٢٩٦١، والترمذي في الحج ٨٦٢، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٤ - من حديث جابر
رضي الله عنه.(٤) أخرجه أبو داود في الاستئذان - كيف الاستئذان ٥١٧٦، والترمذي في الاستئذان - التسليم قبل
الاستئذان ٢٧١٠، وأحمد ٣/٤١٤، وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الألباني.

ﷺ فدخل»^(١).

وعن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «ألج - أو أنلج؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها: روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟» فسمعها الرجل، فقالها، فدخل». ^(٢)
وعن خالد بن إياس قال: حدثني جدي أم إياس قالت: «كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة، فقلت: ندخل؟ قالت: لا، قلن لصاحبتكن تستأذن، فقالت: السلام عليكم، أندخل؟ قالت: ادخلوا؟ ثم قالت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾»^(٣).

وعن ثابت عن أنس بن مالك، أو غيره: أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد ابن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله. ولم يُسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك، ومن البركة. ثم أدخله البيت، فقرب إليه زبيباً، فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون»^(٤).

وقد روي هذا الحديث عن قيس بن سعد بن عبادة بأطول من هذا.

فعن قيس بن سعد بن عبادة - رضي الله عنه - قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردّاً خفياً، قال قيس: فقلت: ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: ذره يكتر علينا من السلام. فقال رسول الله ﷺ: «السلام

(١) أخرجه أبو داود في الموضوع السابق ٥١٧٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧ / ٢٤١ - ٢٤٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨ / ٢٥٦٩، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦ / ٤٠.

(٤) أخرجه أحمد ٣ / ١٣٨ وأخرجه أبو داود في الأظعمة ٣٨٥٤ مختصراً عن أنس أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة، فجاء بخبز وزيت فأكل، ثم قال النبي ﷺ: «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة»، وصححه الألباني.

عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردًا خفيًا، ثم قال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله» ثم رجع رسول الله ﷺ، واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، إني كنت أسمع تسليمك، وأرد عليك ردًا خفيًا، لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ، فأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله ملحفةً مصبوغة بزعفران - أو ورس - فاشتمل بها، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه، وهو يقول: «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عباد» قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام. فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارًا قد وطأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ فقال سعد: يا قيس اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «اركب» فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف» قال: فانصرفت^(١).

والاستئذان ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف؛ لما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «أنه استأذن على عمر ثلاثًا فلم يؤذن له، ثم انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال ما رجعتك؟ قال: إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف» فقال: لتأتين على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضربًا. فذهب إلى ملائ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري، فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق»^(٢).

والحكمة - والله أعلم - في كون الاستئذان ثلاثًا: أن صاحب البيت قد لا يسمع في الأولى فيسمع في الثانية أو الثالثة.

وعن قتادة قال في قوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: «هو الاستئذان ثلاثًا من لم يؤذن له فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن

(١) أخرجه أبو داود في «الأدب» كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان ٥١٨٥، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٤٦٦. ونسبه ابن كثير أيضًا إلى النسائي انظر: «تفسير ابن كثير» ٣٦/٦ وقال بعد سياق الحديث: «وقد روي من وجه آخر فهو حديث جيد قوي» وقال الألباني: «ضعيف الإسناد».

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان - التسليم والاستئذان ثلاثًا ٢٠٦٢، ومسلم في الآداب - الاستئذان ٢١٥٤، وأبو داود في الأدب ٥١٨١.

شأؤوا أذنوا، وإن شأؤوا ردوا. ولا تقفن على باب قوم ردوك عن باهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعدر»^(١).

والمقصود أن المستأذن إن أذن له في الأولى، أو الثانية، أو الثالثة دخل، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة فلينصرف، لكن لا يلزم إذا أذن له في المرة الأولى، أن يستأذن ثانية وثالثة. فإن استأذن ثلاثاً وعلم أنهم سمعوه، أو غلب على ظنه لا ينبغي أن يزيد على الثلاث وإن علم أنهم لم يسمعه أو غلب على ظنه نظراً لكبر المنزل، ونحو ذلك فليلبس له أن يزيد على الثلاث^(٢).

والأظهر - والله أعلم - أن له أن يزيد على الثلاث؛ لأن المقصود بالاستئذان إسماع أهل البيت صوت المستأذن، ولهذا قال في الحديث: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له» فقوله: «فلم يؤذن له»، أي: بعد سماعهم لاستئذانه، فإذا لم يسمعه، فكأنه لم يستأذن وإنما حدده الشرع بثلاث؛ لأن الغالب - والله أعلم - أن الثلاث كافية لإسماع أهل البيت وبخاصة إذا كان البيت صغيراً كبيوت الصحابة - رضي الله عنهم - آنذاك. لئلا يخرج أهل البيت ويضايقهم ويزعجهم. أما إذا لم يسمعه فلا بأس بالزيادة على الثلاث؛ لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا.

وأيضاً فإن من كمال الاستئذان أن يُعرّف المستأذن أهل البيت بنفسه، بقوله: أنا فلان ونحو ذلك؛ لأن لأهل البيت أن يأذنوا لمن شأؤوا ويمنعوا من شأؤوا، وقد يرغبون بدخول أحد دون أحد، وعلى هذا دلت السنة.

فعن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنه - قال: «أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا؟» قلت أنا. قال: «أنا، أنا» كأنه كرهه»^(٣).
كما أن من آداب الاستئذان عدم وقوف المستأذن أمام الباب بحيث إذا فتح الباب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٥٦٦/٨ - الأثر ١٤٣٤٧. والبيهقي في «شعب الإيمان» ٣٩/٥. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤١/٦.

(٢) انظر: «أضواء البيان» ١٧٥/٦ - ١٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان - باب: إذا قال: من ذا؟ قال: أنا ٦٢٥٠، ومسلم في الآداب - كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل له: من هذا؟ ٢١٥٥، وأبو داود في الأدب - الرجل يستأذن بالدق ٥١٨٧، وابن ماجه في الأدب ٣٧٠٩، وأحمد ٣/٣٦٣. وانظر: «تفسير ابن كثير» ٣٨/٦.

يطلع على ما بداخل البيت.

فعن عبد الله بن بسر - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور»^(١).

وعن هزيل قال جاء رجل، وعن عثمان بن أبي شيبة قال: سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب - قال عثمان: مستقبل الباب، فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك - أو: هكذا - فإنما الاستئذان من النظر»^(٢).

وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - : أن رجلاً اطلع من جحر في دار النبي ﷺ، والنبي ﷺ يحك رأسه بالمدري^(٣) فقال: «لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينك، إنما جعل الإذن من قبل الأبصار» وفي رواية: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»^(٤).
وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح»^(٥).

كما أن من آداب الاستئذان أن يكون في وقت مناسب، فلا يكون في وقت الصلاة ولا في وقت النوم في الليل أو في الظهر، ولا في وقت الغداء أو العشاء ونحو ذلك. فهذا الذي ينبغي عند دخول بيوت الآخرين: السلام والاستئذان. أما عند دخول الإنسان على أهل بيته، من والدين وزوجة وأولاد وغيرهم فإنه يسن أن يشعرهم بدخوله، بما يدل على ذلك من قول أو فعل أو كليهما؛ لئلا يقع نظره على عوراتهم.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عباس: «أستأذن على أخواتي أيتام في

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان ٥١٨٦ وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب - باب في الاستئذان ٥١٧٤، ٥١٧٥، وصححه الألباني.

(٣) المدري: آلة يحك بها الرأس.

(٤) أخرجه البخاري في اللباس ٥٩٢٤، ومسلم في الآداب ٢١٥٦، والنسائي في القسامة ٤٨٥٩، والترمذي في الاستئذان ٢٠٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في الديات - من اطلع في بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ٦٨٨٨، ومسلم في الآداب - تحريم النظر في بيت غيره ٢١٥٨، وأبو داود في الأدب ٥١٧٢، والنسائي في القسامة ٤٨٦١.

حجري، معي في بيت واحد؟ قال: نعم فرددت ليرخص لي، فأبى. قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعتة أيضاً، فقال أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «عليكم الإذن على أمهاتكم»^(٢).
وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وعنهما- قالت: «كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه»^(٣).
وعن أبي عبيدة قال: «كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم، ورفع صوته»^(٤).

وعن الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- أنه قال: «إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه»^(٥).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً»، وفي رواية: «يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم»^(٦).
وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل، فقال: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً، أي: عشاء كي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة»^(٧).

ولا منافاة بين هذين الحديثين وما جاء في معناه من الأحاديث فالنهي فيها لمن طال سفره أن يباغت أهله في الدخول ليلاً وأما قوله ﷺ: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً أو عشاء»

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٤٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٤٠.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٤٥، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٤٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٤٥، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/٤١ «إسناد صحيح».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/٢٥٦٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٤١.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٤١.

(٦) أخرجه البخاري في العمرة ١٨٠١، ومسلم في الإمارة- كراهية الطروق وهو الدخول ليلاً- لمن ورد من سفره

٧١، وأبو داود في الجهاد ٢٧٧٦، والترمذي في الاستئذان- كراهية طروق الرجل أهله ليلاً ٢٧١٢.

(٧) أخرجه البخاري في النكاح- باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة ٥٠٧٩، ومسلم في الإمارة- كراهية

الطروق- ٧١٥.

فهذا بعد قدومهم نهراً: فأمرهم بالانتظار ليلبغ خبر قدومهم أهلهم ويستعدوا لهم^(١). ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الإشارة إلى عدم دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئناس والسلام أي: الاستئذان والسلام خير لكم أيها المؤمنون من الهجوم على البيوت دون استئذان وسلام، فالاستئذان والسلام خير للمستأذن ولأهل البيت، لما يترتب على الاستئذان والسلام من مصالح دينية ودنيوية، ولما يترتب على تركها من مفساد دينية ودنيوية. وقوله: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ اسم تفضيل مقصود به تحقيق الوصف أي: أن الخير في الاستئذان والسلام، لا في الدخول دون ذلك.

وليس معنى ذلك أن في الدخول بلا استئذان وبلا سلام شيئاً من الخير، بل إن الاستئذان واجب، والدخول بلا استئذان لا يجوز؛ والتفضيل قد يكون بين طرفين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] أي: هو العدل، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَالِيهِ﴾ [الروم: ٢٧]، أي: هو هين عليه سبحانه وتعالى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تتذكروا وتتعظوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨).

قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ الفاء: عاطفة أي: فإن لم تجدوا في بيوت الغير أحداً منهم يأذن لكم بالدخول، أو لم يجبكم أحد.

﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والنهي هنا للتحريم فلا يجوز دخول بيوت الغير حتى في حال غيابهم إلا بإذنه، لما في ذلك من التصرف في ملك الغير بغير إذنه.

﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، أي: حتى يؤذن لكم بالدخول بأن يحضر أهل البيت بعد غيابهم، فيأذنوا لكم.

(١) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي ١٣/٧١-٧٢، «فتح الباري» ٩/١٢٣.

﴿وَأَنْ قِيلَ لَكُمْ﴾، أي: وإن قيل لكم من قبل أهل البيت: ﴿أَتَجِئُوا﴾، ولم يأذنوا لكم بالدخول

قال ابن كثير^(١): «أي: إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده»
﴿فَأَتَجِئُوا﴾، أي: عودوا، وانصرفوا من حيث جئتم، ولا تقفوا على أبواب الناس، والأمر هنا للوجوب، فإذا استأذنوا ثلاثاً، ولم يؤذن لهم وجب عليهم الرجوع والانصراف، وعلى هذا دلت السنة - كما سبق.

بل إن في قوله: ﴿وَأَنْ قِيلَ لَكُمْ﴾ بالبناء للمفعول ما يدل على أن على المستأذن الرجوع بمجرد سماعه من داخل البيت من يقول: ارجع أيًا كان القائل سواء كان ممن له حق الإذن أم لا.

والمعنى: فارجعوا من غير إلحاح، ولا مضايقة لأهل البيت، مع سلامة الصدور، وتقدير ظروف أهل البيت، والتماس العذر لهم، كما قال قتادة: «ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات، ولهم أشغال، والله أولى بالعذر»^(٢).

فإن من الناس من إذا استأذن على أحد، ولم يؤذن له غضب وأرعد وأزبد، وتكلم في أهل البيت، وربما اتهمهم بأنهم يكرهونه، أو بما هو أسوأ من ذلك.

﴿هُوَ﴾، أي: رجوعكم ﴿أَزَكَّى لَكُمْ﴾، «أزكى»: أفعل تفضيل، وهو هنا لتحقيق الوصف، وليس فيه ما يدل على أن في عدم رجوعهم شيئاً من الزكاء.

ومعنى ﴿هُوَ أَزَكَّى لَكُمْ﴾، أي: رجوعكم أظهر لكم أي: أظهر لقلوبكم وأعمالكم، وأعظم لثوابكم، وأكثر خيراً وبركة لكم، لما في ذلك من طاعة الله عز وجل وعدم مضايقة أهل البيت؛ ولأن الخيرة فيما يختاره الله عز وجل.

قال قتادة: «قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: «ارجع» فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ قِيلَ لَكُمْ أَتَجِئُوا فَاَتَجِئُوا هُوَ أَزَكَّى لَكُمْ﴾»^(٣).

(١) في «تفسيره» ٤٢/٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٤٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤٢/٦.

وكما أن على المستأذن الرجوع، إذا لم يؤذن له مع سلامة الصدر على أهل البيت، وحسن الظن بهم، وتقدير ظروفهم، والتماس العذر لهم، فإن على أهل البيت وهم المستأذن عليهم تقدير ظرف المستأذن، وتطبيب خاطره، والإذن له ما أمكن ذلك، فإن ذلك لا شك أسلم للصدور، وأقرب للمودة والألفة، وأبعد عن الكراهة والجفوة، فإن للشيطان مداخلة ووساوسه بين الناس. وقد يكون هذا المستأذن جاء من بعد، أو لصلة قرابة، أو صداقة أو حاجة ملحة ونحو ذلك.

والخلاصة أنه ينبغي على المستأذن مراعاة الآداب التي دل عليها الكتاب والسنة، والحكمة فيها.

كما أن على المستأذن عليه مراعاة حقوق المستأذن، وعلى كل منهما التسامح مع الآخر، والعفو عما قد يحصل منه من تقصير، وحسن الظن به والتماس العذر له. وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجايه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه^(١)

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ «ما» مصدرية أو موصولة، أي: والله بعملكم، أو بالذي تعملون عليم، أي: وهو عليم بجميع أعمالكم؛ باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليلها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها.

وفي هذا وعد ووعد، وعد لمن امتثل أمر الله عز وجل بالاستئذان وغيره، ووعد لمن خالف أمر الله بترك الاستئذان وغيره.

و﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن «فعليل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة علم الله عز وجل وإحاطته بالأشياء كلها، في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ولما سئل موسى - عليه السلام - عن القرون الأولى قال: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

(١) البيت ليزيد بن محمد المهلبى. انظر: «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي ص ٩٣، «زهر الآداب» للحصري ٥٥ / ١، «نهاية الأرب» للنويري ٩٤ / ٣.

بُدُّوتٌ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾.

بعد ما نهى الله عز وجل في الآيتين السابقتين عن دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئذان، يَبَيِّنُ في هذه الآية أنه لا حرج في دخول البيوت التي تكون غير مسكونة، كأنها مشاعة، إذا كان لهم فيها متاع بغير إذن، فكأن هذه الآية استثناء من الآية قبلها. قال ابن كثير^(١): «هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت، التي ليس فيها أحد، إذا كان له فيها متاع بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أذن فيه أول مرة كفى».

سبب النزول:

قال الواحدي^(٢): «قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله أفرأيت الخانات والمسكن في طرق الشام ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾، الآية».

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، أي: ليس عليكم حرج ولا إثم، ولا تضيق. ﴿أَنْ تَدْخُلُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، والتقدير: ليس عليكم جناح في دخول بيوت غير مسكونة. وذلك لزوال المحذور. ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، أي: ليس فيها ساكن.

﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾، أي: فدخلكم فيها لأجل المتاع، وليس لغير حاجة، والمراد بالمتاع هنا: المتعة، والتمتع فيها، وذلك بالاستكنان فيها من الحر والبرد والرياح والمطر ونحو ذلك.

وقيل المراد بالمتاع ما يتمتع به ويتنفع به من مطعم أو مشرب أو ملبس أو فراش أو غير ذلك من الأثاث وغيره.

لكن الأظهر أن المراد بالمتاع التمتع بالنزول فيها، والاستكنان من الحر والبرد

(١) في «تفسيره» ٤٢/٦.

(٢) في «أسباب النزول» ص ٢١٩.

والرياح والمطر، والاستراحة فيها لأكل أو نوم ونحو ذلك^(١).
ولا منافاة بين المعنيين لو حملت الآية عليها معاً. وكل ذلك يسمى متاعاً؛ لأن
الإنسان يتمتع به، أي: ينتفع وقتاً قد يطول أو يقصر، ثم ينتهي بزوال هذا المتاع
وانتهائه، أو بزوال الإنسان وفنائه. والبقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال
تعالى عن الدنيا كلها: ﴿مَتَعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧]، [النحل: ١١٧].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

«ما» موصولة، أي: والله يعلم الذي تظهرون، والذي تخفون وتبطنون.
وقد تكون مصدرية، أي: والله يعلم إبداءكم، وكتمانكم، أي: إظهاركم، وإخفاءكم.
كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].
فهو عز وجل يعلم ما يظهره الخلق من الأقوال والأفعال وما يكتُمونه من ذلك
وغيره، وعلمه عز وجل بما يُسر كعلمه بما يُبدي ويُظهر؛ لأن السر والعلانية عنده سواء.

قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى:
﴿وَأِنْ نَجَّهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧].
وفي الآية وعد ووعد، فمن علمه عز وجل بما يظهره العباد وما يخفونه، أنه
سيحاسبهم على أعمالهم الظاهرة والخفية، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.
ولا يظلم ربك أحداً.

فهذه الآية أظهر في الشمول وأشد في التوكيد وأعظم في الوعد والوعيد من قوله
في الآية السابقة: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّ﴾.
- ٢- تشریف المؤمنين وتكريمهم بندايمهم بوصف الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا﴾، وفيه حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما جاء بعده من
الطلب أمراً كان أو نهياً، أو كليهما يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٢١.

يعد نقصاً في الإيمان.

٣- عدم جواز دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئذان والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾؛ حرمة لحقوق الآخرين وممتلكاتهم وأحوالهم وأسرارهم، ونحو ذلك.

عن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ قال: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنه فقد حل لهم أن يفتقروا عينه»^(١).

وفي رواية: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففتقروا عينه فلا دية ولا قصاص»^(٢).

فمن أراد دخول بيوت الغير وجب عليه الاستئذان.

٤- إذا استأذن الطارق على أهل البيت فأذنوا له جاز له الدخول، وجعل بعض أهل العلم مثل هذا في الحكم ما لو أرسل رسولاً لأحد يدعو للحضور إلى بيته، فهذا بمثابة الإذن له؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه»^(٣).

وهذا محمول قطعاً على حال لا يحتاج معها إلى الاستئذان، كأن يكون المدعو في مكان قريب، أو ضمن أناس ربا كانوا وقوفاً على الباب ونحو ذلك. ولا يمكن أن يحمل الحديث على أن إرسال الرسول يكفي عن الإذن مطلقاً، حتى ولو طال الفصل، واختلف الوقت وتبدلت الأحوال، بل يجب الاستئذان على الرسول والمرسل إليه.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: دخلت مع رسول الله ﷺ، فوجد لبناً في قدح، فقال: «أبا هر، الحق أهل الصفة، فادعهم، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا،

(١) أخرجه البخاري في الديات ٦٨٨٨، ومسلم في الآداب ٢١٥٨، وأبو داود في الأدب ٥١٧٢، والنسائي في القسامة ٤٨٦٠.

(٢) أخرجه النسائي في القسامة ٤٨٦٠، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه ٥١٨٩.

وأخرجه البخاري- معلقاً- في الاستئذان- باب إذا دعي الرجل فجاء هل يستأذن. انظر: «فتح الباري»

فاستأذنوا، فأذن لهم فدخلوا»^(١).

- ٥- جواز دخول الناس بيوتهم بغير استئذان؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿عَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾.
- أما السلام فإنه يسن عند دخول بيوتهم وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكََةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].
- ٦- أن الاستئذان والسلام عند إرادة دخول بيوت الغير خير للمستأذن ولأهل البيت؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- وذلك لما فيه من احترام حقوق الآخرين، وعدم الاطلاع على أحوالهم إلا بإذنهم، إلى غير ذلك مما هو طاعة لله عز وجل، وسبب للألفة والمحبة بين المستأذن وأهل البيت، وامثال أمر الله واكتساب الأجر.
- بخلاف ما لو فاجأ القادم أهل البيت بلا استئذان، فإنه قد يطلع على عوراتهم، أو على شيء من أحوالهم، التي لا يريدون الاطلاع عليها، وربما ظن به إرادة الشر، كالسرقة، وهتك الأعراض، وغير ذلك. والسلامة لا يعدها شيء.
- ٧- أن الله عز وجل شرع الاستئذان والسلام عند دخول بيوت الغير لأجل التذکر والاعتاظ، والتأدب بأداب الشرع، واحترام حقوق الآخرين، وعدم الاطلاع على عوراتهم وأسرارهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.
- ٨- عدم جواز دخول بيوت الغير إذا لم يكن فيها أحد منهم، حتى يأذنوا بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.
- ٩- إذا لم يؤذن للمستأذن من قبل أهل البيت، أو قيل له ارجع وجب عليه الرجوع والانصراف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا﴾.
- ١٠- كما أن لأهل البيت أن يأذنوا لمن شاءوا، فلهم أن يردوا من شاءوا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا﴾.
- مع وجوب مراعاة حقوق القادم وحاجته ومشاعره، ما أمكن ذلك، فليس الأمر على إطلاقه.

(١) أخرجه البخاري في الموضوع السابق ٦٢٤٦.

- ١١- أن رجوع المستأذن إذا لم يؤذن له، وقيل له ارجع هو أظهر للمستأذن، ولأهل البيت، لقلوبهم وأعمالهم، وأعظم لثوابهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.
- ١٢- علم الله عز وجل التام المحيط بكل شيء من أعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء.
- ١٣- جواز دخول البيوت التي لا ساكن فيها، والتي فيها متاع للدخول بلا استئذان؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.
- ١٤- أن دخول البيوت حتى غير المسكونة ينبغي أن يكون لحاجة، كوجود متاع للدخول فيها ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.
- ١٥- علم الله عز وجل المحيط بما يظهره العباد، وما يخفونه ويبتغونه، وأنه عز وجل سيحاسبهم على ذلك ويمجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تُكْتُمُونَ﴾.
- ١٦- فيما شرعه الله عز وجل من أحكام الاستئذان وآدابه دليل على حرص الشرع المطهر، والدين الإسلامي الحنيف على حماية بيوت الآخرين وحقوقهم، وحفظ الأسرار والأحوال الخاصة بهم، وحرصه على أن تسود المحبة والألفة بين المسلمين، وعلى كل ما يقوي الروابط بين أفراد المجتمع، وصيانته عن كل ما يسبب التفكك بين أفرادها، ويوجد العداوة والبغضاء بينهم، والقضاء على تلك الأسباب في مهدها، بل قبل وجودها بما شرعه من أحكام وآداب، فيها لمن أخذ بها السعادة في الدنيا والآخرة. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيكَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْتِبَاعِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن دخول بيوت الغير دون استئذان، وذلك لئلا تقع أبصارهم وأسماعهم على ما لا يجب أهل البيت الاطلاع عليه، أو سماعه من أسرارهم وأحوالهم الخاصة وعوراتهم، وفي الحديث: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»^(١). ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين والمؤمنات عموماً بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأمر المؤمنات خاصة بعدم إبداء زينتهن وبالحجاب والتستر وذلك من أعظم الأسباب للبعد عن الفاحشة والسلامة منها، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: قل يا محمد للمؤمنين المصدقين المتقادين بقلوبهم وجوارحهم، ظاهراً وباطناً.

﴿بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الغض: القصر والنقص، وغض البصر بمعنى كفه ومنعه عن النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه، وذلك بخفضه إلى الأرض، أو صرفه يميناً وشمالاً. وأصل غض البصر: إرخاء الجفن على الجفن بحيث يضعف النظر قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً^(٢)
وقال عنترة^(٣):

(١) سبق تحريجه.

(٢) البيت لجرير يهجو الراعي النميري. انظر: «ديوانه» ٢ / ٨٢١ شرح محمد بن حبيب.

(٣) انظر: «شرح ديوان عنترة» للخطيب التبريزي ص ٢٥.

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها
وغض البصر: كفه عن النظر إلى المحرمات من النساء الأجنبية، والمردان من
الذكور، وغير ذلك من المحرمات، كالنظر إلى ما تبثه القنوات والفضائيات من أفلام
الدعارة والعري والفحش، ومن صور فعل الفواحش بين الجنسين أو بين الجنس
الواحد، أو بينها وبين الحيوانات، وغير ذلك مما قد يؤدي إلى الفتنة، حتى ولو كان
ذلك في الأصل مباحًا، كنظر المرأة إلى المرأة، والرجل إلى الرجل، والنظر إلى المملوك،
ونحو ذلك، فمتى أدى النظر إلى خوف الوقوع في الفتنة وجب غضه.
و«من» للتبعية، أي: يغضوا أبصارهم عما يجرم، ويقتصروا فيها على ما يحل، مما
شرع الله أو أباح النظر إليه، ومن ذلك النظر في آيات الله، ونظر الخاطب إلى مخطوبته،
ونحو ذلك^(١).

عن جرير بن عبد الله البجلي، قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني
أن أصرف بصري»^(٢).

وفي رواية لبعضهم: «أطرق بصرك»^(٣) يعني انظر إلى الأرض.
قال ابن كثير^(٤): «والصرف أعم، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى».
وعن سليمان بن بريدة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي، لا
تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»^(٥).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم
والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها. قال:
«فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها» قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٣٦، «تفسير ابن كثير» ٦/٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في الأدب- نظر الفجاءة ٢١٥٩، وأبو داود في النكاح- ما يؤمر به من غض البصر
٢١٤٨، والترمذي في الاستئذان- ما جاء في نظر الفجاءة ٢٧٧٦، وأحمد ٤/٣٦١.

(٣) ذكرها ابن كثير في «تفسيره» ٦/٤٣.

(٤) في «تفسيره» ٦/٤٣.

(٥) أخرجه أبو داود في النكاح- ما يؤمر به من غض البصر ٢١٤٩، والترمذي في الباب السابق ٢٧٧٧،
وقال: «غريب» وحسنه الألباني.

البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر»^(١).
وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا أؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم»^(٢).
وإنما أمر الله عز وجل بالغض من الأبصار، بل وقدم ذلك على الأمر بحفظ الفروج؛ لأن غض البصر من أعظم الوسائل لحفظ الفروج؛ ولأن النظر داعية إلى فساد القلب، وفي الأثر: «النظر سهم من سهام إبليس مسموم»^(٣).

فالنظر وإطلاق البصر هو أول وأعظم أسباب الفتنة والوقوع في المحرم، كما قيل:
ألم تر أن العين للقلب رائد
فما تألف العينان فالقلب آلف^(٤)
وكما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها
والمرء ما دام ذا عين يقلبها
يسر مقلته ما ضر مهجته
ومعظم النار من مستصغر الشرر
فك السهام بلا قوس ولا وتر
في أعين الغيد موقوف على الخطر
لا مرحباً بسرور عاد بالضرر^(٥)

ولهذا يحرم أن يجد الرجل نظره إلى الأورد إذا كان ذلك يسبب الافتتان به^(٦).
وما لهث لاهث وراء الفحش والجريمة إلا بسبب سعار النظر إلى الأجنبية، أو متابعة ما تبثه القنوات والمواقع من الفحش والعري، وهابط المسلسلات.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه

(١) أخرجه البخاري في المظالم - باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات ٢٤٦٥، ومسلم في اللباس - النهي عن الجلوس في الطرقات ٢١٢١، وأبو داود في الأدب ٤٨١٥.

(٢) أخرجه أبو القاسم البغوي فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٤٤/٦.

(٣) سيأتي بتامه وتخريجه قريباً.

(٤) البيت ينسب لمضرس الربيعي. انظر: «الحماسة البصرية» ٢/٢٠٣٣. وينسب لعبد الله أو عبيد الله بن

طاهر. انظر: «الدر الفريد» ٥/٦٥، ٦/١٧٧.

(٥) انظر: «التفسير القيم» ص ٦٢٤ - ٦٢٩.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٤٥.

من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(١).

وقد ذكر ابن تيمية - رحمه الله - أن حفظ البصر عن الصور التي نهي عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ثلاث فوائد جليلة: حلاوة الإيمان التي هي أحلى وأطيب مما تركه الله، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وثانيها: نور القلب وفراسته، وثالثها: قوة القلب وثباته وشجاعته^(٢).

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، أي: ويحفظوا فروجهم مطلقاً، من الفواحش كالزنا واللواط، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿المؤمنون: ٥-٧﴾، وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَنَفِظَاتِ ﴿الأحزاب: ٣٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿الإسراء: ٣٢﴾، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۗ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿الشعراء: ١٦٥-١٦٦﴾.

ويحفظوا فروجهم أيضاً من الاستمناة باليد ونحو ذلك، ومن مسها باليد لغير حاجة، ومن كشفها ينظر إليها بلا حاجة.

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك». فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «فإن استطعت ألا يراها أحد فافعل». قلت: الرجل يكون خالياً؟ قال: «فالله أحق أن يستحيا منه»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان - زنا الجوارح دون الفرج ٦٢٤٣، ومسلم في القدر - قدر على ابن آدم حظه من الزنا ٢٦٥٧، وأبو داود في النكاح ما يؤمر به من غض البصر ٢١٥٢، وأحمد ٢/٢٧٦، ٣٤٣.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٦٦-٤٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الحجام - ما جاء في التعري ٤٠١٧، والترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح - التستر عند الجماع ١٩٢٠، وأحمد ٣/٥، ٤ وقال الترمذي: «حديث حسن». وانظر: «تفسير ابن

وأمر هنا بحفظ الفروج مطلقاً، بينما أمر بالغض من الأبصار؛ لأن أمر النظر أوسع،
وأما أمر الفروج فمضيق.

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة للأمرين السابقين وهما غض الأبصار، وحفظ الفروج ﴿أَزْكَى﴾
﴿لَمْ﴾، أي: أظهر لهم. و«أزكى» أفعل تفضيل، وهو هنا لتحقيق الوصف، وهو
طهارتهم، إذ ليس في عدم غض الأبصار وعدم حفظ الفروج شيء من الفضل البتة.

والمعنى: أن غض الأبصار وحفظ الفروج أظهر لقلوبهم وأعمالهم، وأتقى لدينهم من
رجس ونجاسة الذنوب، فإن في البعد عن المنهيات، مع فعل الطاعات زكاة القلوب
والنفوس وطهرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وقد روي عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر
سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه خوفاً من الله آتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه» (١).
وقد قيل: «من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته أي: في قلبه» (٢).

قال السعدي (٣): «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن غض بصره أثار الله
بصيرته».

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، ﴿خَيْرٌ﴾ على وزن «فعليل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة،
يدل على سعة خبرته عز وجل واطلاعه على كل شيء؛ لأن الخبر هو المطلع على دقائق
الأمر وبواطنها وخفياتها، وإذا كان مطلعاً على الدقائق والبواطن والخفيات فاطلاعه
على الجلائل والظواهر والجليات من باب أولى.

«بما»: الباء حرف جر، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: إن الله خير بالذي
يصنعون، أو بصنعهم.

أي: إن الله عز وجل خير بعملهم وقولهم، مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية،

كثير» ٤٤/٦ وحسنه الألباني.

(١) أخرجه الطبراني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤٥/٦. وروي أيضاً من حديث حذيفة- رضي الله
عنه- انظر: «كشف الخفاء» ٤٥٥/٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٤٤/٦.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤٠٩/٥.

من غض الأبصار، وحفظ الفروج وعدمه، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ حَآيَةَ
الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

قال الشاعر^(١):

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

وفي الآية وعد لمن امتثلوا أمر الله عز وجل، فغضوا أبصارهم، وحفظوا فروجهم،
ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأنه عز وجل سيجازي كلاً بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً
فشر.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ
آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّلَبُّعِ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنَ
زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١).

قال ابن كثير^(٢): «هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيره منه لأزواجهن
عباده المؤمنين، وتمييزهن عن صفة نساء الجاهلية، وفعال الشركات».

قوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الواو: عاطفة، والأمر للنبي ﷺ.
و«المؤمنات»: المصدقات المنقادات لأمر الله. أي: وقل للنساء المؤمنات المصدقات
المنقادات لشرع الله باطناً وظاهراً.

وقدم قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الآية على قوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾
الآية، إشارة إلى فضل الذكور على الإناث، وأفرد النساء بخطاب خاص، فلم يقل: «قل
للمؤمنين والمؤمنات» عناية بغض الأبصار، وحفظ الفروج، وتأكيداً لوجوب ذلك.

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ٣٤.

(٢) في «تفسيره» ٤٦/٦.

وأفرد النساء بخطاب خاص أيضًا مع أنهن يدخلن في الخطاب العام للمؤمنين- غالبًا- للتوكيد على وجوب ذلك في حقهن، والإشارة إلى أهمية الأمر وخطورته بالنسبة لهن. و«من» في قوله: ﴿يَعْتَصِمْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ للتبويض كسابقتهما، أي: يعضن أبصارهن من النظر المحرم كالنظر إلى الرجال الأجانب، والنظر إلى صور الفجور والفحش والعري، مما يفعله من لا خلاق لهم من الرجال والنساء، وما يئثه دعاة الرذيلة والفساد في القنوات الفضائية وعبر الشاشات المدمرة.

فلا يجوز للنساء المؤمنات النظر إلى الرجال الأجانب، وتكرار النظر إليهم، وتحديد البصر فيهم، فإن ذلك من أعظم أسباب افتتانهم بالرجال. فإن كان النظر من المرأة بشهوة، فهذا محرم بدليل الآية والإجماع، وإن كان نظر المرأة إلى الرجال بغير شهوة فقد اختلف أهل العلم في هذا: فذهب الأكثرون منهم إلى أنه لا يجوز أن تنظر المرأة إلى الرجال الأجانب، حتى ولو كان بغير شهوة مستدلين بقوله: ﴿يَعْتَصِمْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾

وبما روت أم سلمة- رضي الله عنها- أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى، لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوعميا وان أنتما؟ ألستما تبصرانه»^(١).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى جواز نظر النساء إلى الرجال الأجانب إذا كان بغير شهوة لما ثبت في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «رأيت النبي ﷺ يسترني، وأنا أنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون في المسجد»^(٢).

وهذا هو الراجح- والله أعلم- ما لم يترتب على ذلك فتنة. والحقيقة أن نظر النساء إلى الرجال، ونظر الرجال إلى النساء غالبًا قد يكون سببًا

(١) أخرجه أبو داود في اللباس- باب قول الله- عز وجل: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْصِمْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ ٤١١٢ والترمذي في الأدب ٢٧٧٨ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٨٨ ومسلم في صلاة العيدين- الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ٨٩٢، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٩٥.

لافتتان كل منهما بالآخر، ولهذا فإن الفيصل في هذا كله - والله أعلم - في حكم نظر كل من الجنسين إلى الآخر هو قوله ﷺ: لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»^(١).

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الفواحش من الزنا والسحاق، وعن مسها، وكشفها لغير أزواجهن، وبلا حاجة.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتِنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [المتحنة: ١٢]. وفي الحديث: «إذا صلت المرأة خمسها، وحجت فرضها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها ادخلي مع أي أبواب الجنة شئت»^(٢).
﴿وَلَا يَبْدِيكَ زَيْنَهُنَّ﴾، أي: ولا يظهرن زينتهن للأجانب، والزينة في الأصل كل ما يتزين به، من الزينة الخلقية، كالوجه ونحوه، مما هو من نفس البدن، والزينة المكتسبة، من الثياب والحلي كالسوار في المعصم والخاتم في الأصبع والقرط في الأذن والخلخال في الساق، والكحل والخضاب^(٣)، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿أَوْ مَن يُنْشِئُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، أي: أو من ينشأ في الزينة، وقال تعالى: ﴿بَيْنِيْ وَآدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. والمعنى: ولا يظهرن زينتهن سواء كانت خلقية أو مكتسبة.

ويخصص بعضهم الزينة بما كان مكتسباً، والحقيقة أن أصل الزينة وأهمها الزينة الخلقية، وأهمها زينة الوجه؛ لأنه يجمع المحاسن، إضافة إلى الزينة المكتسبة.
﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، وهو الثياب الظاهرة، كالرداء والعباءة، وغير ذلك من الملابس

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٩١ - من حديث عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤/٣٠٦، وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح» ورجح أحمد شاكر أن في إسناد أحمد انقطاعاً.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/٢٥٦، «الكشاف» ٣/٦١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٢٩.

الظاهرة، وما ظهر منها من غير قصد^(١). ويدل على إطلاق الزينة على الثياب الظاهرة قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَبْتِغِيْءَ أَدَمَ حُدُوْا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال بعضهم: المراد بـ«ما ظهر منها»: الوجه والكفان، وسيأتي تفصيل هذا في الفوائد والأحكام.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام الأمر، ومعناه الوجوب. و«الخُمُر» جمع خمار، وهو ما يُخَمَّر به، أي: يغطى به الرأس والوجه، كما في قول عائشة- رضي الله عنها-: «فخمرت وجهي بجلبائي وكان رأني قبل الحجاب»^(٢). ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ قرأ ابن كثير وحمة والكسائي: «جيوبهن» بكسر الجيم، وقرأ الباقون بضمها^(٣).

والجيوب: جمع جيب، وهو شق في طول القميص من جهة الصدر يسمى طوق القميص^(٤).

والمعنى: وليلقين بخمرهن ويسدلنها ويرخينها على جيوبهن؛ لستر وجوههن وأعناقهن ونحو رهن وصدورهن، وعبر بالضرب مبالغة في الأمر بالستر. وهذا يؤكد وجوب ستر الوجه؛ لأن الخمار إذا كان على الرأس، وسدل على الجيب ستر الوجه، فدل هذا على أن الخمار يجب أن يستر الرأس والجيب وما بينهما وهو الوجه. عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطن فاختمرن بها». وفي رواية عن عائشة- رضي الله عنها- أنها كانت تقول: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذن أزهرن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها»^(٥).

(١) انظر: «المحرر الوجيز» ٤/ ١٧٨، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

(٢) تعني صفوان بن المعطل- رضي الله عنه- وقد سبق تحريج هذا.

(٣) انظر: «النشر» ٢/ ٢٢٦.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٠، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٨، «لسان العرب» مادة «جوب».

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥٩، وأبو داود في اللباس باب قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ ٤١٠٢، والطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٩٤.

وفي رواية عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «إن لנסاء قريش لفضلاً - وإني - والله - ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، وأشد تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُصْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به،^(١) تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»^(٢).

وقال السعدي^(٣): «﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُصْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدأؤها يدخل فيها جميع البدن».

قوله: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ كسر النهي عن إبداء الزينة للتوكيد، ونظراً لتنوع الاستثناء، فنهى أولاً عن إبداء الزينة، واستثنى من ذلك ما ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، ثم كرر النهي عن إبداء الزينة، واستثنى من ذلك بعض الأشخاص الذين يجوز إبداء الزينة لهم وهم المحارم.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: «إلا» أداة استثناء، والبعولة: جمع بعل، وهم الأزواج.

كما قالت سارة امرأة إبراهيم - عليه السلام - : ﴿قَالَتْ يَوْنَيْتِيْ ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي سَيِّئًا﴾ [هود: ٧٢] أي: وهذا زوجي شيخاً كبيراً.

والمعنى: ولا يظهرن زينتتهن الباطنة إلا لأزواجهن، وغيرهم ممن ذكروا في الآية. أما الزوج فله النظر إلى جميع بدن زوجته بلا استثناء؛ ولهذا قدم «بعولتهن»، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كنت اغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه واحد، تختلف أيدينا فيه، فيبادرني، حتى أقول: دع لي، دع لي: وهما جنبان»^(٤).

(١) المرط: كساء من صوف، ومرحل: نقش عليه تصاوير الرجال، واعتجرت به، أي: شدته على رأسها، والمعجر: الثوب الذي يشد على الرأس انظر: «لسان العرب» مادة «مرط» و«رحل» و«عجر».

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس - باب ﴿يُدْبِرْنَ عَلَىٰ عُنُقِهِنَّ مِنْ جَلْبِيْبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ٤١٠٠، ٤١٠١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤٨/٦ - ٤٩ وصححه الألباني.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤١١/٥.

(٤) أخرجه مسلم في الحيض ٣٢١، والنسائي في الغسل والتميم ٤١٤.

ومثله السيد؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن البعل يطلق على السيد واستدل بها رُوي في حديث جبريل - عليه السلام - في أمارات الساعة: «إذا ولدت الأمة بعلها»^(١).

ويستأنس لهذا بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥-٦]، [المعارج: ٢٩-٣٠].

أما غير الزوج من المحارم المذكورين في الآية فليس له النظر إلا إلى ما ليس بعورة. ﴿أَوْ آبَائِهِمْ﴾ «أو» عاطفة، في هذا وما بعده و«آبائهن» يشمل الآباء، والأجداد وإن علوا، سواء كانوا من جهة الأب، أو من جهة الأم.

﴿أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِمْ﴾، أي: أو آباء أزواجهن، سواء كانوا آباءهم الأديين أو أجدادهم، من جهة الآباء، أو من جهة الأمهات، وإن علوا.

﴿أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِمْ﴾ يشمل أبناءهن، وأبناء أولادهن، وإن نزلوا. ﴿أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِمْ﴾، أي: أو أبناء أزواجهن، ويشمل أبناء الأزواج، وأبناء أولادهم، وإن نزلوا، شريطة دخول أبيهم بهذه المرأة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّبْتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣].

﴿أَوْ إِخْوَانِهِمْ﴾ سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ﴾، أي: أو بني إخوانهن، وبني أولادهم، وإن نزلوا، سواء كان الإخوة أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ﴾، أي: أو بنى أخواتهن، وبني أولادهن، وإن نزلوا، سواء كانت الأخوات شقيقات، أو لأب، أو لأم.

فهؤلاء المذكورون كلهم محارم للمرأة يجوز لها إيداء الزينة وإظهارها لهم من غير تبرج. قال ابن كثير^(٢): «كل هؤلاء محارم المرأة يجوز أن تظهر عليهم بزيتها، ولكن من غير تبرج».

ويختلف الأزواج عن غيرهم من هؤلاء المحارم - كما سبق بيانه - فإن للمرأة أن

(١) أخرجه مسلم في الإبان ٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٤٩/٦.

تبدى لزوجها من زينتها ما ظهر منها وما خفي، وجميع محاسن جسمها.
وليس بين الزوجين عورة يجب أن يسترها أحدهما عن الآخر، فلها أن يجتمعا في لحاف وثوب واحد، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِيَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسُ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].
كما أن المحارم غير الأزواج يختلفون فيما بينهم في درجة المحرمية، فالأب والابن والأخ أقوى محرمة من ابن الزوج وأبيه.
قال القرطبي^(١): «وتختلف مراتب ما يبدى لهم، فيبدى للأب ما لا يجوز إبدائه لولد الزوج».

ولم يذكر في هذه الآية، ولا في آية سورة الأحزاب وهي قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ﴾ [الآية: ٥٥] العم والخال، مع أن العم والخال من المحارم، كما دل على ذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «جاء عمي من الرضاعة فاستأذن عليَّ فأبيت أن أذن له، حتى أسأل رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فقال: «إنه عمك فأذني له» قالت: فقلت: يا رسول الله، وإنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «إنه عمك فليلج عليك».

وعمها المذكور هو أفلح أخو أبي القعيس، كما جاء في بعض روايات الحديث^(٢).
قيل: وإنما لم يذكر العم والخال اكتفاء بقوله: ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ﴾ فبنو إخوانهم من عماتهم، وبنو أخواتهم من خالاتهم.
فإذا ثبتت المحرمية للمرأة في حق من هي عمته وخالته، فثبوتها في حق من هو عمها أو خالها من باب أولى.
وأيضاً فإن العم بحكم الأب، لهذا قال رسول الله ﷺ لعمر: «أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه»^(٣).

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح - ما يحل من الدخول والنظر إلى النساء من الرضاع ٥٢٣٩، ومسلم في الرضاع - يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة ١٤٤٥، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٧، والنسائي في النكاح ٣٣١٥ والترمذي في الرضاع ١١٤٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة - ٩٨٣، وأبو داود في الزكاة - تعجيل الزكاة ١٦٢٣، والنسائي في الزكاة ٢٤٦٦،

وقد سُمي إسماعيل - عليه السلام - في القرآن أبا يعقوب - عليه السلام - وهو عمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

فإسماعيل عم يعقوب؛ لأن إسماعيل وإسحاق من أبناء إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾، المراد بهذا: ما يشمل جميع النساء مؤمنات أو غير مؤمنات؛ لأن للمرأة مطلقاً أن تنظر من المرأة ما ليس بعورة. كما أن للرجل أن ينظر من الرجل ما ليس بعورة، وهذا القول أظهر.

قال ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»^(١).

وقيل: المراد: أو نسائهن المؤمنات فيجوز للمرأة أن تظهر زينتها عند غيرها من النساء المؤمنات، دون نساء المشركين والكفار، ونساء أهل الكتاب؛ لأنهن قد يصفهن لرجلهن؛ لأنهن لا يرين في ذلك مانعاً. بخلاف النساء المؤمنات فلا يعلن ذلك لعلمهن بحرمته في الإسلام^(٢).

واستدل بعضهم على هذا بما رواه الحارث بن قيس، قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي: «أما بعد، فإنه بلغني أن نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فأنه من قبلك، فلا يجلب لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها»^(٣).

فإن خيف افتتاح النساء بعضهن ببعض، أو خيف أن تصف بعضهن صفات الأخريات للرجال، وجب عدم إظهار الزينة عندهن، حتى ولو كن مسلمات.

وأحمد ٢/٣٢٢ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح ١٩٢٠ - من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده - رضي الله عنه - وقال الترمذي: «حديث حسن». وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٣٣، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٤١١.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٤٩ - ٥٠.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه - فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٤٩، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٣٣.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة، ففتنتها لزوجها، كأنه ينظر إليها»^(١).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أيانهن: جمع يمين، واليمين في الأصل اليد اليمنى، والمراد: أو ما ملكن بأنفسهن؛ لأن اليمين وحدها لا تملك، وإنما أضيف الملك إلى اليمين تشريفاً لها؛ لأنها هي المنفقة، وهي المعطية الآخذة، كما في الحديث: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٢).

والمعنى: أو ما ملكن من الرقيق، من الرجال والنساء فيجوز لهن إظهار زيتتهن أمامهم، كما يظهرها لمحارمهن ونسائهن، وعلى هذا دللت السنة.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال: وعلى فاطمة رضي الله عنها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وعلامك»^(٣).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه»^(٤).

ومفهوم هذا أنه إذا لم يكن له ما يؤدي فلا تحتجب منه؛ لأنه باق على أصل الرق، ومن باب أولى إذا كان مملوكاً لم يكاتب.

وعلى هذا القول دل ظاهر الآية، وهذه الأحاديث، وهو قول أكثر السلف وأهل العلم^(٥).

(١) أخرجه البخاري في النكاح- لا تباشر المرأة المرأة ٥٢٤٠، وأبو داود في النكاح ٢١٥٠، والترمذي في الأدب ٢٧٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس- في العبد ينظر إلى شعر مولاته ٤١٠٦ وصحح إسناده الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في العتق، في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت ٣٩٢٨، والترمذي في البيوع ١٢٦١، وابن ماجه في الأحكام ٢٥٢٠، وأحمد ٢٨٩/٦. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٥) انظر: «جامع البيان» ١٧/٢٦٥-٢٦٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٣٣-٢٣٤، «تيسير الكريم الرحمن» ٤١١/٥.

وقيل المراد بقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء خاصة دون الرجال المملوكين، فكأنه تبع؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ فيكون المعنى: «أو نسائهن» من الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء.

والأظهر القول الأول لكن لو خيفت الفتنة، من إظهار الزينة عند المملوك وجب سترها، بل لو خيفت الفتنة عند إظهار الزينة حتى عند المملوكة وجب سترها، كما هو الحال بالنسبة للمحارم ونساء المرأة الحرائر.

﴿أَوْ التَّابِعِينَ﴾، أي: أو التابعين لهن، أو لأهل بيوتهن من الأجراء، أو البله وخفاف العقول، الذين لا يتبهون لمحاسن النساء، وكالشيخ الكبير ونحوهم.

﴿غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بنصب الراء من «غير» على الاستثناء، وقرأ الباقر بكسرها: ﴿غَيْرِ﴾، على أنها صفة لـ «التابعين»^(١).

﴿أُولِي﴾، أي: أصحاب، ﴿الْأَرْبَةِ﴾ هي في الأصل: الحاجة إلى الشيء، أي شيء كان^(٢)، وجمعها: إِرَب، ومنها: المأرَبَة، وجمعها: مَأْرَب؛ كما في قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] أي: حاجات أخرى.

والمراد بـ«الإرابة» في الآية: الحاجة إلى النساء، ومنه قول عائشة - رضي الله عنها - : «كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه»^(٣)، وفي رواية عنها: «فأيكم يملك إربه، كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه»^(٤).

﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾، أي: البالغين.

وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، أي: غير أصحاب الحاجة إلى

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص ٣٣٩، «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر مادة «أرب» في «النهاية»، «لسان العرب».

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٢٧، ومسلم في الصيام ١١٠٦، وأبو داود في الصوم ٢٣٨٢، والترمذي في الصوم ٧٢٨، وابن ماجه في الصوم ١٦٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في الحيض ٣٠٢.

النساء من الرجال، وهو الرجل الذي لا شهوة له، وليس لديه الداعي إلى النساء^(١). وعن أم سلمة- رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية، والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخل هذا عليك»^(٢).

ويؤخذ من قوله: ﴿غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ﴾ أنه إذا خيفت الفتنة من إبداء الزينة لأي من المحارم المذكورين عدا الأزواج وجب سترها، حتى ولو كان ذلك عند بعض النساء^(٣).

﴿أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الطفل: هو الذكر الصغير دون التمييز، وهو هنا اسم جنس يراد به الجمع، أي: الأطفال، بدليل وصفه بالجمع في قوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْغُوا أَجْلاً مَّسِيًّا وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

والعورات: جمع عورة، وهي في الأصل: كل ما يستحيا من إظهاره، ويسوء الإنسان اطلاع الآخرين عليه.

قال السعدي^(٤): «أو الطفل: الأطفال دون التمييز، دل على أن المميز يستتر عنه؛ لأنه يظهر على عورات النساء».

ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، أي: لم يطلعوا بعد لصغرهم وعدم إدراكهم على عورات النساء، ومواضع نظر الرجال وسماهم منهن، فيجوز هن إظهار

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٢٤، ومسلم في السلام- منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب ٢١٨٠، وأبو داود في الأدب ٤٩٢٩ وابن ماجه في النكاح ١٩٠٢، وأحمد ٦/ ٢٩٠. وأخرجه مسلم أيضاً من حديث عائشة- رضي الله عنها- ٢١٨١، وأبو داود في اللباس، قوله: ﴿غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ﴾ ٤١٠٧، ٤١٠٩، وأحمد ٦/ ١٥٢.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١٠٣.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٢.

الزينة لهم، ومفهوم قوله: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أنهم لو ظهروا على عورات النساء لم يجز إبداء الزينة لهم.

قال ابن كثير^(١): «يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية، وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء» ثم ذكر ابن كثير قوله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» قالوا: يا رسول الله، أفرأيت اللحمو^(٢)؟ قال: «الحمو الموت»^(٣).

قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾.

نهى الله عز وجل المؤمنات في أول الآية عن إظهار زينتهن إلا ما ظهر منها، مما لا تستطيع المرأة إخفائه، وأن لا يبدين زينتهن إلا لمن ذكروا في الآية من المحارم، أو نسائهن وما ملكت أيانهن، ومن لا حاجة لهم في النساء، أو الأطفال الصغار الذين لم يظهروا على عورات النساء. بعد هذا نهى النساء المؤمنات أن يعمدن إلى إظهار الزينة الخفية بالأرجل تحت الثياب ونحو ذلك فقال:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾، أي: ولا يضربن بأرجلهن عند المشي على الأرض بشدة وقوة، وليكن مشيهن مشياً طبيعياً ومعتدلاً.

﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يعلم ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ «ما» موصولة، أي الذي يخفين من زينتهن من خلخال ونحو ذلك كما كانت تفعل ذلك نساء أهل الجاهلية، قال الشاعر:

تسمع للحلي وسواها إذا انصرفت
كما استعان بريح عشرق زُجل^(٤)

(١) في «تفسيره» ٥٢/٦.

(٢) أي: قريب الزوج كأخيه، وعمه ونحو ذلك.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح - لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة ٥٢٣٢، ومسلم في السلام - تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ٢١٧٢ والترمذي في الرضاع ١١٧١ - من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» ص ١٤٥.

والمراد هنا: لا يضرين بأرجلهن وأقدامهن ضرباً بشدة وقوة لأجل أن يعلم الذي يخفيه من زيتهن الخفية المستورة تحت الثياب، لما في ذلك من أسباب الفتنة، وإظهار ما يجب ستره أصلاً، وسواء كان ذلك عند المحارم ومن ذكر معهم في الآية، أو عند غيرهم؛ لأن النهي في قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ مطلق.

لكن من المعلوم أن حصول ذلك منهن عند الرجال الأجانب أشد حرمة ونهيًا. ويؤخذ من هذا أنه يجب على المرأة ستر زيتها ومحاسن جسمها التي الأصل فيها الستر، فلا يجوز لها لبس الثياب الرقيقة الشفافة التي تصف محاسن جسمها، ولا الثياب الضيقة التي تحدد أحجام جسمها، كثديها، وإيبتها ونحو ذلك، وذلك كالبنطلون وغيره. ولا الثياب القصيرة، التي تبدو منها بعض أعضاء المرأة، كالذراعين والعضدين والساقين والفخذين وغير ذلك.

وكذلك لا يجوز لها أن تعطر وتطيب عند خروجها من بيتها، سواء للمسجد، أو للمستشفى، أو لمناسبة، أو للسوق، أو لغير ذلك، لأن الضرب بالأرجل يحدث الفتنة بالسماح، والطيب يحرك الشهوة بالشم.

عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس، فهي كذا وكذا - يعني زانية»^(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار^(٢)، فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: وله تطييت؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطييت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»^(٣).

وعن أبي أسيد الأنصاري - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو

(١) أخرجه أبو داود في الترجل - ما جاء في المرأة تطيب للخروج ٤١٧٣، والترمذي في الاستئذان - ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة ٢٧٨٦، وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث «حسن صحيح»، وحسنه الألباني.

(٢) إعصار أي غبار.

(٣) أخرجه أبو داود في الترجل ٤١٧٤، وابن ماجه في الفتن - فتنة النساء ٤٠٠٢ وصححه الألباني.

خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق - فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكنَّ أن تحقُقن الطريق، عليكن بحافات الطريق، فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به»^(١).

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة جملة من الأحكام، وحث على جملة من الآداب، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين جميعًا بالتوبة، مما فرط منهم، أو قصروا فيه من ذلك وغيره، فقال:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ الواو عاطفة، والأمر للوجوب. والتوبة: الإنابة والرجوع إلى الله عز وجل، الرجوع من الكفر إلى الإيثار، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى.

﴿جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلًا وإسكانها وقفًا «أيه».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَيُّهُ﴾^(٢).

أي: توبوا إلى الله كلكم يا أيها المؤمنون، بفعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه، ومن ذلك ما أمر الله عز وجل به في هذه الآيات من الصفات والأخلاق الجميلة، وما نهى عنه من الصفات الذميمة والرذيلة.

فالتوبة إلى الله واجبة على جميع المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ويتأكد وجوب التوبة في حق من ارتكب ذنبًا، وكلما كان الذنب أشد كالشرك والكفر، والكبائر، كان وجوب التوبة أكد.

ومن الذنوب التي تجب التوبة منها، بل وتتأكد عدم غض البصر عن المحرمات، وعدم حفظ الفروج، وإبداء النساء زينتهن لغير المحارم، ومن ذكر معهم ممن يجوز لهم إبداء الزينة لهم، وضرهين بأرجلهن لإبداء ما خفي من زينتهن، وإبداء محاسنهن وغير ذلك.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق ٥٢٧٢ وحسنه الألباني.

(٢) انظر: «الغاية في القراءات» ص ٣٣٩، «النشر» ٢ / ٣٣٢.

فالتوبة واجبة على جميع المؤمنين، بشرطها، وهي:
الأول: الإقلاع عن المعصية، ومن لازم ذلك رد حقوق المخلوقين إليهم، والثاني:
الندم على فعلها، والثالث: العزم على عدم العودة إليها، والرابع: أن تكون في وقتها قبل
بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - : أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١).

وعن أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

والشرط الخامس: أن تكون خالصة لله عز وجل لا خوفاً أو رجاءً من مخلوق.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

وفي إيجاب التوبة إلى الله على جميع المؤمنين دلالة واضحة على أن الإنسان، لا يسلم من نقص وتقصير مهما قوي إيمانه ويقينه، ومهما احترز من الذنوب والمعاصي، ولهذا قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»، وفي رواية: «سددوا وقاربوا»^(٣).

وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٥، وأحمد ١٣٢/٢، والحاكم ٢/٢٤٩، وصححه ووافقه الذهبي وصححه أحمد شاكر، والألباني.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطهارة- المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/٢٧٦-٢٧٧، ٢٧٧-٢٨٢ من حديث ثوبان- رضي الله عنه- وصححه الألباني في «إرواء الغليل» حديث ٤١٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾، أي: لأجل أن تفلحوا^(١)، أو رجاء أن تفلحوا. والفلاح: الظفر المطلوب، والنجاة من المرهوب، وذلك بدخول الجنة والنجاة من النار، نسأل الله تعالى من فضله.

أي: توبوا وارجعوا إلى الله كلكم أيها المؤمنون، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والاستغفار والإنابة عما فرط منكم، لأجل أن تفلحوا وتفوزوا وتظفروا بالمطلوب وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، والنجاة من الشقاء في الدنيا والآخرة ومن دخول النار.

قال ابن كثير^(٢): «أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله».

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام بغض الأبصار وحفظ الفروج؛ لتصدير الخطاب في هذا بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، زيادة على الأمر العام له ﷺ بالبلاغ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢- تكريم المؤمنين والمؤمنات وتشريفهم بوصفهم باسم الإيذان في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾، وقوله: ﴿آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وأن امتثال الطلب بعده من مقتضيات الإيذان، وعدمه يعد نقصاً في الإيذان.

٣- وجوب غض البصر عن النظر إلى المحرمات؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ وقوله: ﴿يَفْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ وهذا مطلق يشمل: غض الرجال والنساء أبصارهم عن كل ما لا يجوز النظر إليه، مما يثير الفتنة.

٤- في قوله: ﴿مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ وقوله: ﴿مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ إشارة إلى معنى قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»^(٣).

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٩، «أضواء البيان» ٦/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

- فإذا وقع البصر على ما لا يجوز النظر إليه فجأة وجب غضه.
- ٥- وجوب حفظ الفروج عما حرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.
- ٦- أن غض الأبصار وحفظ الفروج عما حرم الله أطهر للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ ويفهم من ذلك أن عدم غض الأبصار، وعدم حفظ الفروج سبب للرجس والنجس وعدم الطهارة.
- ٧- حرص الدين الإسلامي على تزكية النفوس وتطهيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.
- ٨- أن الله عز وجل خير بكل ما يفعله العباد من الأمور الظاهرة والباطنة، والدقيقة والجليلة، والخفية والجلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. وفي هذا وعد ووعد، فهو عز وجل بخبرته وعلمه واطلاعه على أعمالهم سيجازيهم بها، ففيه وعد لمن أحسن ووعد لمن أساء.
- ٩- إثبات صفة الخبرة والعلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.
- ١٠- في تقديم الرجال على النساء في الذكر إشارة لفضل الذكور على الإناث من حيث العموم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية، فالرجال من حيث العموم أفضل من النساء كما قال تعالى: ﴿وَاللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].
- لكن قد تكون بعض النساء خيراً من بعض الرجال، ديناً وخلقاً وأدباً وعلماً، بل وشجاعة وقوة، وهذا أمر مشاهد معلوم.
- ١١- عناية الشرع المطهر بغض الأبصار وحفظ الفروج عما حرم الله تعالى وتأكيد وجوب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ الآية، ثم قال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.
- فأفرد كلاً من الجنسين بخطاب، عناية بذلك وتأكيداً له، ولم يقل: قل للمؤمنين والمؤمنات يعضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم.

١٢- في أفراد النساء بخطاب بالأمر بغض أبصارهن وحفظ فروجهن زيادة تأكيد عليهن، في وجوب غض أبصارهن، وحفظ فروجهن، وإشارة إلى خطورة النظر والفروج بالنسبة لهن، إذ الغالب في خطابات القرآن الكريم الاكتفاء بخطاب الذكور، ويدخل معهم الإناث تبعاً تغليياً للذكور على الإناث، لكن أفردهن هنا لهذا الغرض.

١٣- تحريم إبداء النساء المؤمنات زينتهن إلا ما ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، فلا حرج عليهن في ظهوره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وهي الثياب الظاهرة ونحو ذلك، على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وبهذا قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- وجمع من التابعين وغيرهم^(١)، وكثير من الفقهاء والمحققين من أهل العلم.

قال ابن تيمية^(٢): «فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة، فهذا لا جناح عليها في إبدائها، إذا لم يكن في ذلك محذور آخر، فإن هذه لا بد من إبدائها، وهذا قول ابن مسعود وغيره وهو المشهور عن أحمد».

ويدل على هذا القول قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ﴾؛ لأن هذا يدل على وجوب إسدال الخمار على الرأس والوجه والصدر، وسترها، وأن الوجه ليس من الزينة الظاهرة كما قيل. ودلالة هذا على وجوب ستر الوجه أظهر من دلالة قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على جواز كشف الوجه واليدين.

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: «وجهها وكفيها»^(٣).

وروي هذا عن ابن عمر- رضي الله عنهما- وبعض التابعين والفقهاء^(٤).
ويحتمل أن مراد ابن عباس بقوله: «وجهها وكفيها»، أي: هذه الزينة التي نهى الله عز وجل عن إبدائها بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، وليس ذلك تفسيراً؛ لقوله تعالى:

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/١٧-٢٥٦-٢٥٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٨، ٤٢٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/١٧-٢٥٨-٢٦٠، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٤٧.

(٤) انظر: «جامع البيان» ١٧/١٧-٢٥٨-٢٦١، «تفسير ابن كثير» ٦/٤٧.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وعلى هذا فيبقى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على أن المراد به - كما سبق - الثياب الظاهرة^(١).

ويحتمل أن مراد ابن عباس - رضي الله عنهما - تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين.

قال ابن كثير^(٢): «وهذا هو المشهور عند الجمهور» يعني حمل قول ابن عباس على هذا المعنى.

لكن هذا يعارضه ما ثبت عن ابن عباس نفسه في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكِ وَيَتَّكِّفُكِ وَيَسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] فيما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكِ﴾ الآية قال ابن عباس - رضي الله عنهما: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة»^(٣).

وأيضاً هو معارض بقول صحابي آخر هو عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - كما سبق ذكره.

وأيضاً فإن الوجه والكفين من أعظم الزينة عند المرأة، فإن أول وأهم وأعظم ما ينظر إليه الرجل من المرأة وجهها وكفاها، وبخاصة الوجه فإنه أصل الزينة وموضع الجمال.

قال الشنقيطي^(٤): بعد ما ذكر قول ابن مسعود - رضي الله عنه - أن المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الثياب الظاهرة، قال: «وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها، وأبعدها عن الريبة، وأسباب الفتنة».

وقال أيضاً بعد أن ضعف قول من قال المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الوجه

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٤٧/٦.

(٢) في «تفسيره» ٤٧/٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨١/١٩.

(٤) في «أضواء البيان» ١٩٧/٦، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٢٨/١٢ - ٢٢٩.

والكفان، وبيّن أنه خلاف ظاهر معنى لفظ الآية؛ لأن أصل الزينة في لغة العرب ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقها قال: «أظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود- رضي الله عنه-: أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا: إن هذا القول هو الأظهر لأنه أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها، كما هو معلوم»^(١).

وقال أيضًا في «تفسير سورة النور»^(٢): «والأقوى ما ذهب إليه ابن مسعود ومن تبعه: أن المراد به الملاء التي تتغطى بها المرأة فوق ثيابها، ويدل على هذا ظاهر اللغة، واستقراء الشرع. فظاهر اللغة أن الزينة تطلق على ما تتزين به المرأة خارجًا عن بدنها، فإن إطلاقها على نفس البدن يحتاج إلى قرينة. وأما استقراء الشرع، فالمعروف منه الأمر بالتباعد عن أسباب الفتنة، والوجه محل الجمال، والافتتان من المرأة فالواجب ستره».

وقد قال الله تعالى في شأن أزواج النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وإذا كان هذا خطابًا لمن سأل نساء النبي ﷺ، وهن من أطهر نساء العالمين، فغيرهن يجب عليهن الحجاب من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة بهن وعليهن أشد، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وبهذا نعلم أن الراجح وجوب ستر المرأة وجهها وعدم كشفه أمام الرجال الأجانب، كما دل عليه قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خِطْمُهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، وقوله قبل ذلك: ﴿وَلَا يُبَيِّنُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وقوله في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لَازِئِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة، الدالة على وجوب الحجاب، والتي سيأتي ذكرها

(١) «أضواء البيان» ٦/ ١٩٨.

(٢) ص ٩٩-١٠٠.

مستوفاة بإذن الله عز وجل في تفسير سورة الأحزاب عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
النَّيْتُ قُلْ لَا زُجَيْجَ﴾ الآية.

وهذا القول هو الذي يقتضيه العقل الصحيح، وهو أبعد عن الفتنة وأسبابها، إذ لا
خلاف أن الوجه هو أصل الزينة وأعظمها، وموضع الجمال من المرأة والافتتان بها.
والله المستعان.

١٤- أن الشرع لا يكلف بما لا يستطاع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: مما لا
يستطعن ستره وإخفائه فلا حرج عليهن في ذلك.

١٥- وجوب ستر المؤمنة نحرها وصدرها، مع رأسها ووجهها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ
بِحُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ﴾.

قال ابن تيمية^(١): «وثبت في الصحيح أن المرأة المحرمة تنهى عن الانتقاب
والقفازين، وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي
لم يُحرمن وذلك يقتضي ستر وجوههن».

وقال أيضاً: «وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما دخل بصفية قال أصحابه إن
أرخصي عليها الحجاب، فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يضرب عليها الحجاب
فهي مما ملكت يمينه، فضرب عليها الحجاب».

وقال أيضاً: «إنما ضُرب الحجاب على النساء لثلاث ترى وجوههن وأيديهن،
والحجاب خاص بالحرائر دون الإماء، كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ
وخلفائه أن الحرة تحتجب والأمة تبرز، وكان عمر - رضي الله عنه - إذا رأى أمة
متخمرة ضربها، وقال: «أتشبهين بالحرائر يا لكاع». فيظهر من الأمة رأسها
ويدها ووجهها» لكن إن كانت الأمة يخاف بها الفتنة كان عليها أن ترخي من
جلباها وتحتجب ووجب غض البصر عنها ومنها».

١٦- جواز إظهار الزينة لمن ذُكروا في الآية من المحارم وغيرهم، وهم الأزواج،
والآباء والأجداد وإن علوا، وآباء الأزواج وأجدادهم وإن علوا، وأبناؤهن وأبنائهن

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٩، ٤٣٠.

أولادهم وإن نزلوا، وأبناء أزواجهن وأبناء أولادهم وإن نزلوا، وإخوانهم من أي جهة كانوا، وبنو إخوانهم، وبنو أولادهم وإن نزلوا، وبنو أخواتهم من أي جهة كانت الأخوات، وبنو أولادهم وإن نزلوا. وكذا نساؤهم، وما ملكته أيانهم من الرقيق ذكورًا وإناثًا، ومن لا حاجة لهم إلى النساء، والأطفال الصغار الذين لم يطلعوا بعد على عورات النساء، ومواضع نظر الرجال منهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيَةَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذَّكَرِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

١٧- عدم وجوب الحجاب عمن ذكروا في الآية من المحارم، والنساء، وملك اليمين، ومن لا حاجة لهم إلى النساء، وكذا الأطفال؛ لأن الله أباح إظهار الزينة أمامهم، وأهم الزينة في المرأة وجهها.

١٨- إثبات الملكية الفردية؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾.

١٩- إثبات الرِّق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، أي: من الرقيق ذكورًا وإناثًا، والرِّق سببه الكفر. وإنما يحصل بطريق السبي في القتال بين المسلمين والكفار؛ لإعلاء كلمة الله عز وجل فمن سبي من الكفار من الذكور والإناث فهو رقيق، حتى يمن عليه المسلمون بالعتق.

وليس من الرق في شيء اختطاف الأحرار واسترقاقهم وبيعهم، ولا ما يفعله بعض الناس من بيع أطفالهم بسبب الحاجة، كما يحصل في بعض الدول الإفريقية وغيرها؛ لأن السبب الوحيد للرق هو الكفر، ويحصل بطريق السبي فقط.

وقد قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه حقه»^(١).

٢٠- تحريم إبداء الزينة الخفية من الخللخال وغيره، بالضرب بالأرجل على الأرض ونحو ذلك، وكذا غيره من محاسن المرأة، كشعرها ووجهها وذراعيها وعصديها

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ٢٢٧٠، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٢- من حديث أبي هريرة ؓ.

- وساقبها وفخذها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِيحُ بِأَتْلُجِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾، وسواء كان ذلك من طريق الإسراع، أو الكشف أو غير ذلك.
- ٢١- وجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل على جميع المؤمنين، ويتأكد ذلك في حق من ارتكب معصية كعدم غض البصر، وعدم حفظ الفرج، أو إبداء المرأة زينتها عند غير محارمها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وفي هذا إشارة إلى أنه قل من يسلم من المعصية والذنب، فمن مستقل ومستكثر. كما في حديث أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»^(١).
- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مئة مرة»^(٢).
- ٢٢- تنبيه المؤمنين إلى عظم التوبة وفضلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. بالنداء لهم.
- ٢٣- أن التوبة من مقتضيات الإيمان وعدمها نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.
- ٢٤- أن الفلاح والنجاح والفوز بالمطلوب والسعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، والنجاة من المهوب والسلامة من النار كل ذلك مترتب على التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فهي سبب لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.
- * * *

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلِاسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَنَيْبَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنَاتِنَا أَلِيسَ بِالْغَرِيبِ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

ذم الله عز وجل في هذه السورة الزنا، وبين حرمة ما يترتب عليه من الحد والعقوبة في الدنيا والآخرة، وأمر بعد ذلك بغض الأبصار وحفظ الفروج، كل ذلك حفاظاً على الأعراس وصيانة لها، ثم أتبع ذلك بالأمر بالنكاح والترغيب فيه؛ لأنه أعظم سبب للوقاية من الزنا، وأعظم معين على غض الأبصار وحفظ الفروج.

قال ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

فلما ذم الزنا وبين حكمه وأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج عن الحرام، أمر بإشباع هذه الغريزة بالطريق الحلال، ورغب في ذلك، بل وأوجب ذلك. فسبحان العليم الحكيم.

قال ابن كثير^(٢): «اشتملت هذه الآيات الكريبات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة».

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ﴾ الواو: استثنائية، والخطاب للأحرار من المسلمين، وبخاصة الأولياء والسادة منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٥٣/٦.

والنكاح لغة: الضم والجمع، ومنه يقال: تناكحت الأشجار إذا انضم بعضها إلى بعض.

والنكاح يطلق على الوطاء، وعلى العقد^(١) وهو المراد هنا فالمراد بالآية هنا العقد والتزويج أي: زوجوا الأيامى منكم.

و«الأيامى»: جمع «أيم»، وهو من لا زوج له، رجلاً كان أو امرأة.

يقال: رجل أيم، وامرأة أيمة وأيم، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج^(٢). ويكثر استعمال «أيم» في المرأة وبخاصة من فقدت زوجها.

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «الأيام أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن في نفسها، وإذنها صماتها»^(٣).

وفي حديث عمر - رضي الله عنه - قال: «لما تأيمت حفصة»^(٤)، أي: أصبحت غير ذات زوج.

﴿مِنْكُمْ﴾: أيها المسلمون، أي: زوجوا أيها المسلمون من لم يكن ذا زوج من رجالكم ونسائكم الأحرار، فابحثوا للرجل عن زوجة وأعينوه على تكاليف الزواج، وخفضوا عنه المهر وغيره من أعباء الزواج.

وعلى هذا فإذا تقدم لنا خاطبان لامرأة أحدهما ليس معه زوجة والآخر معه زوجة، وهما في الدين والخلق والأمانة والكفاءة سواء فالأولى تقديم من لا زوجة معه؛ لأنه أحوج إلى الزواج لتحسينه وإعفافه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ﴾ وليس في ذلك ما يدل على عدم تزويج من معه زوجة أو أكثر، وإنما نص على الأيامى؛ لأنهم أحوج من غيرهم.

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «نكح».

(٢) انظر مادة: «أيم» في «الصحاح»، «لسان العرب» وانظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٠، «تفسير ابن كثير» ٥٤/ ٦.

(٣) أخرجه مسلم في النكاح ١٤٢١، وأبو داود في النكاح ٢٠٩٨، والنسائي في النكاح ٣٢٦٠، والترمذي في النكاح ١١٠٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٧٠.

(٤) سيأتي تحريجه.

وزوجوا الأيامي من النساء بمن جاء يخطبهن إذا كان ممن ترضون دينه وأمانته وخلقه، كما قال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(١).

بل وابحثوا للمرأة عن رجل، بعرضها على من ترضون دينه وأمانته كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن عمر رضي الله عنه قال: «تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس- يعني: ابن حذافة- وكان من أصحاب النبي ﷺ، ممن شهد بدرًا، فتوفي بالمدينة، فلقيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: سأنظر في ذلك، فلبثت ليالي فلقيته، فقال: ما أريد أن أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق- رضي الله عنه-، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فلم يرجع إليّ شيئًا، فكنت عليه أوجد مني على عثمان رضي الله عنه، فلبثت ليالي، فخطبها إليّ رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا، قلت: نعم. قال: فإنه لم يمنعي حين عرضت عليّ أن أرجع إليك شيئًا إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، ولم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها نكحتها»^(٢).

ويفهم من هذا عدم تزويج الكفار رجالهم ونسائهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ ۚ وَلَا أَعْبَابَةٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾ [المتحنة: ١٠].

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ﴾.

و«الصالحين»: جمع صالح وصالحة، غلب فيه الذكور على الإناث أي: الصالحين في دينهم ودنياهم. والصلاح في الدين: الإخلاص لله عز وجل مع متابعة الرسول ﷺ،

(١) أخرجه الترمذي في النكاح ١٠٨٥- من حديث أبي حاتم المزني رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن» وأخرجه ابن ماجه في النكاح- باب الأكلفاء ١٩٦٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح- عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير ٥١٢٢، والنسائي في النكاح ٣٢٤٨، وأحمد ١٢/١.

والصلاح في الدنيا: كونهم يحسنون التصرف في أمور دنياهم، وبخاصة ما يتعلق بأموالهم والزواج وأحوالهم، وحقوق الأزواج ونحو ذلك. وخص العباد والإماء باشتراط الصلاح؛ لكثرة الفساد فيهم^(١).

﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ «عباد»: جمع عبد، يقال في جمعه: عباد، وعبيد، وأعبد، وغير ذلك^(٢)، وهم المماليك الذكور.

﴿وَأِمَائِكُمْ﴾ «إماء»: جمع أمة، وهي المملوكة، وتطلق الأمة على المرأة مطلقاً، كما في قوله ﷺ: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك»،^(٣).

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(٤).

وما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»^(٥) لا يعارض قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَأِمَائِكُمْ﴾؛ لأن النهي في الحديث عن قول السيد: عبدي وأمتي، وهو أن يضيف السيد العبودية والأموّة إلى نفسه بضمير المتكلم، ومثل هذا في النهي - والله أعلم - لو قال: عبدنا وأمتنا؛ وذلك لما فيه من التعظيم والعلو والتكبر على مملوكه، وإشعار المملوك بالذل والإهانة.

أما ما عدا ذلك فيجوز، كأن يقال: هذا عبد فلان، وهذه أمة فلان، كما قال تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَأِمَائِكُمْ﴾.

وخص الصالحين؛ لأنهم هم الذين ينبغي أن يحفظ عليهم صلاحهم؛ لأن

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٤١٤ / ٥.

(٢) انظر: «الصحاح» مادة «عبد».

(٣) أخرجه أحمد ١ / ٣٩١، ٤٥٢ من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وصححه إسناده أحمد شاكر ٣٧١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٩٠٠، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، وأبو داود في الصلاة ٥٦٦، والنسائي في المساجد ٧٠٦، والترمذي في الجمعة ٥٧٠، وابن ماجه في المقدمة ١٦.

(٥) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بتزويجهم حفظاً لشطر دينهم، وأيضاً فإن صلاحهم يوجب على أوليائهم وساداتهم العطف عليهم والعناية بهم. وهذا من حفظ الله عز وجل وقد قال ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما - : «احفظ الله يحفظك»^(١).

وإنما سُمِّي المالك عباداً وإماءً للمالكهم وأسيادهم؛ لأنهم ذليلون لأسيادهم شرعاً وقدرًا، فهم ذليلون شرعاً؛ لأنهم ملك لأسيادهم لهم التصرف في أمرهم ونبيهم، وبيعهم وشرائهم، ولهم جميع منافعهم، وهم ذليلون لأسيادهم قدرًا؛ لأنهم أقل قدرًا من أسيادهم.

والأمر في قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ للوجوب - عند بعض أهل العلم؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب فيجب على الأولياء تزويج الأيامي ممن تحت ولايتهم، ويجب على السادة تزويج الصالحين من ممالكهم^(٢)، وينبغي للمسلمين عموماً التعاون في ذلك.

وقال بعض أهل العلم: هو محمول على النذب^(٣).

ولا شك أن النكاح في الأصل مستحب وسنة من سنن المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد يجب إذا خاف الإنسان على نفسه الوقوع في الفاحشة، وبعض أهل العلم يوجهه مطلقاً على كل من قدر عليه.

ويؤكد مشروعية النكاح ما جاء في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ٣٠٣/١، ٢٩٣ - وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه أحمد شاكر.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٤١٢/٥.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» ٣٤١/٣.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم - الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ١٩٠٥، وفي النكاح ٥٠٦٥، ومسلم في النكاح ١٤٠٠، وأبو داود في النكاح ٢٠٤٦، والنسائي في الصيام ٢٢٣٩، والترمذي في النكاح ١٠٨١، وابن ماجه في النكاح ١٨٤٥.

وقال ﷺ: «تزوجوا الودود الودود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^(١).
وعن أبي ذر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «وفي بضع أحدكم صدقة»
قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر، قال: «أرأيتم لو وضعها في
حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(٢).

ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أن تزويج
النساء الأيامي إلى الأولياء، وأن تزويج العبيد والإماء إلى أسيادهم^(٣).
ويؤخذ من الآية أن العبد إذا طلب التزويج ليعف نفسه، أنه ليس للسيد أن
يمنعه، بل يجب عليه أن يأذن له بذلك.

وقال بعض العلماء: بل له أن يمنعه.

وهذا مخالف للأمر في قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، والله
تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا﴾ يعود إلى من سبق ذكرهم جميعاً،
وهم: الأيامي والصالحون من عبادهم وإمائهم، فيشمل الأحرار والمماليك، وخصه
بعضهم بالأحرار؛ لأنهم هم الذين يملكون. والأولى حملة على الجميع.

وقد ثبت أن سيرين، وكان مملوكاً لأنس بن مالك - رضي الله عنه - سأل أنسا
المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى فانطلق إلى عمر - رضي الله عنه - فقال: «كاتبه، فأبى،
فضربه بالدرّة ويتلو عمر: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه»^(٤).

والمعنى: إن يكن هؤلاء الأيامي والصالحون من عبادكم وإمائكم فقراء حين
تزويجهم. و«فقراء»: جمع فقير، وهو من لا يجد إلا بعض الكفاية، وقد يكون معدماً لا

(١) أخرجه أبو داود في النكاح - النهي عن تزوج من لم يلد من النساء ٢٠٥٠، ٢٠٥٤ والنسائي في النكاح -
كراهية تزويج العقيم ٣٢٢٧، - من حديث معقل بن يسار - رضي الله عنه وقال الألباني: «حسن
صحيح». وأخرجه أحمد ١٥٨/٣، ٣٤٥ - من حديث أنس - رضي الله عنه - وصححه ابن حبان
١٢٢٨، والبيهقي في «سننه» ٨١/٧.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة - بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ١٠٠٦.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» ٣/٣٤١.

(٤) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم - المكاتب ونجومه في كل سنة نجم. انظر: «فتح الباري» ٥/١٨٤.

يُجد شيئاً، وهو مأخوذ من انفصام فقار الظهر؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، أو من «الفقر» وهي الأرض الخالية.

﴿يَغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يغنيهم جواب الشرط في قوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا﴾، وهو مجزوم بحذف حرف العلة وأصله: «يغنيهم».

والمعنى: أن الله يعطيهم ويمنحهم ما يستغنون به، ويندفع به فقرهم من فضله عز وجل وما عنده من الزيادة والخير الكثير فلا يمنعكم فقرهم من تزويجهم.

وهذا خلاف ما يعتقدُه الكثير من الناس من أن الزواج قد يُجَمِّلُ الزوج مسؤوليات وتكاليف، يصعب عليه تحمُّلها والقيام بها، حتى إن بعض الناس يحجم عن الزواج لعلل واهية قائلاً: لا أتزوج حتى أو من مستقبلي، يعني بأن يحصل على شهادة عليا ووظيفة، وسيارة، وسكن، وغير ذلك.

وهذه كلها تبريرات لا حقيقة لها. وتأمين المستقبل أمره إلى الله عز وجل، والرزق على الله، وكل قادم من زوجة أو ولد يولد فرزه يأتي معه بإذن الله عز وجل، وكم من أناس بارك الله لهم ورزقهم الشيء الكثير بسبب ما عندهم من أولاد وزوجات. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه، وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم»^(٢).

وروي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: «أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز ما وعدكم من الغنى». قال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : «التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله

(١) أخرجه النسائي في النكاح - معونة الله الناكح الذي يريد العفاف ٣٢١٨، وفي الجهاد ٣١٢٠، والترمذي في فضائل الجهاد - ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ١٦٥٥، وابن ماجه في العتق - باب المكاتب ٢٥١٨، وأحمد ٢/ ٢٥١. وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨١ - الأثر ١٤٤٤٥، وذكره ابن كثير ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٢ - الأثر ١٤٤٤٩، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٤.

تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١).

وروي عن عمر - رضي الله عنه - قال: «عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح والله عز وجل يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾»^(٢).

فلا ينبغي أن يؤخر الشاب الزواج انتظاراً لمزيد من الغنى، أو لأجل الحصول على شهادة عليا وسيارة وسكن ونحو ذلك، بل يكتفي بما تيسر ويتوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ولا ينبغي أن يُرد الخاطب لأجل فقره، فقد قال النبي ﷺ لرجل: «التمس ولو خاتماً من حديد» فلما لم يجد قال له: «زوجتكها بما معك من القرآن»^(٣).

فمن كرم الله عز وجل ولطفه وسعة فضله أن يرزق من تزوج يريد العفاف، والمقاصد الشريفة للنكاح، ويغنيه من فضله، ويسر له أمره^(٤).

وهذا وعد من الله عز وجل لكنه مربوط بمشيئة الله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقد يتخلف ذلك لسبب من الأسباب

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي: إنه عز وجل واسع الغنى، عظيم الفضل، واسع الرحمة والمغفرة والإحسان وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء. ومن سعته عز وجل وسعة غناه وسعة رزقه وفضله، وسعة علمه، يغني من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٥.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» ٣/ ٣٤٢، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٢١، ومسلم في النكاح ١٤٢٥، وأبو داود في النكاح ٢١١١، والنسائي في النكاح ٣٢٨٠، والترمذي في النكاح ١١١٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٨٩ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٥.

الْكِنْدَبِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَاَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَبَيِّنَاتٍ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْصِينَ لِنَبْنِغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾.

قوله: ﴿وَلِئَسْتَغْفِرَ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام الأمر، و«يستغفر»، أي: يطلب العفة والكف عن الحرام، و«استغفر» أبلغ من «عَفَّ»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والعفاف: صون النفس وإكرامها ورفعها عما لا ينبغي، من الوقوع في الفواحش، كالزنا، ومقدماته، كالنظر المحرم، والسماع المحرم، والخلوة المحرمة، ونحو ذلك.

كما قال عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّفَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومن العفة والعفاف: الاستغناء عما في أيدي الناس.

﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، أي: الذين لا يجدون تزويجًا، بمعنى: لا يجدون من المال ما يتزوجون به؛ لشدة فقرهم، أو يخطب أحدهم لكن لا يُقبل، أو لا يجدون نساءً يتزوجونهن - وإن كان هذا نادرًا - أو لا يستطيعون النكاح لامتناع أسيادهم من تزويجهم. والمعنى: وليطلب العفاف من لا يجد ما يتزوج به من المال بأسباب العفاف المقدورة له، كالصيام، كما قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

وأيضًا بالاحتراز من النظر إلى النساء، وحمل النفس على الصبر، وانتظار اليسر من الله، فإنه لن يغلب عسر يسرين، ومن يستغفر يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله.

قال ابن كثير^(٢): «وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي

(١) سبق تخريجه

(٢) في «تفسيره» ٥٥/٦.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنْ فَبَيْنَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾^١ إلى أن قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]. أي: صبركم عن تزوج الإماء خير لكم؛ لأن الولد يجيء رقيقاً.

﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ حتى: لانتهاء الغاية، أي: حتى يرزقهم الله ما يستغنون به، ويقدرون به على الزواج من المال، وتيسر الزوجات الصالحات وغير ذلك، وقوله: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: مما عنده عز وجل من الزيادة والخير الكثير والرزق الواسع.

قال السعدي^(١): «وعد من الله عز وجل للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج؛ لئلا يشق عليه ما هو فيه».

والعفاف أمر واجب وفرض على الدوام وفي كل وقت، ولا مفهوم للغاية في قوله: ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إذ ليس المراد أن الله إذا أغناهم من فضله فلا حاجة لهم إلى العفة، وإنما المعنى أن من أغناه الله من فضله، ووجد النكاح الشرعي، فقد أعفه الله بالحلال عن الحرام، بخلاف من لم يغنه الله، ولم يجد النكاح فهو الذي يحتاج إلى المجاهدة لإعفاف نفسه عن الحرام، حتى يرزقه الله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، فليس المراد أنه إذا بلغ أشده فاقربوه بغير التي هي أحسن؛ بل المعنى حتى يبلغ أشده فتعطوه ماله.

وفي قوله: ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إشارة إلى أن الاستعفاف كالنكاح سبب للغنى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

فمن استعفف واتفق الله وأطاعه، يسر الله له أمره، ورزقه من حيث لا يحتسب. كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرًا هَلَكًا بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا مِمَّنْ تَرْزُقُكَ وَالْعَنَابَةُ لِلتَّقْوَى﴾

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤١٦/٥.

وقال هود- عليه السلام- لقومه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣]، وقال عليه السلام: ﴿وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال نوح- عليه السلام- لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكُتُبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ؕ وَأَوْتَوْهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾.

ذكر الواحدي: «أن هذه الآية نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى، يقال له صبيح سأل مولاه أن ي كاتبه، فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية، و كاتبه حويطب على مئة دينار، و وهب له منها عشرين دينارًا، فأداها، و قتل يوم حنين في الحرب»^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكُتُبَ﴾ الواو: عاطفة و«الذين» مبتدأ، و خبره قوله: «فكاتبوهم»، أي: و الذين يطلبون و يريدون الكتاب من ممالئكم، و«الكتاب» و الكتابة و المكاتبه: هي بيع السيد مملوكه على نفسه، أي بيع السيد نفس المملوك على المملوك، و هي عقد عتاقه على مال يدفعه المملوك نجومًا، أو دفعة واحدة.

و سمي كتابًا و مكاتبه؛ لأنه غالبًا يكتب؛ لأن المال فيه مؤجل. و في هذا ترغيب بكتابته تفاديًا للاختلاف و النسيان و الموت و الفوت، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا الذُّبُرُ ؕ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينِكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، أي: من الذي ملكتموه من الأرقاء ذكورًا كانوا أو إناثًا،

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢١٩، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٤٦-٢٤٧،

«تفسير سورة النور» للشنيطي ص ١١٥-١١٦.

و«من» بيانية فيها بيان الموصول «الذين».

وأضيف الملك إلى اليمين مع أن الذي يملك الشخص نفسه تشريفًا لها؛ لأنها هي الآخذة المعطية.

وفي الآية إثبات الملك للبشر، وهو ملك إضافي نسبي، وإثبات الرق وملك اليمين، أما الملك المطلق فهو لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] فحصر الملك لنفسه - عز وجل.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ خبر المبتدأ، ودخلت عليه الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، أي:

فأجيبوا طلبهم وكاتبوهم.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾، أي: إن علمتم في هؤلاء المملوكين الذين يريدون الكتابة ﴿خَيْرًا﴾، أي: صلاحًا في دينهم ودنياهم، من الصدق والأمانة والقدرة على الكسب، وأداء ما كاتبتموهم عليه من المال، والإنفاق على أنفسهم، وتحمل المسؤولية بأنفسهم.

قال ابن كثير^(١): «هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب، يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه». وقال السعدي^(٢): «لأن في الكتاب تحصيل المصلحتين مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه، وربما جد واجتهد وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل عليه في رقه».

ويفهم من الآية أنه إذا لم يتوفر هذا الشرط وهو قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فلا يؤمر بمكاتبتهم، سواء حمل الأمر على الوجوب، أو على الاستحباب، بل لا تنبغي مكاتبتهم، وذلك لثلا يضيع حق المالك، ويكون المملوك عالة على الغير، لكن إن علمنا فيهم شرًا لم تجز مكاتبتهم، وإن لم نعلم فيهم لا خيرًا ولا شرًا فقبل تجوز مكاتبتهم، وقيل: لا تجوز.

﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾، أي: وأعطوهم أيها الأسياد من مال الله الذي أعطاكم، وذلك بالتخفيف عنهم في الكتابة، وعدم تكليفهم ما يشق عليهم، وأن

(١) في «تفسيره» ٥٥/٦.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤١٦/٥.

يوضع عنهم شيء مما كوتبوا عليه، ويعينونهم على ذلك.

عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه كاتب عبدًا له يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه حين حل، فقال: «يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مكاتبتك. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف ألا أدرك ذلك» ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْتَكُمْ﴾. قال عكرمة: «كان أول نجم أدي في الإسلام»^(١).

وهكذا ثبت عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: ﴿وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْتَكُمْ﴾ يعني: «ضعوا عنهم من مكاتبتهم»^(٢).

وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه، مخافة أن يعجز، فيرجع إليه صدقته، لكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب^(٣).

والأمر في قوله: ﴿وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْتَكُمْ﴾ عام يشمل جميع المؤمنين بأن يعينوا المكاتبين على أداء ما عليهم، ويعطوهم نصيبهم من الزكاة الذي فرضه الله لهم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾ [التوبة: ٦٠]^(٤).

ويدخل في عموم الأمر ولادة أمر الأمة، بأن يعتنوا بتخليص المكاتبين من الرق، ويساعدوهم على ذلك من بيت مال المسلمين؛ لأن الإسلام ندب إلى إعتاق الرقيق.

وفي إضافة المال إلى الله عز وجل في قوله: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْتَكُمْ﴾ تنبيه إلى أن المال الذي بأيدي الناس كله لله عز وجل ومنه استخلفتم فيه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وقد أحسن القائل:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/٢٥٨٧ - الأثر ١٤٥١٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٧/٦، والسيوطي في «الدر المنثور» ٥/٤٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق والبيهقي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/٢٥٨٧ - الأثر ١٤٥١١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٧/٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٨٦، والبيهقي في «سننه» ١٠/٣٣٠ من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٧/٦.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٥١ - ٢٥٢، «تفسير ابن كثير» ٥٧/٦.

وما المال والأهلون إلا ودائع ^(١) ولا بد يوماً أن ترد الودائع ^(١)
وفي قوله: ﴿مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم وإن آتيتموهم فالمنة والفضل
لله سبحانه وتعالى؛ لأن المال مال الله قدرًا، فهو الذي أعطاكم المال، أو قدرًا وشرعًا إذا
كان المراد به مال الله الزكاة.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ
بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٣٣).

سبب نزول الآية :

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «كان لعبد الله بن أبي ابن سلول جارية
يقال لها مسيكة، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ
أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٢)».

وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما: «أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في
الجاهلية، فولدت أولادًا من الزنا، فقال لها: مالك لا تزنين؟ قالت: لا، والله لا أزني،
فصر بها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ^(٣)».

قال ابن كثير ^(٤): «كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل
عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المسلمين عن ذلك».

قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: ناهية. والإكراه: حمل الإنسان
على فعل الشيء، أو قوله بالقوة، وهو له كاره، وهو ضد الطواعية.

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ص ١٧٠.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير - قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ ٣٠٢٩، وأبو داود في الطلاق
٢٣١١، والطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٩٠-٢٩١، والحافظ أبو بكر البزار - فيما ذكره ابن كثير في
«تفسيره» ٥٨/٦. وانظر: «أسد الغابة» ٥/٥٤٦، «أسباب النزول» للواحدي ص ٢١٩-٢٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي - فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٨/٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره»
٨/٢٥٨٩-الأثر ١٤٥٢٣، وانظر: «جامع البيان» ١٧/٢٩٢-٢٩٣.

(٤) في «تفسيره» ٥٧/٦.

و﴿فَنِيَّتِكُمْ﴾: جمع فتاة، وتطلق على الشابة، وعلى الأمة.
 قال ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»^(١).
 والمراد: بالفتيات هنا الإماء، كما دل عليه سبب النزول.
 ﴿عَلَى الْبَغَاءِ﴾، أي: على الزنا. والمرأة البغيّ: هي المرأة الزانية.
 عن أبي مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهي عن ثمن الكلب، ومهر
 البغيّ، وحلوان الكاهن»^(٢).

والبغيّ هي الزانية، ومهرها هو أجرة زناها.
 وسُمي الزنا بالبغاء، ومعناه الطلب: لأن الزنا يُطلب ويُبتغى، يبتغيه ويطلبه الزناة
 والفساق^(٣).

﴿إِنْ أَرَدَنْ تَحَصُّنًا﴾ هذا الشرط خرج مخرج الغالب، وحكايةً للواقع فالغالب
 والواقع أنهم يكرهونهنّ على الزنا وهن يردن التحصن، وعلى هذا فلا مفهوم لهذا
 الشرط^(٤).

فلا يفهم منه أنهن إذا لم يردن التحصن يجوز إكراههن، وهذا بالإجماع. وإنما فيه
 زيادة التشنيع على السادة الذين يكرهون إماءهم على الفاحشة بدلاً من كونهم
 يحصنونهن، ويمنعونهن من الفساد، وفي هذا من الدياثة ما فيه.

والمراد بالتحصن: التعفف عن الفاحشة، والامتناع عنها، كما قال تعالى:
 ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ
 مُسَفَّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]

قال الشاعر:

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب
 ٤٩٧٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٣٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٧، وأبو داود في البيوع ٣٤٢٨، والنسائي في
 الصيد والذبائح ٤٢٩٢، والترمذي في النكاح ١١٣٣، وابن ماجه في التجارات ٢١٥٩.

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «بغى».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥٩/٦.

فلا تأمننَّ الحيَّ قيسًا فإنهم بنو مُحَصَّنات لم تَدنس حجورها^(١)
﴿لَبَنَعُوا﴾ اللام لام التعليل، أي: لتطلبوا بإكراههن على الزنا.
﴿عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ العرض: ما يعرض ثم يزول، والمراد به هنا المال. والحياة الدنيا:
هي الدار التي نحن فيها.

وفي تسميتها «الدنيا» إشارة إلى أن هناك حياة أخرى، وسميت دنيا؛ لأنها متقدمة
في الزمن على الدار الآخرة؛ ولأنها دنيئة لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فهي متاع
غرور، ومتاع قليل، كما وصفها الله في كتابه، وكما قال عز وجل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ
الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢).
فهي وما فيها من المتاع ظل حائل، وعرض زائل، إما تزول عنك أو تزول أنت عنها.
قال الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداء ان تلوى فيهما وحنوط^(٣)
وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المأل والولد^(٤)
ومعنى الآية: لتطلبوا عرضًا دنيويًا من المال مقابل ذلك، وهو أجره الزنا وفداء
أولاد الزنا^(٥).

وفي هذا ذم لهم، وإشارة إلى انحطاط منزلتهم، حيث جعلوا من أنفسهم دعاة إلى
الدعارة والفجور، وأكروهوا إماءهم على الزنا؛ لأجل العرض الدنيوي التافه الحقير.
وعن رافع بن خديج - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شر

(١) البيت لجريز. انظر: «ديوانه» ص ٨٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» ٢٧٩٦ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الدر المصون» ٦/ ٥٣٥.

(٤) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» ص ٣٤٧.

(٥) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٨٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٥٥.

الكسب مهر البغي، وثمر الكلب، وكسب الحجام»^(١)
 وقال ﷺ: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»^(٢).
 وقوله: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لبيان الواقع وأنهم يكرهونهن على البغاء؛ لأجل
 العرض الدنيوي، ولا مفهوم له، فلو لم يريدوا العرض الدنيوي بإكراههن ما جاز لهم
 ذلك.

﴿وَمَنْ يُكْرِهَنَّ﴾ الواو: عاطفة و«من» شرطية تفيد العموم، «يكرههن»، أي:
 يلزمهن بقوة بفعل الفاحشة.
 ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. جملة جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة
 اسمية.

وهنا عاد جواب الشرط إلى غير ما يعود إليه فعل الشرط، ففعل الشرط يعود إلى
 الأسياد الذين يكرهون إماءهم على الزنا، وجواب الشرط يعود على الإماء، اللاتي يكرهن
 على الزنا، فعاد جواب الشرط على ملابس وملازم لفعل الشرط؛ لأنه لا مكره إلا بمكره.
 والمعنى: فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن، رحيم بهن، إذا كان ارتكابهن لها
 بسبب الإكراه المحض، دون أن يكون لهن أي ميل إلى الفاحشة؛ لأن المكره معفو عنه،
 كما في حديث أبي ذر الغفاري وابن عباس - رضي الله عنهم - أن رسول الله ﷺ قال:
 «عُفِيَ لَأُمَّتِي عَنِ الْخَطَا وَالنِّسْيَانِ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٣).
 قال ابن عباس - رضي الله عنهما: «فإن فعلتم - أي: أكرهتموهن - (فإن الله) لهن
 (غفور رحيم) وإثمهن على من أكرههن»^(٤).

وفي قراءة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور
 رحيم»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في المساقاة ١٥٦٨، وأبو داود في البيوع - كسب الحجام ٣٤٢١، والنسائي في الصيد
 والذبائح ٤٢٩٤، والترمذي في البيوع - ما جاء في ثمن الكلب ١٢٧٥، وأحمد ٣/٤٦٤ - ٤٦٥.
 (٢) أخرجه أحمد ٣/٣٢١، ٣٩٩ - من حديث جابر رضي الله عنه.
 (٣) أخرجه ابن ماجه في الطلاق - طلاق المكره والناسي ٢٠٤٣، ٢٠٤٥. وصححه الألباني.
 (٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٩٢، ٢٩٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٥٩.
 (٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/٢٥٩١ - الأثر ١٤٥٣٦، وذكرها «ابن كثير في «تفسيره» ٦/٥٩.

وكذا قال الحسن البصري - رحمه الله: «فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم» لهن والله، لهن والله^(١). وروى نحوه عن مجاهد وسعيد بن جبير وابن زيد^(٢).

ففي الآية دليل على أن المكروه لا مؤاخذه عليه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

فبمغفرة الله لهن زوال المهوب والعقوبة الدنيوية والأخروية، وبالرحمة حصول المطلوب لهن من الفرج في الدنيا، والأجر في الآخرة.

ومع هذا فلا يمتنع أن يشمل قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من تاب ممن أكرهوهن إذا صدقوا بالتوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣٤).

هذا توكيد لقوله أول السورة: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]، إلا أن هذه الآية أعم من الآية أول السورة، فيدخل في عمومها ما ذكر الله عز وجل أول السورة وما بعده، وغير ذلك مما أنزله الله عز وجل من الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾ الواو استئنافية، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله لقد أنزلنا. و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، هي: القسم، واللام، و«قد».

والإنزال: هو إنزال الشيء من علو إلى أسفل.

﴿إِلَيْكُمْ﴾ فيه تشريف وتكريم لأمة محمد ﷺ أمة الإجابة، وهم المؤمنون، فمن أجلهم أنزل الله الكتاب، وأرسل الرسول ﷺ.

﴿آيَاتٍ﴾ هي آيات القرآن الكريم، الآيات الشرعية، فهي علامات على عظمة من أنزلها، وصدق من جاء بها، لما فيها من الأحكام العادلة، والأنباء الصادقة،

(١) أخرجه أبو عبيد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٩/٦.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٩٢-٢٩٤.

وصلاحياتها لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم «مبيّنات» اسم فاعل من «بيّن» اللازم، بمعنى «تبيّن»، أي: أنهن بيّنات واضحات ظاهرات، لا خفاء فيهن. أو من «بيّن» المتعدي، أي: أنهن موضحات ومظهرات للأحكام الشرعية، وللحق من الباطل، والهدى من الضلال.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم «مبيّنات» اسم مفعول، أي: أن الله عز وجل بينهن وأوضحهن وأظهرهن لعباده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

فكلام الله عز وجل واضح بيّن، لا إشكال فيه، ولا خفاء- والله الحمد- وكذا عموم نصوص الشريعة، وأحكامها، لكن قد يقع الإشكال في بعض المسائل الشرعية بسبب سوء الفهم، أو التقصير في طلب العلم، أما مع العلم والفهم الصحيح التامين فلا يوجد إشكال في الشريعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في العقيدة الواسطية: «من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق»^(١).

﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ قَبْلِكَ﴾، أي: وذكرنا لكم صفة، وأمثلة وقصصاً عجيبة غريبة^(٢)، من أخبار الذين مضوا من قبلكم، مما حصل لرسول الله عز وجل وأوليائه من الابتلاء، ثم كانت العاقبة والتمكين والنصر لهم على أعدائهم.

فما حصل لأمة المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- ليس بدعاً في التاريخ، فقد قيل لمريم- عليها السلام- لما جاءت تحمّل ابنها عيسى- عليه السلام: ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾^(٢٧) بتأخت هرون ما كان أبوك أمراً سوءاً وما كانت أمك بغياً﴾ [مريم: ٢٧-٢٨]. وهذا اتهام لها بالزنا، فبرأها الله عز وجل على لسان وليدها الصغير، قال تعالى: ﴿فَأَسَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾^(٢٨) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٠].

(١) «مجموع الفتاوى» ٣/ ١٣٧.

(٢) انظر: «الكشاف» ٣/ ٧٦.

وقالت امرأة العزيز متهمة يوسف - عليه السلام: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَلَانَ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٍ أَلِيمًا﴾ [يوسف: ٢٥]. وسجن - عليه السلام - من أجل ذلك، حتى برأه الله عز وجل على السنة النسوة اللاتي جمعتهن، وعلى لسانها هي، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

كما ذكر الله عز وجل أمثلة من أخبار المكذبين للرسول، وما أحل بهم من العقوبات والنكال، قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَرَّا اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

ولما ذكر الله عز وجل قصة إهلاك قوم لوط - عليه السلام - بقلبيها عليهم وإتباعها بالحجارة قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

فسنة الله عز وجل واحدة في إهلاك المكذبين.
﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾، أي: عظة وعبرة وزاجراً عن التكذيب والمخالفة لأمر الله عز وجل، وعن ارتكاب المحرمات.

والموعظة: ذكر الأحكام والأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب، بذكر الجنة ونعيمها وصفات أهلها، والنار وعذابها وصفات أهلها، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُعْظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

وقال عز وجل في سورة البقرة بعد أن ذكر كثيراً من الأحكام في الطلاق والرجعة والنكاح: ﴿بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُعْظَمُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَطَهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يُعْظَمُ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

﴿الْمُتَّقِينَ﴾، أي: للذين يتقون الله بفعل أوامره واجتنب نواهيها، وخصهم بالذكر؛ لأنهم هم المتعظون المنتفعون بمواعظ القرآن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ

وَعِيدٌ ﴿٤٥﴾ [ق: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا لِلَّذِينَ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَنْجِبُهَا الْأَشْفَى﴾ [الأعلى: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في صفة القرآن الكريم: «فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل، ليس باهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله»^(١).

الفوائد والأحكام:

١ - مشروعية النكاح والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَىٰ وَكُلَّتْ وَرُبِعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ الْآفَاقَ فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» الحديث^(٢).

وأجمع المسلمون على مشروعية النكاح، وأنه سنة من سنن المرسلين - عليهم الصلاة والسلام - رغبت فيه الشرائع والديانات كلها؛ لأنه سبب بقاء الإنسان، وعمران هذا الكون، وهو أفضل من نوافل العبادة على الصحيح.

ولهذا رد النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون، ونفر من الصحابة رضي الله عنهم، بل وعدّ ذلك ﷺ رغبة عن سنته.

عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا»^(٣).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٠.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح - ما يكره من التبتل والخصاء ٥٠٧٤، ومسلم في النكاح - استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ١٤٠٢، والنسائي في النكاح ٣٢١٢، والترمذي في النكاح ١٠٨٣، وابن ماجه في النكاح ١٨٤٨.

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: «لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ النبي ﷺ ذلك، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

وجهور أهل العلم على أن النكاح سنة ومندوب إليه، ومن أهل العلم من يرى وجوبه، ويتأكد الوجوب فيما إذا خاف الإنسان على نفسه الوقوع في الفاحشة رجلاً كان أو امرأة^(٢).

٢- يجب على الأولياء تزويج من تحت ولايتهم من الأيامي من الذكور والإناث؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾، والأمر للوجوب.

٣- ظاهر قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أنه يجب على السادة تزويج ممالئكمهم. وذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك ليس بواجب.

٤- فضل الصلاح؛ لأن الله خص الصالحين من العبيد والإماء بالأمر بتزويجهم فقال: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وذلك تكريمًا لهم، وتشجيعًا وحفاظًا على صلاحهم، فيزوجون ممالئكم مثلهم.

٥- أن الذي يتولى تزويج الأيامي من الأحرار من النساء والرجال القصار هم أولياؤهم، وأن الذي يتولى تزويج العبيد والإماء هم سادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ فلا تزوج المرأة نفسها، ولا يزوج المملوك نفسه.

٦- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

٧- أن النكاح سبب للغنى بإذن الله عز وجل وتوفيقه، ووعدته الذي لا يخلف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/٣١٩-٣٢٠، «المغني» ٩/٣٤٠-٣٤٤، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٣٩.

٨- لا ينبغي أن يكون الفقر مانعاً من الزواج، وينبغي أن يكون الإنسان أوثق بوعد الله، وبما عنده سبحانه مما في يده.

بل قد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على أنه لا يفرق بين الزوجين من أجل إعسار الزوج، وأن الزوجة لا تخير في البقاء مع الزوج المعسر وعدمه، لأنه إذا لم يكن الفقر مانعاً في ابتداء النكاح، فلا يكون مانعاً في استدامته من باب أولى، والعلماء في هذا على قولين^(١).

٩- إثبات سعته عز وجل وكرمه وسعة علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٠- وجوب الاستعفاف على الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله، وأن الاستعفاف من أسباب الغنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

١١- الأمر بمكاتبة من يتغي الكتابة من الأرقاء إذا علم أن فيهم خيراً وقدرة على الكسب الوفاء، وصلاً لهم في ذلك، في أمر دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

وظاهر الآية أنه يجب على السادة إذا طلب منهم مماليتهم المكاتبة أن يكاتبوهم إن علموا فيهم خيراً وبهذا قال جمع من أهل العلم.

قال ابن جريح: قلت لعطاء: «أوجب عليّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. قال عمرو بن دينار: أتأثره عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسا المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال: «كاتبه» فأبى، فضربه بالدرّة، وبتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه^(٢).

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن سيرين أراد أن يكاتبه، فتلكأ عليه فقال له عمر: «لتكاتبته»^(٣).

(١) انظر: «المغني» ١١/ ٣٦٠-٣٦٢.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٦، وعبد الرزاق في «المصنف» ٨/ ٣٧١-٣٧٢، والبيهقي في

قالوا: فكما يجب على الإنسان إخراج الزكاة والكفارات والنفقات الواجبة من ماله لأمر الله بذلك، كذلك يجب عليه مكاتبة مملوكه لأمر الله بذلك. وأيضًا فإن الشرع متطلع إلى العتق؛ لأن الأصل في بني آدم الحرية، والرق وارد عليه؛ ولهذا رغب الشرع المطهر في العتق. وقال ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إربًا منه من النار»^(١). وأوجب عز وجل في عدد من الكفارات عتق رقبة مثل كفارة القتل والظهار واليمين.

واختار هذا القول ابن جرير الطبري^(٢). وجهور أهل العلم على أن هذا الأمر للإرشاد والاستحباب والندب، فالسيد يندب إذا طلب منه عبده الكتابة أن يكاتبه، ولا يلزمه ذلك^(٣). وذلك أن ملك اليمين من مال السيد، وقد دل الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، كما قال ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»^(٤). فكما لا يلزم السيد بإعتاق مملوكه أو بيعه، كذلك لا يلزم بمكاتبته؛ لأن حقيقة المكاتبة لا تتعدى العتق أو البيع، فهي من حيث تخلص الرقبة من الرق عتق، ومن حيث أخذ العوض بيع. وأيضًا فإن قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يؤيد القول بأن الأمر فيه للندب والاستحباب؛ لأن علم الخيرية فيهم أمر قد يُختلف فيه، ولا يكاد يُتفق عليه، لا فيما بين

«سننه» ٣٠٩/١٠. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٥٦/٦. «إسناده صحيح».

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥١٧، ومسلم في العتق ١٥٠٩، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٤١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٧٨/١٧.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٤٥/١٢، «تفسير ابن كثير» ٥٥/٦.

(٤) أخرجه أحمد ٧٢/٥ - عن أبي حرة الرقاشي عن عمه رضي الله عنه، و١٧٢/٥ - من حديث عمرو بن يثرب رضي الله عنه.

الناس، ولا فيما بين السيد ومملوكه، ولو كان الأمر للوجوب لما وكل العلم إلى السادة^(١).

١٢- إذا لم يُعلم بالمملوك خيراً بل خيف ألا يفي بما عليه، أو يكون عالية على الغير، ويتضرر في دينه فلا ينبغي أن يكتب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

١٣- الترغيب في مساعدة المكاتبين، من قبل أسيادهم بحيث لا يثقلون عليهم في المكاتب، وأن يضعوا عنهم شيئاً منها ويعينوهم على الأداء ما استطاعوا. وهكذا ينبغي لولاة الأمر مساعدتهم من بيت مال المسلمين، وعلى غيرهم من المؤمنين أن يعينوهم، ويعطوهم نصيبهم من الزكاة الذي فرضه الله لهم بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠].

بل ويتصدقون عليهم من الصدقة غير الواجبة. فإن عتق الرقاب من أفضل الأعمال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمِ الْعَقَبَةَ ۗ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۗ (١٢) فَك رَقَبَةً﴾ [البلد: ١١-١٣].

١٤- عناية الإسلام بتحرير الأرقاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكُتُبَ وَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَكَّنْتَهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾. ولهذا شرع في كثير من الكفارات عتق الرقيق، ككفارة القتل، والظهار، والجماع في نهار رمضان، واليمين وغير ذلك.

وقد روي أن النبي ﷺ أعتق ثلاثاً وستين رقبة، وأعتقت عائشة سبعمائة وستين رقبة، وأعتق العباس سبعين رقبة، وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة، وأعتق ابن عمر ألف رقبة، وأعتق ذو الكلاع الحميري ثمانية آلاف رقبة، وأعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألف رقبة^(٢).

١٥- أن ما بأيدينا من المال هو من مال الله عز وجل، منحنا الله إياه، فلا ينبغي أن نبخل في أداء حق الله فيه، والإنفاق منه في طرق الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾.

١٦- تحريم جعل الإماء سلعة للكسب الحرام بالزنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَبَيِّتِكُمْ عَلَىٰ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥٦/٦، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١٨٨.

(٢) انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص ١٨٨-١٨٩.

أَلْبَعْلَاءَ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَعُوهَا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٢﴾، وسواء أردن التحصن أو لم يردنه فكل ذلك محرم لا يجوز؛ لأن الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لبيان الواقع، وهو أنهم كانوا يكرهونهم مع أنهم يردن التحصن والعفاف، وعلى هذا فلا مفهوم لهذا الشرط.

١٧- ينبغي أن يقول السيد لمملوكاته: «فتياتي» ولا يقول: «إمائي»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَتِكُمْ﴾، وفي الحديث: «لا يقل أحدكم عبدي وأمّتي وليقل: فتاتي وفتاتي»^(١).

١٨- لا ينبغي أن يكون العرض الدنيوي الزائف الزائل حاملاً على الوقوع في الفواحش وما حرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَبْتَعُوهَا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

١٩- التعريض بحقارة الدنيا كلها، وأنها بما فيها عرض زائل؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وسميت دنيا لدناءتها وحقارتها وقلة قيمتها بالنسبة للآخرة.

٢٠- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة ورحمة خاصة.

٢١- أن المكروه على فعل المعصية أيًا كانت لا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: غفور لهم، رحيم بهم.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

٢٢- تعظيم الله عز وجل لنفسه ولما أنزل من الآيات البيّنات، فأقسم سبحانه بنفسه على أنه أنزل آيات بينات؛ إقامة للحجة على الخلق، وإعذارًا وإنذارًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾، وقد أكدت هذه الجملة بالقسم، واللام، و«قد».

٢٣- إثبات علو الله عز وجل على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾، والإنزال يكون من

(١) سبق تحريجه.

علو. فله عز وجل علو الذات، وعلو الصفات.

٢٤- إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾. وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٢٥- في تسمية الله عز وجل لما أنزله بالآيات الإشارة إلى دلالة هذه الآيات على أنها من عند الله لأنها تدل بعظمتها، وإعجازها بألفاظها ومعانيها وأحكامها وأخبارها وصلاحتها لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، على أنها من عند الله، الذي له الكمال في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته، وعلى صدق من جاء بها.

٢٦- بيان الله عز وجل لما أنزله من الآيات بياناً تاماً شافياً كافياً، فهي بينة في نفسها ومبينة للحق من الباطل والهدى من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾.

٢٧- أن الله عز وجل هو الهادي الموفق لمن شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٢٨- إثبات المشيئة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾.

٢٩- أن صراط الله عز وجل وطريقه هو أعدل الطرق وأقومها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

﴿اللَّهُ﴾ علم على ذات الرب عز وجل، وهو أصل الأعلام، وأصل أسماء الله عز وجل، وتأتي أسماء الله عز وجل كلها تابعة له، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وغيرها. وقد يأتي تابعا؛ كما في قوله: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

لكنه لا يعرب صفة وإنما يعرب عطف بيان. ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً.

﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر لقوله: ﴿اللَّهُ﴾، أي: نور السموات والأرض بذاته وصفاته وآياته، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وذلك إذا جاء عز وجل لفصل القضاء.

وقال ﷺ: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن»^(١).

ولما سئل ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور، أنى أراه»^(٢).

وهو نور يليق بجلاله وعظمته، لا وكيف ولا يمثّل.

وقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٢٠، ومسلم في صلاة المسافرين - الدعاء في صلاة الليل ٧٦٩، وأبو داود في الصلاة ٧٧١، والنسائي في قيام الليل ١٦١٩، والترمذي في الدعوات ٣٤١٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٥، وأحمد ١/٣٥٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الإبان ١٧٨ - من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه» وأخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٨٢.

من خلقه»^(١)، أي: كل شيء.

وقال عز وجل عن القرآن: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]،
وقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] وقال عز وجل: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

فالقرآن روح به تحيا القلوب والأبدان وبدونه تموت، وهو نور في دياجير ظلمات الجهل والشك والكفر.

وأيضاً: هو سبحانه هادي أهل السموات والأرض، ومنور السموات والأرض، أي: موجد النور، وخالقه فيهما، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين معاً فهو عز وجل نور السموات والأرض، بذاته وصفاته وآياته، وهو هادي أهل السموات والأرض، ومنورهما، وخالق النور فيهما^(٢).
فما في السموات والأرض والكون كله من نور، حسيّاً كان أو معنوياً فهو منه عز وجل، ومن نوره.

ولا يجوز حمل الآية على المعنى الثاني وحده؛ لأن الله عز وجل وصف نفسه أنه نور السموات والأرض، وأن آياته نور، وصفاته نور، كما دلت على ذلك السنة، فوجب إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

وقصر الآية على المعنى الثاني تحريف للآية عن ظاهرها. وهذا منهج أهل البدع فرارا من وصفه عز وجل بالنور.

وينبغي أن يُعلم أن النور نوعان:

أ- نور ذاته عز وجل وصفاته وآياته. وهو صفة من صفاته عز وجل، وهذا غير مخلوق، قال ابن القيم^(٣): «فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- إثبات رؤية الله- سبحانه وتعالى ١٧٩ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٧٠، «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٧

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٦. وهكذا ذكر ابن تيمية- رحمه الله- أن مذهب السلف أن النور من

النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنی «.

ب- ونور آخر مخلوق منفصل بائن عن الله عز وجل وهو أيضاً نوعان:

١- حسی كنور الشمس والقمر والكواكب والمصابيح كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، ومنه النور الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢] وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمَمْنَا لَنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨].

٢- ومعنوي وهو ما يلقيه الله في قلب المؤمن كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفَةٍ فِيهَا إِضْيَاحٌ﴾ الآية، وقوله ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وذلك هو معرفة الله والعلم والإيمان^(١).

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفَةٍ﴾: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾، أي: شبهه ونظيره وصفته.

والمعنى: مثل نوره عز وجل الذي يقذفه في قلب المؤمن من نور الفطرة والإيمان والهدى والقرآن، قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله»^(٢).

وعن أبي بن كعب - رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفَةٍ﴾؛ قال: «فهو

أسماء الله وحجتها هذه الآية؛ لأن النور صفة كمال، خلافاً للجهمية. انظر: «تفسير سورة النور» لابن تيمية ص ١٦٦.

(١) انظر: «المفردات» مادة «نور».

(٢) أخرجه أحمد ١٧٦/٢ مطولاً وصححه أحمد شاكر ٦٦٤٤، وأخرجه الترمذي في الإيمان - ما جاء في افتراق هذه الأمة ٢٦٤٢ وقال: «حديث حسن»، والحاكم في «المستدرک» ١/٣٠ وصححه وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد) ٧/١٩٣ - ١٩٤: «رواه أحمد بإسنادين والبيهقي والطبراني ورجال أحمد إسنادي أحمد ثقات»، وصححه الألباني في «الصحيحة» ٣/٦٤ حديث ١٠٧٦.

المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره»^(١).

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «مثل هداه في قلب المؤمن»^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله^(٣): « وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه، من معرفته ومحبته، والإيمان به، وذكره، وهو النور الذي أنزله إليهم، فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم، وجوارحهم، وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكر، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا ».

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، وقال

تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨].

ولا يصح أن نقول مثل « نور الله » نور ذاته وصفاته وآياته كمشكاة؛ لأن الله لا مثل له لا في ذاته ولا في صفاته قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

فالدليل الشرعي وكذا العقل يمنع أن تشبه صفاته عز وجل بصفات المخلوقين. والمشكاة: هي الكوة في الحائط، وهي الطاقة غير النافذة، تجعل النور ينعكس ويجمع ولا يتبدد.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، أي: في المشكاة مصباح، والمصباح هو النور الذي في الفتيلة (السراج)^(٤).

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، أي: المصباح في زجاجة، تصفي نوره وتحميه وتقيه من الاضطراب وتزيده تألقاً، والزجاجة جرم شفاف.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٣٠٢، «وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩٥ - ٢٥٩٧.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٦١.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٤) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٠٧، «المعرب» للجواليقي ٣٥١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٢.

قوله ﴿الزَّجَاغَةُ كَأَنَّهَا﴾، الكاف للتشبيه، أي: كأنها في صفائها وإضاءةها. ﴿كوكبٌ دُرِّيٌّ﴾ قرأ الجمهور: (دُرِّيٌّ) بضم الدال وتشديد الياء، نسبة إلى الدر، وهو (اللؤلؤ والياقوت).

أي: ﴿كَأَنَّهَا كوكبٌ دُرِّيٌّ﴾، أي: شديد الإضاءة كالدر والياقوت، واللؤلؤ في الصفاء واللمعان. ومنه سميت الكواكب الدراري الخمسة: المشتري وزحل والمريخ وعطارد والزهرة.

وقرأ الكسائي وأبو عمرو: (دِرِّيٌّ) بكسر الدال مع المد والهمز.

وقرأ حمزة: (دُرِّيٌّ) بضم الدال مع المد والهمز.^(١)

والمعنى على القراءتين الأخيرتين مأخوذ من الدرء بمعنى الدفع؟^(٢).

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَذُرُّهَا الْعَذَابُ﴾ [النور: ٨]، أي: ويدفع عنها العذاب.

أي: كأنها كوكب دفع ورُمي به، والكوكب أشد ما يكون استنارة إذا رمي به، فهو يدفع الظلمة بشدة وقوة، لقوة نوره وشدة إضاءته، كما يدرأ ويدفع الشياطين.

والمعنى: أن الزجاججة في صفائها وإنارتها كالكوكب الدرري، في شدة صفائه وقوة بياضه وإضاءته ولمعانه، والذي يدفع الظلمة بشدة وقوة، لأن قوله: «دُرِّيٌّ» على وزن (فَعِيلٌ) صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة تدل على التعظيم.

﴿يُوقَدُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بقاء مفتوحة، مع فتح الواو والدال وتشديد القاف، فعلاً ماضياً: «توقد»، أي: توقد المصباح.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص بياء مضمومة، مع إسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدال على التذكير، فعلاً مضارعاً مبنياً للمجهول: ﴿يُوقَدُ﴾، أي: المصباح.

وقرأ الباقر كذلك إلا أنه بالتاء على التأنيث: «توقد»، أي: الزجاججة^(٣).

﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ﴾، «من» لابتداء الغاية، أي: يستمد وقوده من زيت شجرة

(١) انظر: «العناية في القراءات العشر» ص ٣، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٦١، «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٢.

(٣) انظر: «العناية» ص ٣٣٩، «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٢.

مباركة^(١). ولا بد من تقدير « زيت »، أي: من زيت شجرة، لأن الشجرة ليست هي الوقود، وإنما الوقود زيتها المعتصر من ثمرها.

﴿مُبْرَكَةٌ﴾، أي: ذات بركة كثيرة، وخير كثير، لأن الله بارك فيها. والبركة: الخير الكثير الثابت، ومنه سميت بركة الماء (بركة) لكثرة مائها وثبوته.

ومنه قوله تعالى عن نفسه: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى فيها حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]، وقوله عن البيت: ﴿مُبَارَكًا وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وقوله - تعالى عن ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

﴿زَيْتُونَةٍ﴾: بدل، أو عطف بيان من «شجرة»، أي: زيتونة من شجر الزيتون المعروف الذي يتخذ زيتة وقوداً، وإنما خص شجرة الزيتون، لأن زيتها هو أشد أنواع الوقود صفاء، وأعلاها وأقواها إضاءة ونورا.

﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: وصف للزيتونة أي: إنها في أعدل الأماكن وأوسطها وأسلمها من الآفات.

أي: في مكان مرتفع من الأرض (ربوة)، أو (جبل)، فلا هي شرقية في منخفض من جهة الشرق، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية في منخفض من جهة الغرب، فلا تصيبها الشمس أول النهار، ولا هي في طرف من الأرض فتصيبها الآفات، كما يقال «الأطراف أتلاف».

بل هي شرقية وغربية في ربوة أو جبل تصيبها الشمس من شروقها إلى غروبها، أو عند شروقها وعند غروبها، فهي في أكمل الأجواء، لا يعرض لها حر ولا برد مُضْرِن، تأخذ نصيبها كاملاً من منافع الشمس ودفئها، وتأخذ من كونها مرتفعة في ربوة أو جبل ما في ذلك من منافع، من التعرض للهواء، وطيب الأرض، وغير ذلك، فيجيء زيتها صافياً مشرقاً جيداً^(٢).

وهذا أمر مشاهد معلوم، فكلما كانت الأشجار من النخيل وغيرها تصيبها

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٢٥٨.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/٣١١-٣١٣، «تفسير ابن كثير» ٦/٦٢-٦٤.

الشمس عند غروبها وعند شروقها كان ثمرها أطيب وأجود.
﴿يَكَادُ زَيْتًا يُضِيَءُ﴾، «يكاد»، أي: يقارب زيتها يضيء، أي: يحدث إضاءة، وإنارة من شدة حسنه، وجودته وصفائه.

﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، أي: ولو لم يوقد هذا الزيت بنار، فكيف إذا أوقد بنار، فلا تسأل عن قوة إضاءته وإنارته.

﴿تُورُّ عَلَى نُورٍ﴾، أي: نور المشكاة، على نور المصباح، على نور الزجاج، على نور الزيت الذي يكاد يضيء دون إيقاد النار فيه، وكذلك نور القرآن، والوحي، والإيمان، على نور الفطرة الصحيحة، فهي أنوار متضاعفة يزيد بعضها بعضاً، مما ذكر، وغيره، مما لا يعلمه إلا الله.

قال ابن القيم^(١): «نور الوحي، ونور العقل، ونور الشريعة، ونور الفطرة، ونور الأدلة السمعية، ونور الأدلة العقلية».

وقال أيضاً: «فنور المصباح مستمد من نور هذا الزيت وتضاعفه المشكاة والزجاج، ونور الإيمان في قلب المؤمن مستمد من القرآن والسنة ويضاعفه العلم النافع، والعمل الصالح».

فقد شبه الله عز وجل في هذه الآية: الإيمان الذي يقذفه في قلب المؤمن بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، كأنها في قوة إضاءتها وصفائها كوكب من الدر، وهو اللؤلؤ، يدفع الظلمة بشدة، من قوة إضاءته وبياضه وصفائه، هذا المصباح أو الكوكب الدرّي يوقد من زيت شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية، ولا غربية، يكاد زيتها من شدة صفائه يضيء دون إيقاد.

وهذا يسمى تشبيه تمثيل، وهو التشبيه المركب من عدة أشياء، فالمشكاة يقابلها الصدر، فكل منهما يحيط بالنور؛ المشكاة تحيط بالنور الحسي، والصدر يحيط بالنور المعنوي، والزجاجة يقابلها القلب في صفاء كل منهما ورقته وصلابته، والمصباح يقابله نور الإيمان في كون كل منهما يحصل به الاهتداء ومعرفة الطريق، فبالمصباح يعرف الطريق الحسي، وبنور الإيمان يعرف الطريق المعنوي.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

ومادة نور المصباح زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن، زيتها في غاية الصفاء، ومادة نور الإيمان في قلب المؤمن من شجرة الوحي المباركة المتضمنة للهدى ودين الحق^(١).

وهذا المثل للتقريب فقط؛ لأن تشبيه المعقول بالمحسوس يراد به تقريب المعنى المعقول للأذهان، لا أن وجه الشبه في المشبه به أقوى، إذ لا إشكال في أن نور الإيمان والعلم في قلب المؤمن أشد وأبلغ وأقوى من نور المشكاة، وقد روي أن أبا تمام الشاعر المعروف أنشد الأمير أحمد بن المعتصم قصيدة يمتدحه فيها^(٢) قال فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
فقال له الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي وزير الأمير وخادمه: ما زدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب، والأمير فوق ما وصفت، فأجابه أبو تمام على الفور:
لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس^(٣)

فلما أخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين، فقال الفيلسوف: هذا لا يعيش بل

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٠.

(٢) أبو تمام اسمه حبيب بن أوس الطائي عاش (٤٣) سنة من ١٨٨ - ٢٣١هـ. انظر: «ديوان أبي تمام» ص ١١٣ - ١١٤، وانظر: «ديوانه بشرح التبريزي» ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠، «وفيات الأعيان» ٢/ ١٥، «سير أعلام النبلاء» ١١/ ٦٣ - ٦٩، «البداية والنهاية» ١٠/ ٣٠٠، «شذرات الذهب» ٢/ ٧٤.

ومعنى قوله: «إقدام عمرو... الخ البيت: تشبيه الأمير أحمد بن المعتصم بالشجاعة بعمرو بن معد يكرب من فرسان العرب، وشجعانهم، قدم على النبي ﷺ وأسلم، ثم ارتد مع الأسود العنسي فاستتابه أبو بكر رضي الله عنه، فتاب، وحسن إسلامه، مات سنة ٢١هـ، انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٤٥ - ١٤٦.

ومعنى قوله: «في سماحة حاتم»، أي: في سماحة حاتم الطائي وكرمه. «في حلم أحنف»، أي: في حلم الأحنف بن قيس، الذي يضرب به المثل في الحلم والسؤدد. أسلم في حياة النبي ﷺ ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته. «في ذكاء إياس»، أي: في ذكاء القاضي إياس قاضي البصرة. أي: أن هذه الصفات الأربع كلها قد اجتمعت في الأمير.

(٣) أي: لا تنكروا تشبيهي له بمن هو دونه «مثلاً شروداً»، أي: مثلاً فيه بُعد «في الندى والباس»، أي: في الكرم والشجاعة في القتال «فالله قد ضرب الأقل...» الخ أي: أن الله عز وجل مثل نور الإيمان في قلب المؤمن بالمشكاة فيها مصباح مع أن نور الإيمان في القلب أقوى وأعظم ونور المشكاة فيها المصباح أقل.

يأكل عقله جسمه^(١).

قال ابن القيم^(٢): «وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان: أحدهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير أن تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن. فتأمل صفة المشكاة، وهي كوة لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرّي في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً، من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها. فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الإله تعالى الذي وصفه في قلب عبده المؤمن، وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقليل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة: قلبه، شبه قلبه بالزجاجة لرفقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحس ويتحنن ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى.

قال بعض السلف: «القلوب آية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفها».

والمصباح: هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتّقد منها.

والنور على النور: هو نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي

(١) أي: أن هذين البيتين ليسا من ضمن القصيدة التي أعدها وإنما جاء بهما على البديهة. ولهذا قال الفيلسوف: هذا لا يعيش، بل يأكل عقله جسمه، أي: لفرط ذكائه وبديهته.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٩-٢٦١.

والكتاب، فيضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نوراً على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق، والحكمة قبل أن يسمع ما فيها من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور».

والمقصود بهذا التشبيه: المؤمن الإيذان المطلق، أي: الإيذان الكامل، لا الذي عنده فقط مطلق الإيذان، وهو الذي إيذانه ناقص، فإن النور ينتقص عنده بمقدار ما عنده من نقص في الإيذان، ويزيد هذا النور بقدر زيادة الإيذان، فإذا كمل إيذان الشخص ظهر له الحق من الباطل والغلث من السمين، وصار له بصيرة نافذة في الأمور وعواقبها لأنه ينظر بنور الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا اللَّيْلُ أَمْشُورًا إِنَّ تَنَقُّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر في أمور الدين والدنيا.

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها » الحديث (١).

ولهذا كان ﷺ يقول: « اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، واجعل لي نوراً » (٢).

وكان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله: « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مستقيم»^(١).

فنور الإيمان يزيد بقدر طلب العبد للهدى ودين الحق الذي أرسل الله به محمداً ﷺ.

كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، [الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩] وهو العلم النافع والعمل الصالح.

ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء العارفون بالله وبشريعته.

وبقدر ما يضعف طلب العبد للعلم النافع والعمل الصالح يضعف نور الإيمان عنده، ولهذا قال الشافعي^(٢) رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي

وأخبرني بأن العلم نور

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾: الهداية في الأصل تنقسم إلى قسمين:

١- هداية التوفيق والإلهام والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل، كما قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٢- هداية البيان والدلالة والإرشاد، وهذه عامة، فالله هاد بهذا المعنى، وكذلك رسله والدعاة إليه هداة بهذا المعنى.

وهناك هداية قدرية أعم منهما جميعاً وهي هداية كل مخلوق لما قدر وخلق له وهي أيضاً خاصة بالله، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَنْعَمَ بِكُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] أي: هدى كل مخلوق لما خلق له.

والمراد بقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾ هداية التوفيق والقبول الخاصة بالله عز وجل.

﴿لِنُورِهِ﴾، أي: لنور الإيمان والقرآن.

﴿مَن يَشَاءُ﴾: «من» موصولة، أي: الذي يشاء، أي: يوفق الله للإيمان الذي يشاء،

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧ - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٧٦.

أي: الذي يريد كوناً توفيقه، ممن تقتضي حكمته توفيقه، ممن أقبل على الله وصدقت نيته واتقى الله، كما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧]. ولهذا قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ [الليل: ٥-١٠]» (١).

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ لما ذكر عز وجل مثلاً لنور هداة في قلب المؤمن بالمشكاة فيها مصباح ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾. والأمثال: جمع «مَثَلٌ» وهو الشَّبه، أو جمع «مِثْلٌ» وهو الشَّبه، والأمثال: الأشباه والنظائر أي: كل شيء يشابه غيره.

والغرض من ضرب الأمثال تقريب الأمر إلى أذهان الناس، فيمثل الأمر المعنوي لتقريره وتقريبه بأمر حسي، كما في الآية هنا، حيث مثل الله الإيمان الذي يقذفه في قلب المؤمن، وهذا أمر معنوي بالمشكاة فيها مصباح.. الخ، وهو شيء حسي. وهذا كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٨]، [١٧]، وقوله: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقوله: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقد يمثل الأمر الحسي بأمر حسي آخر؛ لكون الأول غريباً أو منكرًا أو مستبعداً، والثاني معلوماً.

وقد يمثل أمر معنوي خفي بأمر معنوي أظهر منه ونحو ذلك. وضرب الأمثال وهي الأشباه والنظائر من نعم الله على العباد لزيادة الإيضاح والبيان للتذكر والتفكير والتعقل والاعتاظ والاعتبار وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] وما بعدها.

﴿وَاللَّهُ يَكْفُلُ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾، أي: إنه عز وجل بكل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، دقيقتها وجليلها، خفيها وجليلها، قليلها وكثيرها عليم.

ومعنى (عليم)، أي: محيط به علماً، ومن تلك الأشياء علمه بمن يستحق الهداية والنور ممن لا يستحق ذلك.

و(عليم) على وزن «فعليل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على أنه ذو العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم؛ ولهذا لما سُئِلَ موسى عن القرون الأولى قال: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً، فمن قال: عدد الرسل في القرآن خمسة وعشرون رسولاً، فهو عالم مدرك يدري ويدري أنه يدري. وأما من قال: لا أدري، أو قال: عددهم ثلاثون، فكلاهما ليس بعالم ولا مدرك. فالأول جاهل جهلاً بسيطاً؛ لا يدري ويدري أنه لا يدري، والثاني جاهل جهلاً مركباً؛ لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

والأول كحمار «الحكيم توما»، والثاني كالحكيم توما، الذي قال عنه حمارة فيما حكاه الشاعر:

قال حمار الحكيم توما لو أنصف الناس كنت أُرْكَبُ
لأنني جاهل بسيطٌ وصاحبي جاهل مُرْكَبُ
وذلك لأن «الحكيم توما» - فيما يقال عنه تصدق - بيناته على رجال بطريق الحرام، يريد بذلك الجنة؛ كما قال عنه الشاعر:

ومن رام العلوم بغير شيخ يضل عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليه حتى يصير أضل من «توما الحكيم»

تصدق بالبنات على رجال يريد بذاك جنات النعيم^(١)

ويؤخذ من قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ عِلْمُ اللَّهِ الواسع الشامل لكل شيء، ومن ذلك علمه عز وجل بمطابقة مورد المثل لمضربه، أي: مطابقة المثل للممثل به، ومطابقة المشبه للمشبه به.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أن الله عز وجل نور السموات والأرض؛ بذاته وصفاته، وآياته، وهو عز وجل منور السموات والأرض، وخالق النور فيها؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢- إثبات صفة النور لله عز وجل، وأنه نور السموات والأرض، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن «النور» اسم من أسمائه عز وجل، كما سبق بيانه.

٣- قوة نور الهداية في قلب المؤمن كامل الإيمان، ونفوذ بصيرته، ووضوح الطريق أمامه؛ لأنه يسير على نور من الله؛ لأن الله عز وجل شبه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح كامل الإضاءة والنور فقال عز وجل: ﴿مَثَلُ نُورٍ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

٤- تشبيه الأمر المعنوي بأمر حسي لزيادة البيان والإيضاح؛ لأن الله عز وجل شبه نور الإيمان الذي يلقيه - سبحانه وتعالى - في قلب المؤمن بالمصباح.

٥- جواز تشبيه الشيء بما هو دونه في وجه الشبه، فإن الله عز وجل شبه الإيمان في قلب المؤمن بنور المصباح، مع أن نور الإيمان أقوى وأقوى.

٦- أن كون المصباح في مشكاة وفي زجاجة صافية، ووقوده من زيت شجرة مباركة زيتونة في وسط ربوة كل ذلك مما يزيد في نوره وإضاءته.

٧- أن شجرة الزيتون من الأشجار المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾.

٨- أن كون شجرة الزيتون في وسط الربوة تصيبها الشمس عند شروقها وعند غروبها أجود لثمرها وأصفى لزيتها، وهكذا غيرها من الشجر كالنخيل وغيرها؛ لقوله

(١) انظر: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» ٣٣٨/٢، «الآداب» لابن مفلح ١٢٦/٢.

تعالى: ﴿لَا شَرِيْقَةَ وَلَا غَرِيْبَةَ﴾

٩- في اجتماع هذه الأنوار الحسية وهي نور المشكاة، على نور المصباح، على نور الزجاج، على نور الزيت الصافي يكون المصباح في أكمل إنارة؛ لقوله تعالى: ﴿تُوْرٌ عَلَىٰ تُوْرٍ﴾.

١٠- أن في اكتمال هذه الأنوار المعنوية نور القرآن، ونور الهداية والإيمان، ونور الفطرة في قلب المؤمن يكتمل نور الإيمان عنده؛ لقوله تعالى: ﴿تُوْرٌ عَلَىٰ تُوْرٍ﴾.

فتراه يسير بنور من الله، يتكلم بنور من الله، ويفعل بنور من الله، ويترك بنور من الله نسأل الله التوفيق والهداية. كما قال تعالى في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجل التي يمشي بها...» الحديث^(١).

١١- اختصاصه عز وجل بالهداية والتوفيق لهذا النور؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَسَاءُ﴾ فمن أقبل على الله عز وجل وسعى في تحصيل هذا النور، بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه منحه الله عز وجل هذا النور.

١٢- ضرب الأمثال للناس بتشبيه الأمر المعنوي بأمر حسي تقريباً للأذهان، وزيادة في الإيضاح والبيان؛ لإقامة الحجة على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾.

١٣- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل وأنه سبحانه أحاط علماً بكل شيء، لقوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٤- الرد على القدرية الذين ينفون علم الله تعالى بأفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

(١) سبق تحريجه.

قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۗ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ۗ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) ۗ ۝ ﴾

قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب الحضرمي، وورش عن نافع، وحفص عن عاصم «بُيُوت» بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها في جميع القرآن^(١). وقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ يُسَبِّحُ ﴾، وقيل: متعلق بما قبله، وهو قوله جل جلاله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ كَمَشْكُوفَةٍ فِيهَا يَصْبَأُ ﴾ الآية. وفيه قوة من حيث المعنى؛ لأن نور الإيمان يستمد من تعظيم الله عز وجل وشرعه، ومن أعظم ذلك الصلاة في المساجد، كما قال ﷺ في الحديث: «الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك»^(٢).

والمراد بقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾: بيوت الله: المساجد؛ كما جاء في الحديث: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم»^(٣). ﴿ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾: الإذن ينقسم إلى قسمين:

١- إذن كوني: يلزم فيه وقوع ما أذن الله به، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله، كالأمر الكوني، والإرادة الكونية، فلا يمكن على هذا تخلف ما أذن الله به، وما أمر به، وما أراد. ومن الإذن الكوني قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/٢٢٦.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة- فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢٦٩٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانَ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

٢- إذن شرعي: لا يلزم فيه وقوع ما أذن به، ويلزم أن يكون محبوباً لله، كالأمر الشرعي، والإرادة الشرعية، وقد يتخلف متعلق كل منها.
ومن الإذن الشرعي قوله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩].
والمراد بالإذن في قوله هنا: ﴿أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ الإذن الشرعي، أي: أمر الله شرعاً أن ترفع.

والإذن الشرعي في الأصل يشمل الواجب، والمندوب، والمباح. فالإذن، بمعنى الأمر واجب أو مندوب، وبمعنى الرخصة مباح.
و«أن» وما دخلت عليه في قوله: ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: في أن ترفع، أي: أذن برفعها.
ومعنى: ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾، أي: تعظم ويُعلَى شأنها وقدرها رفعاً معنوياً بتعظيمها، وعمارها بالعبادة فيها، ورفعاً حسياً ببنائها، وعمارها، وتجهيزها، وتنظيفها، وتطيبها، واحترامها وتوقيرها^(١)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].
فتعظم المساجد بالعبادة فيها، بأداء الصلوات الخمس جماعة فيها، وبالذكر وقراءة القرآن وأداء الأذكار الواردة عند دخولها، وعند الخروج منها، وأداء تحيتها بصلاة ركعتين عند دخولها.

وبأخذ الزينة عندها، لقوله عز وجل: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وذلك بارتداء الملابس الجميلة والتنظيفة عند الحضور إلى المساجد، واستشعار المسلم أنه سيقف في الصلاة أمام ملك الملوك، فلا يليق أن يأتي إليها بأثواب رثة غير نظيفة، أو يأتي إلى الصلاة بقميص النوم، كما يفعله الكثيرون، وبخاصة في الحرم، ممن لا يستشعرون هذه المعاني، ولو أن أحدهم أراد الخروج إلى السوق، أو مقابلة أحد الموظفين، أو الذهاب لأي مناسبة لاستعد بأحسن الملابس، وأي مناسبة تفوق مناسبة الوقوف أمام الخالق العظيم ومناجاته.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٦٦

بل إن الكثيرين يتهاونون في الحرم ما لا يتهاونون في غيره من المساجد في أماكن إقامتهم، لا لشيء، وإنما لأنهم في الحرم لا يعرفون، بخلاف ما إذا كانوا في مساجدهم. وترفع المساجد وتعظم حسياً بينائها وتهيتها للمصلين، وتنظيفها وتطيبها وتبخيرها وتوقيرها واحترامها ونحو ذلك.

عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بنى لله بيتاً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في (الدور)، وأن تنظف وتطيب»^(٢).

ومعنى في (الدور) في الأحياء والحارات والديار، فعن سمرة - رضي الله عنه - قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في ديارنا، وأمرنا أن ننظفها»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن رجلاً أسود أو امرأة سوداء، كان يقم المسجد، فمات، فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات. قال: «أفلا كنتم آذنتموني به ذلوني على قبره، أو قال على قبرها، فأتى قبرها فصلى عليه»^(٤).

فالمساجد بيوت الله، وهي أحب البلاد إلى الله^(٥) وهي أشرف البقاع وأرفعها وأعلاها

(١) أخرجه أحمد ٢٤١/١ من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٣٨ من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - وأخرجه البخاري في الصلاة - من بنى لله مسجداً ٤٥٠، ومسلم في المساجد - فضل بناء المساجد والحث عليها ٥٣٣، والترمذي في الصلاة ٣١٨، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٣٦ - من حديث عثمان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة».

(٢) أخرجه أحمد ٢٧٩/٦، وأبو داود في الصلاة - اتخذ المساجد في الدور ٤٥٥، والترمذي في أبواب السفر - ما ذكر في تطيب المساجد ٥٩١، وفي الجمعة ٥٩٤، وابن ماجه في المساجد - تطهير المساجد وتطيبها ٧٥٨، ٧٥٩، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد ١٧/٥، وأبو داود في الصلاة - اتخذ المساجد في الدور ٤٥٦، قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ٣٣٩/١: «أخرجه أحمد بسند صحيح، وكذا رواه غيره بأسانيد جيدة». وصححه الألباني

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٥٨، وفي الجنائز ١٣٣٧، ومسلم في الجنائز ٩٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٢٠٣، وابن ماجه في الجنائز ١٥٢٧.

(٥) أخرجه مسلم في المساجد ٦٧١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قدراً^(١)، مما يوجب على المسلمين تعظيمها وعمارتها بالعبادة وبالبناء، وتطهيرها مما لا يليق بها وتنظيفها وتطيبها؛ لأن الله عز وجل أذن في رفعها وأمر به، وأمر بذكر اسمه فيها وذكر الله أشرف الأعمال، فشرف المساجد بشرف ذكر الله؛ لأنها مواضع الصلاة وذكر الله. ومن العناية فيها أن توضع بجانبها وعلى أبوابها دورات المياه للوضوء والتطهر، مع العناية بنظافتها.

ومن رفع المساجد، وتعظيمها، وتوقيرها، واحترامها، ونظافتها، وصيانتها: تطهيرها مما لا يليق بها من النجاسات الحسية، والمعنوية، وغير ذلك، فتطهر من بناء القبور فيها، لما في ذلك من الوسيلة إلى الشرك الذي هو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فإن كان المسجد بني على قبر هدم المسجد، وإن كان القبر حفر في المسجد نقل خارجه. ومن ذلك منع الجنب والحائض من دخولها، كما في الحديث: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد، فإني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب»^(٢).

ومن ذلك منع البيع والشراء وإنشاد الضالة فيها، فعن بريدة أن رجلاً أنشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي ﷺ: «لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له»^(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد

(١) ذكر في شرح معنى المثل « وافق شن طبقة » أن صاحب «شن» لما وصل إلى بلده وأراد أن يضيفه قال لـ«شن» أين أجدك؟ لكي يحضره معه إلى بيته ليضيفه، فقال «شن» تجديني في أرفع وأعلى مكان- وبعد أن بحث عنه في جميع الجبال والمرتفعات في البلد ولم يجده قالت له ابنته «طبقة»: اذهب تجده في المسجد فهو أعلى وأرفع مكان فذهب فوجده في المسجد ٠٠٠ الخ القصة.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٣٢، من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/ ١٧٠- بعد أن ذكر حديث أم سلمة- رضي الله عنها- بهذا المعنى، وأخرجه ابن ماجه في الطهارة ٦٤٥-: «قال أبو زرعة» الصحيح حديث عائشة».

(٣) أخرجه مسلم في المساجد- النهي عن نشد الضالة في المسجد. وما يقوله من سمع الناشد ٥٦٩، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٦٥.

فقولوا: لا ردها الله عليك» (١).

ومن ذلك أن لا تتخذ طريقاً، ولا يشهر فيها السلاح، ولا تقام فيها الحدود، ولا القصاص، ولا تتخذ سوقاً، وأن تجنب الصبيان والمجانين، والخصومات، ورفع الأصوات، واستعمال الجوّالات، التي تسمع منها النغمات الموسيقية، وأصوات الأجراس حتى حال الصلاة، كما يسمع فيها القيل والقال، والكلام الذي لا يليق ببيوت الله.

وما الفرق بين من يتكلم مع جلسه في المسجد وبين من يُكلم بالجوّال شخصاً خارج المسجد أو داخله إذا كان الكلام كما هو الغالب في أمور الدنيا ويشوش على المصلين وعلى المشتغلين بالذكر وقراءة القرآن، كل هذا لا ينبغي.

بل إن رفع الصوت في المساجد حتى في القراءة والذكر زيادة عن الحاجة لا ينبغي كذلك، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال ﷺ لأصحابه: «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» (٢).

وعلى هذا فلو كانت أصوات المكبرات في الأذان، والإقامة والصلاة بقدر الحاجة لكان أفضل وأسلم.

ولا ينبغي رفعها فوق الحاجة وبخاصة في الصلاة بما يشوش على المساجد الأخرى، ويؤذي جيران المسجد، فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ولقد بلغ الحال ببعض أئمة المساجد إلى أنه لأجل المبالغة في رفع صوت المكبر يخل

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٦٨، وأبو داود في الصلاة ٤٧٣، والترمذي في أبواب البيوع- النهي عن البيع في المسجد ١٣٢١، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٦٧.

وكذا روي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «نهى النبي ﷺ عن البيع والابتیاع في المساجد وأن تنشد الأشعار في المساجد» رواه الترمذي في أبواب الصلاة- كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد ٣٢١، وأبو داود في الصلاة ١٠٧٩، وأحمد ١٧٩/٢، ٢١٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٩٢، ومسلم في الذكر ٢٧٠٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٢٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٤، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٤، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

بالطمأنينة التي هي ركن من أركان الصلاة فتراه يتحرك يميناً وشمالاً وإلى الأمام والخلف يتتبع اللاقطة ويترك مع ذلك سنة النظر إلى موضع سجوده، فتراه رافعاً نظره أمامه لأجل اللاقطة مع أنها تلتقط الصوت من بعيد ومن قريب، وليس هناك ما يستدعي هذه المخالفات التي تخل بالصلاة؛ لأن صوت المكبر يكاد يصنع الأذان ويسمعه القريب والبعيد.

وأخيراً فإن من تعظيم المساجد حقاً ألا تكون متقاربة جداً، وألا يبنى مسجد بقرب مسجد، سواء كان عن حسن قصد، أو لأجل خلاف بين أهل الحي أو مضارة، أو لأجل رفع قيمة أرض يريد بيعها، أو لأجل تعيين الأبناء في وظائف المسجد، كما يفعله بعض الناس، أو غير ذلك.

والمصيبة أن بعض الناس يبنى مسجداً في مثل هذه الأحوال، أو لمثل هذه الأغراض، ومع ذلك يغرر بالمحسنين من أهل الفضل والبدل، وهذا أمر لا يجوز.

كما أن من العناية بالمساجد، وتعظيمها ألا تكون متباعدة جداً، بحيث تجد أحياء كاملة ليس فيها مسجد، كما هو الحال بالنسبة لبعض البلدان والمدن، فإن بُعد المسجد عن المصلين مما يحمل على الكسل والتهاون في صلاة الجماعة.

ويجب على الجهات المسؤولة عن المساجد في البلاد الإسلامية وغيرها أن تتولى تنظيم وضع المساجد وأماكنها بدقة.

وليس من رفع المساجد أن تزخرف، فقد قال ﷺ: «ما أمرت بتشديد المساجد» قال ابن عباس - رضي الله عنهما: «لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى»^(١).

أي: كما زخرف اليهود البيع، وزخرف النصارى الكنائس. وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة - بناء المساجد ٤٤٨، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٤٠ - من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما وذكره البخاري معلقاً في الصلاة - ببيان المسجد. انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩، وقال في «نيل الأوطار» ١/ ٣٣٦: «صححه ابن حبان. ورجاله رجال الصحيح». وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٤، و١٤٥، وأبو داود في الصلاة ٤٤٩، والنسائي في المساجد - باب المباهاة في المساجد ٦٨٩، وابن ماجه في المساجد - باب تشييد المساجد ٧٣٩، وذكره البخاري معلقاً - في الصلاة -

وأمر عمر- رضي الله عنه- رجلاً ببناء المسجد وقال: «أكنّ الناس من المطر، وإياك أن تحمّر أو تصفر فتفتن الناس»^(١).

ومما يؤسف له أن عناية كثير من المسلمين في كثير من بقاع الأرض في المساجد انصبت على تشييدها وزخرفتها، مع ضعف شديد بالعناية بعمارتها بعبادة الله عز وجل، وهي العمارة المعنوية التي هي جل المقصود.

عن علي- رضي الله عنه- أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهي من ذكر الله خراب، شر أهل ذلك الزمن علماءهم، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تعود»^(٢).

أقول: رضي الله عنك يا أبا الحسن، كأنك تنظر لحال الأمة اليوم، فهذه المساجد يتنافس في بنائها، وتشيدها، وزخرفتها، مع ضعف في عمارتها بالعبادة. وهاهم بعض المنتسبين إلى العلم كانوا من أسباب فتنة الأمة، واختلافها بجرأتهم على الفتيا، ومخالفة ما عليه سلف الأمة.

﴿وَيَذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ﴾، أي: يذكر فيها اسم الله عز وجل، بذكره عز وجل بأسمائه وصفاته، والثناء عليه وتعظيمه وتمجيده بالقلب واللسان، بالقراءة، والصلاة، والتحميد، والتهليل، والتكبير وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَيَذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ داخل ضمن قوله ﴿أَنْ تَرْفَعَ﴾؛ لأن من رفعها رفعها بذكر الله وأسمائه وعبادته فيها، بل هذا أعظم جوانب رفعها، ولهذا عطفه على ما قبله، من باب عطف الخاص على العام، لبيان أن المقصود الأعظم من جوانب رفعها أن ترفع وتعظم ويعظم قدرها وشأنها بذكر الله فيها بالعبادة.

بنيان المسجد. انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩، وصححه ابن خزيمة كما ذكر الحافظ في «بلوغ المرام» ص ١٨١، وصححه الألباني. قال أنس: «يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً» ذكره البخاري في الصلاة- بنيان المسجد.

(١) ذكره البخاري- معلقاً- في الصلاة- بنيان المسجد. قال: «وقال أبو سعيد كان سقف المسجد من جريد النخل، وأمر عمر ببناء المسجد، وقال: «أكنّ الناس من المطر، وإياك أن تحمّر أو تصفر فتفتن الناس».

انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٨٠.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾:

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «يُسَبِّحُ» بفتح الباء بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة يكون الوقف على قوله: ﴿وَالْآصَالِ﴾ وقفاً تاماً^(١).
وقرأ الباقر بكسرها بالبناء للفاعل^(٢).

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
فاجتمع في الآية إثبات الكمال لله عز وجل بقوله: ﴿وَيَذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ ونفي النقص عنه بقوله ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾.

والتسبيح كما أنه يدل على نفي النقص، وتنزيه الله عز وجل عن النقائص، والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، فقد يحمل على ما هو أعم من ذلك وهو العبادة كلها كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ فَسَبَّحَهُ﴾ [ق: ٤٠]، [الطور: ٤٩] أي: صلِّ له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ فَتَهَجَّدَ بِهِ بِنُفْسِهِ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] أي: صل صلاة الفجر وصلاة العصر، وكقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فالمراد بالتسبيح هنا العبودية لله والانقياد له، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وإذا حملنا التسبيح على معناه العام من تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وعلى الصلاة والذكر وقراءة القرآن وغير ذلك، فقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الآية تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَيَذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ﴾.

﴿لَهُ﴾، أي: لله عز وجل. ﴿فِيهَا﴾، أي: في البيوت التي أذن الله أن ترفع، وهي

المساجد.

﴿بِالْغُدُوِّ﴾: الغدو أول النهار، ما قبل الزوال ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، وهو

(١) انظر: «جامع البيان» ٣١٩/١٧ - ٣٢٠، «تفسير ابن كثير» ٧١/٦، ٧٢.

(٢) انظر: «النشر» ٣٣٢/٢.

آخر النهار، ما بعد الزوال.

وهذه الآية كقوله: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِشِيًّا ﴾ [مريم: ١١]، والعشي آخر النهار، والإبكار أول النهار، ومن هذا قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقوله: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، فيدخل في هذا صلاة الفجر، وصلاة العصر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩].

قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»^(١)، والبردان: الفجر والعصر.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا»^(٢) يعني: الفجر والعصر.

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»^(٣) يعني: الفجر والعصر.

كما يدخل في ذلك سائر أذكار وتسيبحات الصباح والمساء.

وقد يحتمل قوله: ﴿ بِالْغَدَاةِ وَالْأَصَالِ ﴾ جميع الأوقات، كما في قوله تعالى عن طعام أهل الجنة: ﴿ وَهُمْ رَزَقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعِشِيًّا ﴾ [مريم: ٦٢] فالمعنى لهم رزقهم فيها على الدوام في جميع الأوقات.

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥ - من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧ - من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١ - من حديث عمارة بن رؤيبة عن أبيه رضي الله عنه.

فيدخل في عموم التسبيح الصلوات الخمس المفروضة، وغيرها من النوافل والأذكار، في جميع الأوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِي اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا نُلَيْهِمْ جَنَّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا نَّنْقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧).

قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لقوله «يُسَبِّحُ» على قراءة من قرأ بكسر الباء الموحدة، وعلى قراءة «يسبِّح» بفتح الباء الموحدة يكون هذا الفعل مبنياً للمفعول، ونائب الفاعل «له»، و«رجال» فاعل لفعل مقدر، دل عليه الفعل المذكور كأنه قيل: من يسبحه؟ فقال: يسبحه رجال.

والرجال: هم الذكور البالغون، وكلمة «رجال» تدل على المدح والثناء، أي: رجال، وأي رجال، رجال، ونعم الرجال، لأن قمة الرجولة، وذروتها معرفة حق الخالق سبحانه وتعظيمه، وتعظيم حقوقه وحرماته، وهذا قمة الفخر والعظمة الإنسانية.

قمة الرجولة أنه إذا سمع المؤمن حي على الصلاة، حي على الفلاح قام مسرعاً فرحاً نشيطاً منشرح الصدر لسان حاله يقول: نادى منادي العظيم، نادى منادي المنعم - وهكذا كلما حضر واجب لله من صلاة أو زكاة أو صيام أو بر للوالدين وغير ذلك.

وليست الرجولة بكثرة الأموال والأولاد ولا بالمفاخرة بالأحساب، والأنساب، والمناصب، والجاه ونحو ذلك - مع البرود والتبذل تجاه حقوق الله عز وجل، والتقصير فيها أو التفريط حتى إنه ليقال للرجل: «ما أعقله وما أظرفه، وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» كما قال ﷺ (١).

وأي رجولة فيمن لم يعرف حق ربه وخالقه والمنعم عليه بسائر النعم، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال ابن كثير (٢) رحمه الله: «فقوله (رِجَالٌ) فيه إشعار بهمهم السامية، ونياتهم،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٧، ومسلم في الإيمان ١٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٧٩، وابن ماجه ٤٠٥٣ - من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٦/٧٢

وعزائمهم العالية، التي صاروا بها عمّاراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي الآية دلالة على مشروعية صلاة الرجال جماعة في المساجد، وقد دل القرآن على وجوبها في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢]، كما دلت على ذلك السنة في أحاديث متواترة^(١).

وإن مما يؤسف له ويندى له جبين كل مسلم غيور على دينه وأمته أن ينادي منادي الله عز وجل: (الله أكبر) وتقام الصلاة وكثير من المسلمين على فرشهم أو في بيوتهم، أو مشغولون هنا وهناك، مما يجعل قلب المؤمن يتفطر وتفويض عيناه دماً لا دمعاً على ما آل إليه حال المسلمين من التفريط في جنب الله، خالقهم ومربيهم بنعمه التي لا تحصى. كما قال الشاعر:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان^(٢)

ويُفهم من قوله: ﴿يَسِيحُ لَهُ فِيهَا بِالْأَغْدِقِ وَالْأَصَالِ﴾^(٣) رِجَالٌ ﴿أن النساء يسبحن ويصلين في بيوتهن، فلا تجب عليهن صلاة الجماعة، بل ولا تسن لهن، لكن إن حضرن إلى المساجد وصلين فيها فلا بأس؛ لقوله ﷺ في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن»^(٣).

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢].

(٢) هذا البيت من قصيدة مؤثرة لأبي البقاء الرندي يرثي بها الأندلس وأحوال المسلمين فيها لما ضيعوا أمر الله وسقطت على أيدي النصارى، فكانوا يبيعون ملوك المسلمين وهم يكون كالرقيق، ويستبيحون نساءهم. وما أهون الخلق على الله إذا هم أضاعوا أمره. وكنت أتذكر هذه القصيدة وهذا البيت خصوصاً عندما أخرج إلى الصلاة وأرى شارع الحي يكتظ بالسيارات الواقفة أمام البيوت إضافة إلى ما في داخل البيوت من السيارات، فإذا دخلت المسجد لم أجد فيه إلا رجلاً أو رجلين، وتقام الصلاة على أفراد يعدون بالأصابع لا يتجاوزون الستة، يصلون إلى العشرة في نهاية الصلاة. ولو صلى كل أهل الحي لاحتجنا إلى توسعة بعض المساجد، والله المستعان.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٩٠٠، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، وأبو داود في الصلاة ٥٦٦، ٥٦٧، والنسائي في المساجد ٧٠٦، والترمذي في الجمعة ٥٧٠، وابن ماجه في المقدمة ١٦.

وفي رواية: «إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها»^(١)، وفي رواية: «لا تمنعوا النساء أن يخرجن إلى المساجد»^(٢).

وعلى هذا فيجوز خروجهن إلى المساجد، ولا يجوز للأزواج منعهن إلا إذا خيفت الفتنة بهن أو عليهن، فيجب عليهن ألا يخرجن ويجب على الأزواج منعهن. عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «لو أدرك النبي ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن كما منعت نساء بني إسرائيل»^(٣).

روي أن عاتكة بنت زيد زوجة الزبير بن العوام - رضي الله عنهما - كانت تتردد على المسجد، وكان الزبير لا يحب خروجها إلى المسجد، لكنه لم يمنعها لنهي الرسول ﷺ عن ذلك فاحتال عليها ذات يوم، وكمن لها في الطريق، فلما مرت به ضرب على عجزيتها. فلما رجعت لم تخرج بعد ذلك. فسألها عن ذلك فقالت: كنا نخرج والناس ناس»^(٤).

قوله: ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ بَحْرَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾: هذا وصف ل(رجال) لأن الجمل بعد النكرات صفات.

ومعنى ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ بَحْرَةً﴾ أي: لا تشغلهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أي: شغلكم عن طاعة الله.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يُطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك.

وتطلق التجارة على ما هو أعلى وأعلى من تلك الأرباح الدنيوية، وهي الجنة أعلى السلع قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۗ ﴿١٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْدِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٣٨، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، والنسائي في المساجد ٧٠٦ - من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٩٠/٢، ١٤٠ من حديث ابن عمر - رضي الله عنه وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٩، ومسلم في الصلاة ٤٤٥، وأبو داود في الصلاة ٥٦٩.

(٤) انظر: «الإصابة» ٣٤٦/٤.

أَوْفَ يَعْتَدُوهُ مِنْ رَبِّ اللَّهِ فَاسْتَبَشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: ١١١﴾.
وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- : « ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(١).

قال ابن القيم^(٢) رحمه الله تعالى:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس بناها في الألف إلا واحد لا اثنان
﴿وَلَا يَبِّعُ﴾: معطوف على تجارة من باب عطف الخاص على العام؛ لأن البيع والشراء من أهم أنواع التجارة، وأغلبها، وأكثرها ربحاً، بخلاف غيرها من أنواع التجارة كالإجارة ونحوها.

والمراد بالبيع ما يشمل البيع والشراء معاً، فلا تلهيهم التجارة بعقودها المختلفة، من بيع وشراء وإجارة وغير ذلك، ولا تلهيهم بحفظها وصيانتها، ونقلها، وتنظيمها وترتيبها، وعد أرباحها وغير ذلك.

وإذا كانت التجارة والبيع- وهي من أهم المطالب الدنيوية- لم تشغلهم عن طاعة الله فغيرها من أمور الدنيا لا يشغلهم من باب أولى.

وفي الآية ما يدل على جواز الاتجار ما لم يشغل ذلك عن طاعة الله؛ لأن الله ذكر ذلك في موطن الثناء على هؤلاء الرجال.

بل إن الاتجار والبيع إذا كان لطلب الكفاف والاستعانة بالمال على طاعة الله فهو أمر مشروع.

﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ المراد بذكر الله: ما يعم جميع أنواع العبادات القولية، وال فعلية، والبدنية، والمالية، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأَنَّهُمْ ءَامُوا لَكُمْ وَلَا أُولَئِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ءَمَنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠ وقال: «حسن غريب».

(٢) انظر: «النونية» ص ٢٤٨.

﴿وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَآتِ الزَّكَاةَ﴾ هذا أيضًا من عطف الخاص على العام؛ لأن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة من ذكر الله عز وجل، وإنما خص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بعد قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والذي يعم كل ما يُتقرب به إلى الله لعظم منزلة الصلاة والزكاة، فالصلاة عمود الإسلام، وأفضل العبادات البدنية وأوجبها، والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم، وهي أفضل العبادات المالية وأوجبها.

وحذفت الهاء من «إقام» تخفيفًا، «وإقام الصلاة» بمعنى إقامتها إقامة كاملة مستقيمة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وهذه هي الحكمة من التعبير في القرآن والسنة النبوية بالأمر بإقامة الصلاة ووصف المؤمنين والمتقين بأنهم يقيمون الصلاة ونحو ذلك دون التعبير بالأمر بالصلاة أو وصف المتقين المؤمنين بأنهم يصلون ونحو ذلك.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾

[التوبة: ١٠٣] أي: ادع لهم.

وروي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ قائلاً: هل بقي من بر أبيي شيء أبرهما به بعد موتها؟ فقال ﷺ: «نعم: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقيهما»^(١).

والصلاة في الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مفتحة بالتكبير مختمة بالتسليم. والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس المفروضة التي يجب أداؤها جماعة في المساجد، وغيرها من النوافل التي يسن أداؤها في المساجد كتحية المسجد وغيرها.

﴿وَأْتِ الزَّكَاةَ﴾: إعطاؤها ودفعها لمستحقيها وإخراجها بطيب نفس بلا منٍّ ولا أذى. والزكاة في اللغة: النماء والزيادة والتطهير، سُميت بذلك لأنها تنمي المال وتزيده وتطهره وتقيه الآفات، وتطهر نفوس الأغنياء من البخل والشح، وتطهر نفوس الفقراء من الضغينة على إخوانهم الأغنياء، ومن اللجوء إلى السرقة، والبحث عن المال بالطرق المحرمة.

والزكاة في الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٤٢، وابن ماجه في الأدب ٢٦٦٤، من حديث مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

مخصوص.

وقد ذكر المفسرون - رحمهم الله - أن هؤلاء الرجال الموصوفين بما ذكر كان الواحد منهم إذا سمع النداء: حي على الصلاة، حي على الفلاح، والميزان في يده ألقاه وقام إلى الصلاة^(١). ولقد أحسن القائل:

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتماعاً وأقبح الكفرَ والإفلاس في الرجل^(٢)

فمع كونهم يشتغلون بالتجارة والبيع والشراء، ومع قوة الصارف لم يشغلهم ذلك عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لعظمة حق الله في نفوسهم، بخلاف من كان سائباً لا شغل له فإنه قد يأتي إلى المسجد لسد الفراغ فقط، ولو انشغل بأي أمر لرأيت منه تأخرًا وتشاغلاً عن الصلاة وغيرها، بل إن في عموم قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وقوله ﴿وَأَيْنَاءَ الزَّكَاةِ﴾ ما يدل على أن الرجال الموصوفين في الآية سخروا التجارة والبيع والشراء للاستعانة على طاعة الله، فإن قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يدخل تحته ذكر ما لله عز وجل من الحقوق المالية الواجبة والمستحبة، ومن أهمها الزكاة المذكورة بقوله: ﴿وَأَيْنَاءَ الزَّكَاةِ﴾، فهؤلاء سعوا إلى كسب المال والأرباح، وجعلوا ذلك مطية للدار الآخرة، فربحوا الصفتين.

أقول: الله المستعان! أين من هؤلاء الرجال الموصوفين بالآية من شغلهم التجارة والأموال والأولاد عن ذكر الله فخسروا الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

بل أين من هؤلاء الرجال من يفرطون في الذكر، وما يقربهم إلى الله، وفي الصلاة ويؤخرونها عن وقتها، ولا يحضرون إلى المساجد حتى تُقام الصلاة ويفوت أكثرها، ممن لم يشتغلوا بتجارة، ولا بيع، ولا شراء، وإنما باللغو واللغو واللعب، ولقد استفحل هذا الأمر في المسلمين حتى شمل كثيرًا من المنتسبين إلى العلم، بل وبعض الأئمة والمؤذنين - حكمة بالغة - فاجتنب أخي - بارك الله فيك - مسلك هؤلاء ومن قبلهم،

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٧٩/١٢، «تفسير ابن كثير» ٧٤/٦.

(٢) البيت لأبي دلامة. انظر: «ديوانه» ص ٧٧.

ولا تغتر بها عليه أكثر الناس، والزم طريق من وُصفوا بالآية. وفقني الله وإياك وجميع المسلمين لما يحبه ويرضاه!.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ هذا كما تقدم مما وُصف به أولئك الرجال، والخوف: توقع الأمر المكروه لأمانة معلومة أو مظنونة، و«يومًا» منصوب مفعول لـ«يخافون»، ولا يصح أن يكون منصوبًا على الظرفية، فيكون المعنى: يخافون في يوم؛ لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم - كما سيأتي بيانه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

أي: يخافون يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والعذاب؛ لصدق إيمانهم ويقينهم بذلك اليوم الموعود، ونكر «يومًا» للتعظيم والتخويف، أي: يومًا عظيمًا خيفًا، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمًا كَانَ سُوءٌ مُسْتَظِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

﴿تَنَقَّلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾؛ لشدة أهواله، و«تنقلب»، أي: تتحول وتضطرب. والتقلب: التحول والاضطراب، والانتقال من حال إلى حال.

فالقلوب بين الخوف والرجاء، بين الهلاك والنجاة، قد انخلعت من الصدور وبلغت الحناجر من شدة الخوف، قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٨].

والأبصار: تنقلب وتضطرب بين اليمين والشمال، وهنا وهناك، ولا تستقر على حال، كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْمَوْتُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدِيَهُمْ هَوَاءً﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ [الأحزاب: ١٠] وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩].

وشدة هذا اليوم وأهواله إنما هي على الكافرين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وقال عز وجل: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ١٠].

ولهذا قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ﴾ [الأنعام: ٨٢].
أي: فلا يخافون ذلك اليوم، بل هم في أمن وسعادة في الدنيا والآخرة. نسأل الله من فضله.

فهؤلاء الرجال مع كونهم يسبحون الله عز وجل في بيوت الله المساجد بالغدو والأصال، وكونهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هم مع ما هم عليه من هذه الصفات التي أثنى الله عز وجل بها عليهم، هم يخافون يوم القيامة، وما فيه من الأهوال، فجمعوا بين الإحسان والاستعداد بالعمل وبين الخوف، كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ رَاجِعَةٌ أُنْهَى إِلَيْهِمْ رُجُوعًا ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ هَاسِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

بخلاف من جمعوا بين التفریط والإساءة مع الأمن من مكر الله كما هو حال الكثير من الناس.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قوله: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُسَخِّرْ لَهُ﴾ أو بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أو بها معاً. و«اللام» في «ليجزئهم» لام العاقبة أي: يسبحون ويخافون وتكون عاقبتهم أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، فعملوا ما عملوا خوفاً من الله، فكانت عاقبتهم هكذا.

ويحتمل أن تكون هذه اللام لام التعليل، أي: يسبحون ويخافون لأجل أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، فعملوا ما عملوا خوفاً من الله ورجاءً فيما عنده، وهذه أكمل الأحوال، وهي حال الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين لهم، يعبدون الله رجاءً في ثوابه، وخوفاً من عقابه رجاءً في جنته وخوفاً من ناره.

خلافاً لغلاة الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رجاءً في جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما نعبد الله لذاته. وهذا باطل.

ومعنى «يجزيهم»: يثيبهم ويجازيهم، ويكافئهم.

﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾: «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: ليجزئهم الله أحسن ثواب الذي

عملوا، أو أحسن ثواب عملهم، بمضاعفة أجورهم.
«وأحسن» أفعل تفضيل.

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَلْبَتَّتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وفي الحديث القدسي: « كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به »^(١).
وإنما جعل الله الحُسن للعمل نفسه في ظاهر اللفظ مع أن المراد بالحُسن الثواب؛ للإشارة إلى أن الجزاء إنما هو على العمل نفسه وأنه من جنس العمل، وأن المرء كما يدين يُدان. قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].
﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: ويزيدهم على ثواب ما عملوه (من فضله) الفضل: الزيادة، وكل ما يحصل عليه الإنسان من دون مقابل يسمى فضلاً، أي: يزيدهم مما عنده من الفضل والزيادة في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا: زيادة الرزق وسعته ونحو ذلك، وفي الآخرة: النظر إلى وجهه الكريم كما قال عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة والثوبة الحسنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كما فسرها بذلك المصطفى ﷺ^(٢).
وأيضاً الزيادة لهم في الأجور قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٤، ومسلم في الصيام ١١٥١، وأبو داود في الصوم ٢٣٦٣، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٣٨ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيثار ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧ - من حديث صهيب رضي الله عنه. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥٨/١١، ١٦٠ - ١٦٢ من حديث أبي موسى وكعب بن عجرة وأبي بن كعب رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾: الرزق: هو العطاء، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ «من» موصولة، أي: الذي يشاء ويريد من عباده، وهذا يدل على أنه عز وجل يعطي ويمنع لحكمة؛ لأن مشيئته عز وجل مرتبطة بالحكمة.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: أنه عز وجل يعطي من يشاء العطاء الكثير الجزيل، فلا يحسب عليهم ما أعطاهم، بل يعطيهم أكثر مما يستحقون، ولا حد لعطائه ولا حصر، ولا ينفد ما عنده. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وليس معنى هذا أن الأرزاق غير مقدره، بل الأرزاق والآجال، حتى ذرات المطر والهواء وغير ذلك. كل ذلك مقدر كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وسُمي «ميكائيل» وهو أحد الملائكة بهذا الاسم؛ لأنه مُوكل بتقدير المطر والرزق وكيله، قال تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِإِقْدَارٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقد يؤخذ من الآية أن الإنسان ينبغي أن لا يدقق في تعداد وحساب ما ينفق حتى يبارك الله له في رزقه، ويسلم من البخل والشح، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وفي الحديث: «أَنْفَقَ يَا ابْنَ آدَمَ يَنْفَقَ عَلَيْكَ»^(١)، وفيه: «لا تُوعِي فِئْوَعِي اللَّهِ عَلَيْكَ، وَلَا تُحْصِي فِئْحِصِي اللَّهِ عَلَيْكَ»^(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «تُوفِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رَفِّ لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٢، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٣٣، ١٤٣٤- من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس ٣٠٩٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٥.

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم شأن المساجد ورفعة مكاتبتها عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾. وقد أثنى الله عز وجل على عمار المساجد فقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة: ١٨].

كما توعد عز وجل من منع ذكر الله في المساجد وسعى في خرابها قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤].

٢- الأمر برفع المساجد، وإعلاء شأنها وتعظيمها، رفعا معنويا بعمارتها بالعبادة فيها بالصلاة، والاعتكاف وقراءة القرآن وذكر الله عز وجل وغير ذلك. وبتطهيرها عما لا يليق بها من النجاسات الحسية والمعنوية، وما لا يجوز فيها من الأفعال والأقوال ورفعا حسيا ببنائها وتهيتها للمصلين، وتنظيفها وتبخيرها وتطيبها ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾.

٣- أن الإذن يأتي بمعنى الأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾، أي: أمر شرعا أن ترفع.

كما يأتي بمعنى الأمر الكوني، كما في قوله عز وجل: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٤- أن المقصود الأهم من رفع المساجد تعظيمها ورفعتها بالعبادة، وذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ فعطفه على ما سبق من عطف الخاص على العام تنبيها على أهمية الخاص؛ ولهذا قال عز وجل للمشركين: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَنْءًا أَمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٩]. وقال عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧].

٥- الحث والترغيب على تسبيح الله عز وجل، وذكره في المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُورِ وَالْأَصْوَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴾ وفي هذا جمع بين إثبات الكمال له عز وجل بذكره

وعبادته، ونفي النقص عنه بتسييحه.

٦- أن قمة الرجولة في القيام بحقوق الله عز وجل وعبادته، من الصلاة في المساجد وذكره عز وجل وتسييحه، لقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لَهُ فِيهَا بِاللُّغُوِّ وَالْأَصَالِ ۗ رِجَالٌ﴾، أي: رجال، وأي رجال، رجال بلغوا من الرجولة ذروتها، كما قال عز وجل: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٧- الإشارة إلى أوقات الصلوات الخمس في اليوم واللييلة، فمنها ما هو بالغدو وهو أول النهار، ومنها ما هو بالأصال، آخر النهار، وبالأخص صلاة الفجر، وصلاة العصر؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْقُدُوءِ وَالْأَصَالِ﴾، بل إن هذا قد ينتظم جميع الأوقات.

٨- مشروعية صلاة الرجال جماعة في المساجد، دون النساء لعدم ذكرهن.

٩- الثناء على هؤلاء الرجال المذكورين بعدم انشغالهم عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بتجارة أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾.

١٠- التعريض بدم الذين ينشغلون بالتجارة أو غير ذلك عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، ومن باب أولى التعريض بدم من ينشغلون عن الصلاة بلا شغل. والله المستعان.

١١- جواز الاتجار، وأن البيع من أعظم أنواع التجارة ومن أفضلها وأكثرها ربحاً، لهذا عطفها عليها من عطف الخاص على العام فقال: ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

١٢- فضل الصلاة والزكاة؛ لأن الله عطفها على قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فقال: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام؛ لبيان فضل الخاص.

١٣- أن المقصود الأعظم من الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لا أن تصلى صلاة صورية فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾.

١٤- أن الصلاة أهم العبادات البدنية، لهذا خصت بالذكر من بينها، وأن الزكاة أهم العبادات المالية، لهذا خصت بالذكر من بينها، وأنها القريبتان؛ فقد قرن الله بينهما

في القرآن في أكثر من اثنين وثمانين موضعًا.

١٥- في قوله: ﴿وَأَيْنَاءُ الزُّكُوفِ﴾ إشارة إلى أن الواجب على الغني أن يؤديها إلى الفقير وإلى غيره من أهلها، لا أن يأتي الفقير يطلبها هو أو غيره.

١٦- في تسمية الحق الواجب في المال زكاة إشارة إلى أن دفعه يزكي نفس الغني ويزكي المال ويزكي نفس الفقير.

١٧- جمع هؤلاء الرجال الذين امتدحهم الله في الآية بين تسبيح الله وذكره وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الخوف من يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

وهذا غاية الكمال أن يجمع المسلم بين العبادة ورجاء الله عز وجل، وبين الخوف من الله عز وجل وعذابه، فيجمع بين الإحسان والخوف، بخلاف حال كثير من الناس اليوم الذين يجمعون بين التقصير والإساءة والأمن من مكر الله. نسأل الله السلامة.

١٨- عِظَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالَهُ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ بالتنكير، ولقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، أي: تضطرب فيه القلوب وتزيغ الأبصار من شدة أهواله.

١٩- أن الجزء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

٢٠- وجوب حسن الظن بالله عز وجل ورجائه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

٢١- وعد الله للمؤمنين بالجزاء المضاعف والزيادة من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل يعطي من يشاء العطاء الجزيل من غير أن يحصي عليه ما أعطاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٢٤- يندب للإنسان في نفقته على نفسه وأهله ومن يعول أن لا يحصي ويعدد ما أنفق، فإن هذا قد يكون من أسباب قلة البركة، ولكن لينفق ويتوكل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كُرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لِيَجِيَّ بَغْسُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَحَابُّ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ بِهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أثنى الله عز وجل في الآيتين السابقتين على رجال بذكر ما هم عليه من جليل الصفات وفصائل الأعمال، وما أعد لهم من جزيل الثواب والزيادة والإفضال. ثم أتبع ذلك بذكر أعمال أهل الكفر والضلال ونهايتها وبطلانها، كما هي طريقة القرآن، جمعاً بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء.

وقد ضرب الله عز وجل في هاتين الآيتين مثلين لأعمال الكفار:-

الأول: بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كُرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

والثاني: بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لِيَجِيَّ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كُرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الواو استئنافية.

والكفر معناه لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمْثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أي: أعجب الزَّراع، ومنه سُميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسُمي وعاء طلع النخل بالكافور أو بالكفر؛ لأنه يستر ما بداخله من الطلع، وسُمي الليل كافراً؛ لأنه يستر الكون بظلامه، قال لبيد^(١):

يعلو طريقة متنها متواتراً في ليلة كفر النجوم غمائها
أي: سترها وغطاها.

(١) انظر: «ديوانه» ص ٣٠٩.

والمراد بالكفر في الآية الكفر الأكبر، المخرج من الملة، الموجب للخلود في النار، وهو قسمان:

١- كفر استكبار وإباء مع التصديق؛ ككفر إبليس - لعنه الله - قال عز وجل: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

٢- وكفر جحود وتكذيب كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، ومنه كفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر النفاق.

وقد يطلق الكفر على ما لا يُخرج من الملة، كمن حكم بغير ما أنزل الله محاباة لقريب، ونحو ذلك، فهذا يشمل قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] لكنه كفر دون كفر.

كما يطلق الكفر والكفران على جحود النعمة وعدم شكرها^(١).

﴿أَعْمَلْتُمْ كَسْرَابًا﴾، أي: أعمالهم التي يعملونها، سواء ما كان منها موافقاً للشرع وما كان مخالفاً.

«كسراب»، أي: صفتها في اضمحلالها كسراب. والسراب: ما يترأى للناظر عن بعد في وقت الظهيرة يسرب كأنه ماء يجري.

﴿بِقَيْعَةٍ﴾: جمع قاع، وهي الفلاة المنبسطة من الأرض.

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ أي يظنه «الظمان»، أي: العطشان ماءً، و«ظمان» على وزن «فعلان» من صيغ المبالغة يدل على الشدة، أي: الذي اشتد به العطش.

والسراب يراه الظمان وغير الظمان ويحسبه ماءً، لكن خص الظمان؛ لشدة حاجته وتلهفه إلى الماء ليبل منه صداه، ويذهب ما به من ظمأً، فهو يركض وراء هذا السراب، ويتبعه وكلما قَرَّبَ منه تباعد عنه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ «حتى» لانتهاه الغاية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، وضمير الهاء في «جاءه» «ولم يجده» يعود إلى قوله: ﴿كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ﴾، أي: جاء إلى السراب، أي: إلى موضعه الذي كان يشاهده فيه.

(١) انظر: «المفردات»، «لسان العرب» مادة: «كفر».

والمعنى: حتى إذا جاء الظمآن إلى مكان ذلك السراب الذي يظنه ماءً لم يجده شيئاً من الأشياء لا ماء ولا غيره؛ لأن السراب مجرد تخيل يتخيله الناظر وليس له حقيقة، بل هو عدم محض، فإذا اقترب الإنسان من مكانه الذي يظنه فيه تباعد عنه السراب، وهكذا حتى يموت عطشاً.

كما قال الشاعر:

فلما كففنا الحرب كانت عهدكم كلمح سراب في الفلا متألق^(١)

ولك - أخي الكريم - أن تتخيل دقة التصوير القرآني لهذا المشهد، وما مدى خيبة أمل هذا العطشان، الذي يظن السراب ماء، ويركض وراءه ثم لا يجده شيئاً، وماذا يعتلج في نفسه من الأهات والحسرات.

وهكذا أعمال الكفار سواء ما كان منها مما يُؤجر عليه المؤمنون، كالصدقات وإكرام الضيف والجار ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩].

أو ما كان منها من أعمال كفرية كالشرك والمعاصي.

وسواء كانت مما يزعمون أنهم يتقربون به إلى الله كاتخاذ الشركاء، فإنهم يقولون: ﴿مَتَّعْنَاهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، أو مما لا يعتقدون فيه ذلك، فإنهم لا يجدونها شيئاً، بل تكون هباءً منثوراً.

كما قال عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

ويتبرأ الشيطان وجميع المتبوعين من أتباعهم، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «جامع البيان» ١/ ٣٦٤، «أمالي ابن السجري» ١/ ٧٧.

دَعْوَتِكُمْ فَاسْتَجَبْتُ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَتُؤْمِرُوا أَنْفُسَكُمْ تَأْمَأَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَشْرَبُ بِمُصْرِحِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿[إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿[البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

بل قد جاء في الحديث الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن اليهود والنصارى بعدما يشتد عطشهم في الآخرة تمثل لهم النار كأنها سراب فيتساقطون فيها»^(١).

ومن عدله عز وجل أن الكفار يجازون في الدنيا على ما يقومون به من أعمال البر كالصدقات، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، والجار ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْشَوْنَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[هو: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿[الإسراء: ١٨].

وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»^(٢).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت: يا رسول الله، إن عبد الله بن جدعان كان في الجاهلية يقري الضيف ويفك العاني، ويصل الرحم، ويحسن الجوار فأثنت عليه، فهل ينفعه ذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «لا، إنه لم يقل يوماً قط: اللهم اغفر لي يوم الدين»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في التفسير - باب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مَثْقَالَ دَرَّةٍ﴾ الآية ٤٠ من سورة النساء ٤٥٨١،

ومسلم في الإبان - معرفة طريق الرؤية ١٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ١٢٠.

﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾، «الواو»: عاطفة، أي: وجد الله عند عمله، فالضمير يعود إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرِيمٍ﴾.

وقيل: وجد الله عند هذا السراب، على معنى أن مآل هذا الظمآن لما لم يجد الماء مع شدة العطش أن يموت فيلقى الله عز وجل، وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(١)، أي: لقاء الله بعد الموت.

﴿فَوْقَهُ﴾، أي: أعطاه، ﴿حِسَابَهُ﴾ جزاء أعماله، أي: فأعطاه جزاء أعماله وإيًّا غير منقوص، كما قال عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُقُهُمْ نَصِيبُهُمْ عِزًّا مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأن أجله آت، وكل آت قريب، ولأن العمر قصير والموت قريب. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال ﷺ: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٢).

كما أن من سرعة حسابه عز وجل أن يجد الإنسان في حياته شيئاً من آثار أعماله وجزائها، وهو أيضاً يحاسب الخلائق على وجه السرعة فلا يحتاج لوقت طويل لمحاسبتهم، بل حسابه لهم سريع، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

لأنه لا تخفى عليه خافية من أعمالهم، فلا يحتاج في محاسبته إلى فكر وروية لكمال علمه إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقد أخذ بعض أهل العلم من قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر ٢٦٨٣، والنسائي في الجنائز ١٨٣٦، والترمذي في الجنائز ١٠٦٦- من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩. وصححه الألباني.

مَقِيلًا ﴿ [الفرقان: ٢٤]، أنه عز وجل يحاسب الخلائق في نصف يوم، ثم نصف اليوم الآخر يكون أهل الجنة في مقيلهم فيها. نسأل الله من فضله.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلْمَتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَتْ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّهُ لِيُكَدَّ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿ [النور: آية ٤٠].

هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله عز وجل لأعمال الكفار. كما قال تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ صُمْ إِلَيْكُمْ عَمَىٰ فَبِمَا لَا يُرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴿ [البقرة: ١٧-١٩].

قوله: ﴿أَوْ كَظُلْمَتٍ ﴿ (أو) عاطفة، وهي للتقسيم والتنويع، أي: إن أعمال الكفار منها ما يشبه السراب، ومنها ما يشبه الظلمات.

وقيل: إنها للتخيير، أي: إن شئت شبه أعمالهم بالسراب، وإن شئت شبهها بالظلمات. وقيل: إنها بمعنى الواو تفيد معنى الجمع، أي: إن أعمالهم تشبه السراب والظلمات معًا. ولا يمكن أن تكون «أو» للشك؛ لأنه عز وجل منزه عن الشك، بخلاف الإنسان المخلوق الضعيف، فهو لضعفه قد يشك في كثير من الأمور.

والكاف في قوله: «ظلمات» للتشبيه، والظلمات جمع ظلمة، وهي المكان الذي تضعف فيه الرؤية وقد تنعدم تمامًا مع شدة الظلمة، وهي ضد النور.

﴿فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ البحر في الأصل: الماء الكثير، والمراد بالبحر هنا ما كان من البحار الكبيرة.

«لجى»، أي: عميق الغور، بعيد القعر، كثير الماء؛ لأنه كلما كان البحر أعمق غورًا، وأبعد قعرًا، وأكثر ماءً كانت ظلمته أشد، وهذا أمر معلوم للغواصين.

وسُمي «لجياً» نسبة إلى لجأة البحر، وهي قعره وبعده، وماؤه الكثير.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يغطيه موج، والموج: ما ارتفع من الماء على الماء بسبب الرياح.

﴿مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾، أي: يعلوه موج آخر من الأمواج المتلاحقة، أو المتلاطمة التي

هي أشبه شيء بالجبال يعلو بعضها بعضًا^(١).

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «موج».

﴿مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾، أي: من فوق الموج الثاني سحب، أي: غيم كثيف متراكب، وُسْمِي سَحَابًا إما لجرّ الرياح له، أو لجره الماء، أو لانجراره وانسحابه في مروره^(١)، فلشدة ظلمته كأنه ملاصق لتلك الأمواج، فيكون ما بينه وبين البحر ظلمة كالضباب.

﴿ظَلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وهي: ظلمة البحر العميق، وظلمة الموج الأول الذي يغطي البحر، وظلمة الموج الثاني الذي فوق الموج الأول، وظلمة السحاب والغيم، أربع ظلمات واحدة منها كافية في شدة الظلمة، فكيف إذا اجتمعت؟ وهذه الجملة لتوكيد الأمر وتعظيمه وتهويله.

وقد ضرب الله لأعمال الكفار في هاتين الآيتين مثلين:

أحدهما: بالسراب الذي يُظن أنه الماء مادة الحياة.

والثاني: بالظلمات المتراكمة المضادة للنور، ويحتمل أنها مثلان لصنف واحد، أي: فأعمال الكفار كلها كالسراب، وكالظلمات المتراكمة، أو أن المراد أن أعمال الكفار منها ما يشبه السراب، ومنها ما يشبه الظلمات في بحر لحي.

ومع اختلاف المثليين فإن الثاني عائد إلى الأول من حيث المعنى، فإن أعمال الكفار كلها باطلة حابطة وهباء منثور.

وقد اختلف في كيفية تنزيل الأعمال على هذين المثليين، فقليل إن الذين شُبهت أعمالهم بالسراب هم أهل الضلال والجهل المركب، الذين يجهلون الحق ويعادون أوليائه ويناصرون الباطل ويوالون أهله.

والذين شُبهت أعمالهم بالظلمات هم أهل الجهل البسيط.

أو بمعنى آخر أن المثل الأول للمتبعين وأئمة الكفر والدعاة إليه، والثاني للتابعين المقلدين.

وقيل: العكس إن المثل الأول لأهل الجهل البسيط، والمثل الثاني لأهل الجهل المركب. وقيل: المثل الأول في أعمال الخير فهي كالسراب، والمثل الثاني في أعمال الشر والمعاصي.

وقيل: المثل الأول لأعمال الكفار في الآخرة فهي كالسراب لا تنفعهم، والمثل

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة: «سحب».

الثاني لأعمالهم في الدنيا فهم يتخبطون في ظلمات الشبه والشكوك والشهوات^(١).
وحيث تعددت هذه الأقوال واختلفت ولا دليل على شيء منها فالأولى حمل الآية
على الاحتمال الأول، وهو أن أعمال الكفار تشبه السراب وتشبه الظلمات، وهم في ذلك
قسمان منهم من كان ضالاً، ومنهم من عرف الحق وتركه.

وقدّم الله قبل هذا حال من عرف الحق ممن نور الله قلبه بالهدى والإيمان وذلك بقوله:
﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْبَحْرِ مَثَلُ نُورِهِ الَّذِي يُلْقِيهِ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ﴾.
ففي هذه الآيات ضرب الله مثل الهدى والإيمان في قلب المؤمن بأنه كالمشكاة،
وضرب مثل أعمال الذين كفروا بأنها كالسراب والظلمات. والكفار فيهم المعاند
العارف للحق، وفيهم الجاهل، كما ذكر الله أقسام الناس في سورة الفاتحة: منهم منعمٌ
عليهم عرفوا الحق واتبعوه، ومغضوب عليهم عرفوا الحق وتركوه، وضالون عبدوا الله
على جهل، فهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج الناس عنها.
﴿إِذَا أُخْرَجَ بِكَذِّبُهُ﴾، أي: إذا أخرج الناظر وسط هذه الظلمات «يده» وهي أقرب
شيء إليه.

﴿لَتُرِيكَذِّبَتِهَا﴾، أي: لم يقرب من رؤيتها، أو لم يقرب أن يراها بسبب هذه الظلمات
المتراكم بعضها فوق بعض، وإذا كان لم يقارب رؤيتها فرؤيتها أبعد؛ لأنه إذا انتفت
المقاربة فانتفاء الرؤية من باب أولى.

وأفعال المقاربة كغيرها من سائر الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات.
فهؤلاء الكفار اجتمعت فيهم ظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة
الشك والإعراض عن الحق والنور الذي أنزله الله، فشبه اجتماع هذه الظلمات وتلاطم
أمواج الشبه والباطل في صدورهم بتلاطم أمواج هذا البحر.

وهكذا كل ما خالف الحق - وإن كان دون الكفر من البدع، والمعاصي - فذلك
كله سراب وهباء وظلمات في طريق صاحبه، لكن بعضها أهون من بعض، وهو باطل
مردود على صاحبه، كما جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال:

(١) انظر: «التفسير الكبير» ٨/٢٤، «البحر المحيط» ٦/٤٦١، «بدائع التفسير» ٢٦٢-٢٦٤، «تفسير ابن
كثير» ٦/٧٦-٧٧، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٤٢٧.

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١).

﴿وَمَنْ تَرَىٰ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ «الواو»: عاطفة، و«من» شرطية، «لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يجعل» مجزوم بها، وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين وهو بمعنى يصير، والجعل ينقسم إلى قسمين:

كوفي، ومنه قوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وشرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدَىٰ وَالْقَلْبَيْدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقوله ﴿وَمَنْ تَرَىٰ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾: يشمل الجعل الكوفي والشرعي. لأن النور في الآية في الموضوعين قد يُحمل على النور الحسي الذي هو ضد الظلمة، وهذا يناسب المشبه به في الآية، وهو الظلمات في بحر لحي، يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكده يراها، ثم قال: ﴿وَمَنْ تَرَىٰ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾، أي: نورًا حسيًا يبصر به في هذه الظلمات ونحوها، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. وعلى هذا فيكون «الجعل» كونيًا، لأن النور الحسي قد يعطيه الله من يجب ومن لا يجب، وقد يمنعه عن شئ منها كغيره من متاع الدنيا، وفي الحديث: «إن الله يعطي الدنيا من يجب ومن لا يجب»^(٢).

وقد يُحمل النور في الآية في الموضوعين أيضًا على النور المعنوي، وهو الهدى والإيمان، وهو يناسب المشبه، وهي أعمال الكفار فيكون الجعل شرعيًا، وهذا أظهر وأولى، فإن من لم يجعل الله له نورًا من الهدى والإيمان والبصيرة «فما له من نور» قال

(١) أخرجه البخاري في الصلح - باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢٦٩٧، ومسلم في الأفضية - نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ٣٨٧/١ - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - ، والحاكم في الإيوان ٣٣/١ وصرحه، ووافقه الذهبي. وقال أحمد شاكر في تحريجه للمسند: «إسناده ضعيف» ٣٦٧٢.

تعالى: ﴿فَاتِمَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾: جاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام و«بمن» المؤكدة، أي: فما له على الدوام أي نور وسط دياجير الجهل والكفر، ومن لم يهده الله ويوفقه إلى الطريق المستقيم فلا أحد يستطيع هدايته، كما قال عز وجل:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال عز وجل: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨، ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨، ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، [غافر: ٣٦]، وقال عز وجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلنَّبِيِّ قَوْلُهُمْ يَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال عز وجل: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيسًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ويلاحظ أن القرآن يفرد النور ويجمع الظلمات؛ لأن طريق الحق واحد، وطرق الباطل كثيرة متعددة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال عز وجل: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، أي: مثل نور الله عز وجل الذي يقذفه في قلب المؤمن بالهدى والإيمان كمشكاة، ولهذا يجب على الإنسان أن يجتهد في طلب هذا النور بتحري مرضاة الله عز وجل والقيام بحقوقه وسؤاله.

وكان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا ومن أمامي نورًا ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، واجعل لي نورًا»^(١).

قال ابن تيمية^(٢): «النور ينشأ عن امثال أمر الله واجتناب نهيه، وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء، فإن حفظ الحدود بتقوى الله يجعل لصاحبه نورًا، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا

(١) سبق تحريجه.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤ / ٣٨١.

اللَّهُ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِر لَكُمْ ﴿٢٨﴾ [الحديد: ٢٨].
 وضد النور الظلمة؛ ولهذا عقب ذكر النور لأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار
 وأهل البدع والضلال، فإن للسبيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهناً في البدن،
 ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق، كما روي عن ابن عباس، ويوضح ذلك أن
 الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ومثل أعمال الكفار بالظلمة.

وفي غير موضع من القرآن قرن الله أهل الهدى والضلال، وأهل الطاعة والمعصية،
 كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الْأَظْلَمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا
 الْحُرُّ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]، وقوله - تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ
 كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤].

فمن جعل الله له النور المعنوي، وهو نور الهدى والإيمان والتوفيق، فلا تسأل عن
 حاله فهو في جميع تصرفاته وتقلباته ويقظته ومنامه، في سفره وإقامته وفي جميع أمور
 دينه ودنياه يسير على نور من الله، ويمنحه الله عز وجل من التسديد والتهيؤ وانسراح
 الصدر ما لا يخطر على البال.

إن حضر واجب لله أو لعباد الله وفقه الله للقيام به، وإن وقع الناس في منهي
 حفظه الله من الوقوع فيه، يصرفه الله عز وجل عن مواطن الزلل والخطأ والخطر وإن لم
 يشعر، يصاب الناس بسبب ذنوبهم ومعاصيهم بالمصائب وينجيهم الله منها، وإن أصابه
 شيء من المصائب - حيث لا يسلم غالباً منها أحد - لطف الله به وهون عليه مصابه
 وأجره عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-
 ٣]، وفي الحديث القدسي قوله عز وجل: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما
 افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه
 الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها،
 وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١).

وما بالك بمن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله، وأعطاه ما سأل، وأعاده مما

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استعاذ منه، اللهم نسألك من فضلك.

لسان حاله كما قال الشاعر:

كالنسر فوق القمة الشمام
فعلام أخشى السير في الظلماء^(١)

سأعيش رغم الداء والأعداء
النور في جنبي وبين جوانحي

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، فقد ذكر الله عز وجل في الآيات ما أعده لأولئك الرجال المسبحين الذاكرين الله الخائفين من أهوال يوم القيامة من الجزاء الحسن والإفضال، ثم أتبع ذلك بذكر حبوط أعمال الكفار، وما هم فيه من الظلمات والشكوك والشبه والضلال.

٢- تشبيه أعمال الكفار في حبوطها واضمحلالها بالسراب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾.

٣- أن الكفار تضحل أعمالهم ويفقدونها في ساعة هم أحوج إلى الأعمال مثلهم كمثل الظمان يركض خلف السراب. وإنما خص الظمان بالذكر مع أن السراب يراه كل أحد لشدة حاجة الظمان وتلهفه إلى الماء؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوهُمْ كَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

٤- تشبيه القرآن للأمر المعنوي بالأمر الحسي، وضرب الأمثال لتقريب المعاني للأذهان.

٥- أن الله عز وجل حاضر وشهيد على أعمال العباد لا يخفى عليه منها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾.

٦- أن الله عز وجل يوفي كل عامل حسابه وجزاء عمله كاملاً، من غير نقص؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَهُ حِسَابُهُ﴾.

٧- سرعة حساب الله عز وجل ومجازاته لعباده؛ لأن حسابه وأجله آت، وكل آت قريب، ولأنه عز وجل محيط بأعمال العباد كلها، لا تخفى عليه منها خافية، فحسابه

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص ١١.

٨- لهم على وجه السرعة، لا يحتاج إلى مزيد وقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .
 تشبيه أعمال الكفار في تحبطهم في ظلمات الكفر والشبه والشكوك والشهوات بالظلمات في بحر عميق يعلوه موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَزْكَطُلْمَنِي فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طَلَمَتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا﴾ .

٩- أن النور يطلب من الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وهذا يشمل النور الحسي، والنور المعنوي، وهو الأهم للسلامة والنجاة من ظلمات الكفر والشكوك والشبه والشهوات. نسأله تعالى الهداية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ يَسُبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْعَةٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة صفات الرجال المؤمنين الذين يسبحونه في المساجد. ثم ذكر في هذه الآية تسبيح كل من في السموات والأرض والطيور صفات وهذا من ذكر العام بعد الخاص. وأيضاً فإنه لما ذكر ضياع أعمال الكفار وحالهم وضلالهم أتبع ذلك بيان أن جميع المخلوقات تسبح له خاضعة منقاداً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ يَسُبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْعَةٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الهمزة للاستفهام، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير والإثبات فالمعنى: قد رأيت، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَشَرَّكَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شرحتنا لك صدرك، وقوله: ﴿الَّذِينَ تَرَكَفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] أي: قد رأيت كيف فعل ربك بهم.

فمعنى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ يَسُبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: قد رأيت أن الله يسبح له من في السموات والأرض.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والمراد بالرؤية هنا الرؤية العلمية، أي: قد علمت سواء كان ذلك بطريق الوحي، أو عن طريق السماع. والمصدر المؤول «أن الله يسبح» في محل نصب سد مسد مفعولي «تري».

﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: «من» موصولة تفيد العموم، أي: جميع الذين في السموات والأرض من جميع المخلوقات من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات.

فكل مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ يَسُبِّحُ اللَّهَ - عز وجل - تسبيحاً حقيقياً بالقول، ومن ذلك: تسبيح الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن، وهذا معلوم لنا.

ومن ذلك: تسبيح الحصى في يده ﷺ، وتسبيح الطعام بين يديه ﷺ؛ كما في حديث

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»^(١).
ومن ذلك: تسبيح جميع المخلوقات من الحيوانات والنباتات والجمادات، فكل ذلك تسبيح حقيقي وإن كنا لا نفقهه، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحٌ لَّهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١، التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] أي: سبّحي، وقال تعالى: ﴿كُلُّ لَهُ قَانُونَ﴾ [البقرة: ١١٦، الروم: ٢٦].

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].
وقد قيل: إن المراد بتسبيح من في السموات والأرض والطير وجميع المخلوقات انقيادها لأمر الله الكوني ودلالاتها على وجوده عز وجل، وهذا خلاف ما دل عليه ظاهر الكتاب والسنة.

قال القرطبي^(٢): «فالصحيح أن الكل يسبح؛ للأخبار الدالة على ذلك. ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأبي تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا، وقد دلت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح

(١) أخرجه البخاري في المناقب - علامات النبوة ٣٥٧٩، والنسائي في الطهارة ٧٧، والترمذي في المناقب ٣٩٣٣. ومثل هذا حين الجذع كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «كان النبي ﷺ يجتذب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأثاه فمسح عليه» أخرجه البخاري في الموضوع السابق ٣٥٨٣. والترمذي في الجمعة ٥٠٥.

وكما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» أخرجه مسلم في الفضائل - فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٢٢٧٧.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠ / ٢٣٤.

كل شيء، فالقول به أولى».

وقال ابن تيمية^(١): «والصواب أن لها تسييحاً وسجوداً بحسبها».

وقدر دابن القيم القول بأن المراد بالتسييح دلالتها على صانعها من ثلاثين وجهاً^(٢).

كما أنه عز وجل يسبح ويعظم نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

[الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿سُبِّحْنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ

إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ سُبِّحْنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤].

كما أن أهل الجنة يسبحونه، قال تعالى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ

وَأُخْرَى دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وجاء التعبير في قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بـ«من» التي للعالم تغليياً للعالم على

غيره من سائر المخلوقات؛ لأن التسييح عند العالم أظهر، ولما ميز الله به الإنسان عن

غيره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

والأولى أن يقال: «من» للعالم، ولا يقال: للعاقل؛ لأن الله عز وجل أطلقها على

نفسه قال تعالى: ﴿ءَأَمِنُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، أي: ءأمتتم الله الذي في السماء

سبحانه^(٣).

﴿وَالطَّيْرِ﴾، «الواو»: عاطفة، و«الطير» معطوف على «من»، أي: وتسبحه الطير،

من عطف الخاص على العام.

و«الطير»: جمع طائر، كالركب: جمع راكب.

﴿صَفَّتْ﴾ حال من الطير، أي: حال كونهن صفات، أي: باسطات أجنحتهن

بالطيران بين السماء والأرض. والطيران: صف وبسط للأجنحة، وقبض وضم لها.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ٤٧/١.

(٢) انظر: (مفتاح دار السعادة) ٢٢٦/١.

(٣) انظر: «أوضح المسالك» ١٣٤/١، «ضياء السالك» ٤٢/١، «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء

وإنما خص الطير- والله أعلم- مع أنها تدخل في عموم قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ للتنبيه على عظم قدرة الله عز وجل في تمكين هذا الطائر من الطيران وإمساكه بين السماء والأرض، وصموده أمام الرياح الشديدة والباردة، كما قال عز وجل: ﴿أَوْلَدَّرُوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

كما أنه عز وجل يذكر في كتابه الأنبياء بأسمائهم غير منسويين، محمداً، وموسى، وإبراهيم، ونوحاً عليهم السلام وغيرهم، لكنه يذكر عيسى عليه السلام غالباً منسوباً لأمه «عيسى ابن مريم» للتنبيه على القدرة العظيمة في خلقه من أنثى بلا ذكر. كما أن في ذكر الطير وهن صافات أجنحتهن بالطيران دلالة على أن ما بين السماء والأرض يسبحه أيضاً.

وتسييح الطير بالمنطق والحال، أي بأنواع التسييح كلها قال سليمان عليه السلام: ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، أي: كل قد علم الله صلواته وتسييحه، أو كل من هذه المخلوقات قد علم صلواته وتسييحه حسب حاله اللائقة به، وذلك بتعليم الله له إما بطريق الرسل والوحي كالإنس والجن والملائكة، أو بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وهذا الاحتمال أرجح؛ لأن علم الله بأعمالهم مذكور في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

وكما أننا لا نفقه تسييح هذه المخلوقات فكذلك لا نفقه صلواتها، المهم أنها قد علمها الله وألهمها صلواتها وتسييحها، وقد يراد بصلواتها هنا الدعاء أو غيره.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله عليم بالذي يفعلون، أو والله عليم بفعلهم. أي: عليم بفعلهم وقولهم.

والواو في «يفعلون» للعالم غلب على غير العالم؛ لأن الصلاة والتسييح في العالم أظهر، ولأن العالم هو المحاسب والمجازى على عمله خيره وشره.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٨، «تفسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٢٨.

والآية فيها وعد ووعيد، وعد لمن فعل الخير، ووعيد لمن فعل الشر. أي: إن الله لا تخفى عليه خافية من أفعال الخلق وأعمالهم وسيجازيهم عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤٢).

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «الواو» استئنافية، و«الله» جار ومجرور خبر مقدم، و«ملك» مبتدأ مؤخر، وإنما قدم الخبر مع أن حقه التأخير؛ لإفادة الحصر، أي: والله وحده ملك السموات والأرض، فهو الخالق المالك لذلك، المدبر له سبحانه، وهو الذي منح الملوك ممالكهم، وهو المالك لهم ولما لكهم.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ هذا أيضًا فيه تقديم الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر.

أي: وإلى الله وحده المرجع والمآب، فمنه الابتداء فهو الخالق المالك المدبر، وإليه الانتهاء، قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وإذا كان عز وجل هو الخالق المالك المدبر منه البداية وإليه النهاية كان الواجب على الإنسان طاعته عز وجل وترك معصيته؛ إذ كيف يعصي الله من يرتع في ملكه، ويتقلب في نعمه، وإليه مصيره، ولهذا فإن في قوله ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وعدًا لمن أطاعه ووعيدًا لمن عصاه.

الفوائد والأحكام:

- ١- تقرير عظمة الله عز وجل، وأن كل من في السموات والأرض من المخلوقات يسبح له سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢- الإشارة إلى عظيم قدرة الله عز وجل في تمكين الطير من الطيران وإمساكه بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَفَقَتِ﴾.
- ٣- إلهام الله عز وجل وتعليمه لكل مخلوق صلواته وتسيحه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدْعَلَمٍ صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ﴾، أي: كل مخلوق قد علم كيف يصلي وكيف يسبح لله بتعليم الله عز وجل له فعلمهم سبحانه، وعلم ما يعملون.
- ٤- علم الله عز وجل بما يفعله الخلق سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وفي

هذا إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء.

٥- أن الله عز وجل وحده ملك السموات والأرض ملكاً وخلقاً وتديراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٦- أن المرجع والمآب ومرد الخلائق كلهم إلى الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَالِىَ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، وإذا كان مصيرهم إليه فسيحاسبهم على أعمالهم، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحداً.

* * *

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَاءَ كَانُوا بِهِ يَرْشِقُونَ وَمَا يَذُوقُوا إِلَّا أَلَمًا لَّيًّا وَمَا يَكادُ سَنَا بَرْقِهِمْ يُذْهِبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَاءَ كَانُوا بِهِ يَرْشِقُونَ وَمَا يَذُوقُوا إِلَّا أَلَمًا لَّيًّا وَمَا يَكادُ سَنَا بَرْقِهِمْ يُذْهِبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَاءَ كَانُوا بِهِ يَرْشِقُونَ﴾ الاستفهام للتقرير، لاقتراحه بالنفي، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له. والمعنى: قد رأيت. والرؤية كسابقتهما.

وجملة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُرْسِقُ سَحَابًا﴾ في محل نصب في تأويل مصدر سد مسد مفعولي «ترى». ومعنى ﴿يُرْسِقُ سَحَابًا﴾، أي: يسوقه، أو يسوقه برفق، ومنه قوله تعالى: ﴿بِضْعَةٍ مُّزَجَّجَةٍ﴾ [يوسف: ٨٨] أي: قليلة. والسحاب أحياناً يسير بسرعة، وأحياناً رويداً رويداً. فالثقل بالماء يسير ببطء، والذي لا ماء فيه يسير بسرعة، قال المتنبي^(١):

ومن الخير ببطء سبيك عني أسرع السحب في المسير الجهم
أي: الذي ليس فيه ماء.

وقال الآخر نثرًا: «وأثقل السحاب مشيًا أحفلها»، أي: المليئة بالماء.

﴿سَحَابًا﴾ جمع سحابة، وتجمع أيضاً على «سحب»، والسحاب: وعاء المطر.

قال ابن كثير^(٢) في معنى قوله: ﴿يُرْسِقُ سَحَابًا﴾: «يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاج».

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ السَّحَابَ فِي سَاطِعِهِ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْقِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

(١) انظر: «ديوانه» ص ١٦٧.

(٢) في (تفسيره) ٧٨/٦، وانظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة: «زجا» وكذا في «لسان العرب».

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَسُقْنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩] (١).

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر وورش عن نافع «يُولَف» بالتسهيل دون همز، وقرأ الباقون: «يُولَّف» (٢).

ومعنى ﴿يُولِّفُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يجمع بينه، فيجمع بعضه إلى بعض، ويجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة، وهذا أمر مشاهد، ترى القطع من السحاب تنشأ في السماء ثم ينضم بعضها إلى بعض وتتوسع حتى تسد الأفق.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا﴾ الركام والمركوم: ما جعل بعضه على بعض، أي: فيجعل هذا السحاب متراكماً متراكباً بعضه على بعض كالجبال، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].

وتراكم السحب يبدو ويظهر للناظر إليه من خلال منظر السحب الذي يشبه الجبال يعلو بعضها بعضاً، ومن كون بعض السحاب يسير بسرعة وبعضه يسير ببطء، ومن خلال حجب بعض السحب للكواكب دون بعض، ويظهر ذلك بجلاء لمن كان في الطائرة في الجو، يرى بعض السحاب تحته وبعضه فوقه.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾، أي: فتشاهد الودق يخرج من خلاله، وتعلم ذلك.

والودق: المطر، قال الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها (٣)

(١) ذكر الله عز وجل للرياح عدة منافع فيما يتعلق بالسحاب والمطر، منها التبشير به، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦]. ومنها تلقيح السحاب، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

قال عبيد بن عمير: «الرياح أربع: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواحق فتلقح السحاب» أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٣٦/١٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٦١٧/٨.

(٢) انظر: «المهذب» ٧٦/٢.

(٣) البيت لعامر بن جوين الطائي. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٤٦/٢، «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي: من خلال السحاب، و«خلال»: جمع خلل أي: من خلله وشقوقه وفتوقه، التي هي مخارج القطر من السحاب.
وقال الشاعر:

أثرن عجاجة فخرجن منها خروج الودق من خلل السحاب^(١)
وهذه المخارج هي أشبه شيء بالغرايبيل ينزل منها المطر، والتي جعلها الله لينزل منها المطر على هذه الكيفية قطرات متفرقات، فينفع ولا يضر؛ لأنه لو انصب انصبابًا بكميات كبيرة لأحدث ضررًا فيما ينزل عليه ولهذا سمى الله عز وجل السحاب بالمعصرات، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَّامًا﴾ [النبا: ١٤].

﴿وَيُنزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ «من» في قوله «من السماء» لا ابتداء الغاية.
﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ «من» أيضاً لا ابتداء الغاية، فهي بدل اشتغال من الأولى، أي: إن قوله: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ بدل من قوله ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقيل: إنها تبعية.
والمعنى - والله أعلم - وينزل من السحب التي في السماء، والتي تشبه الجبال كما يشاهد ذلك عند تراكم المزن بعضه على بعض للنظر من الأرض، أو في الطائرة.
وقيل: إنها جبال حقيقية خلقها الله كجبال الحجارة.

﴿مِنْ بَرَدٍ﴾: «من» صلة، أي: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى أي: وينزل من السماء من جبال فيها بردًا.
وقيل «من» تبعية أي: وينزل من السماء من جبال فيها بعضًا من برد.
وقيل «من» لبيان الجنس، أي: إن الجبال نفسها من برد.
وعلى هذا يكون مفعول ينزل محذوفًا، تقديره: ﴿وَيُنزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ بردًا.

والبرد: هو الذي ينزل جامدًا، وسمي بردًا لبرودته، أو لأنه يبرد الأرض أي يزيل

(١) البيت لبشر بن أبي حازم الأسدي. انظر: «ديوانه» ص ١٣٠، ورواية عجزه في «الديوان»: «كما خرجت من الغرض السهام». وانظر: «ديوان زيد الخيل» ص ٧٤، «باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن» ١١٣/٢، «النكت والعيون» ١١٣/٤.

ما عليها، ولهذا جاء في الحديث: «و اغسلني بالماء والثلج والبرد»^(١).

فهو عز وجل ينزل من السماء من جبال فيها، أي: في السماء بردًا، وهذا البرد أحيانًا يكون كثيرًا، وأحيانًا يكون قليلًا، أحيانًا يكون صغيرًا، وأحيانًا يكون كبيرًا، إلا أنه من رحمة الله عز وجل - غالبًا - لا يكون كبيرًا جدًا بحيث يهدم البناء، ويقتل الإنسان والحيوان، وقد يوجد هذا لكنه - والله الحمد - قليل، وأحيانًا يكون هذا القليل على الجبال، أو على أرض ليس فيها بناء ولا إنسان، وهذا أيضًا من رحمة الله عز وجل.

﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾ «الفاء» عاطفة، أي: فيصيب بهذا البرد؛ لأنه أقرب مذكور، الذي يشاء من عباده، فيتضررون بهذا البرد في حرثهم وممتلكاتهم وغير ذلك، ويصرفه بحكمه القدري وحكمته عن الذي يشاء من عباده، فيسلمون من ضرره. فالآية سبقت لبيان العقوبة لمن يصيبهم هذا البرد فيتضررون به والامتنان على من يصرفه عنهم فيسلمون من ضرره، وهذا ظاهر الآية، ويقويه قوله: ﴿وَيَصْرِفُهُ﴾ فإن هذه المادة غالبًا تستعمل لصرف الشر وما يضر، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَالْأَلْتَصَّرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَاءَ صَرَفُ عَنِّي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٥٠].

وقال تعالى في عذاب يوم القيامة: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ رَجِمَهُ﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنعام: ١٦].

ويحتمل أن المعنى: فيصيب بهذا المطر والبرد من يشاء رحمة لهم، ويصرفه عمن يشاء حرمانًا لهم^(٢).

وعلى كلٍ قد يكون المصاب بالبرد أو بالمطر والبرد معًا معاقبًا من جهة وممتنًا عليه من جهة أخرى، فيضره ذلك من جهة بعض المحاصيل، وينتفع به من جهة ارتواء الأرض ونباتها.

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٨، وأبو داود في الصلاة ٧٨١، والنسائي في الافتتاح ٨٩٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٠٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧٩ / ٦، «تفسير الكريم الرحمن» ٤٢٩ / ٥.

وقد يكون من صرف عنه معاقباً بصرفه عنه بحيث تجذب أرضه، وممتناً عليه من جهة سلامة الزروع والمحاصيل، فهو في آن واحد قد يكون نعمة ونقمة، والمهم: أن نعلم أولاً: أن العقوبات والمصائب كلها بسبب الذنوب والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وهذا كله مما يوجب علينا أخذ العظة والعبرة من هذه المصائب بالرجوع إلى الله عز وجل.

وأن نعلم ثانياً: أن الله عز وجل يختار لعباده ما يختار، فتارة يتليهم بالنعم وتارة يتليهم بالنقم؛ ليظهر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر، ومن يجزع، وليكون المؤمن دائماً بين الخوف والرجاء، فلا تطغيه النعم، ولا يقنط ولا ييأس من روح الله، ولا يجزع لما يصيبه من النقم، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

وقال ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب»^(١).

وقال ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تفيئه، ولا يزال المؤمن يصبه بلاء، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تُحصد»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٠- من حديث عبدالله بن كعب عن أبيه رضي الله عنه.

وقال ﷺ: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط »^(١).

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم^(٢)

﴿يَكَادُ﴾: يقارب، ﴿سَنَا بَرْقِي﴾، أي: ضوء برق هذا السحاب.

والبرق: هو ما يظهر من السحاب من بريق وإضاءة خاطفة، بين حين وآخر، وقد يكون متواليًا أحيانًا.

وقد يكون سببه - والله أعلم - ضرب الملك الذي يسوق السحاب، كما جاء في بعض الآثار، وذلك لا يتنافى أن يكون أيضا بسبب اجتماع سالب وموجب وحصول شحنة كهربائية.

قوله: ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الياء وكسر الهاء: «يُذْهِبُ بِالْأَبْصَارِ»، والباء على هذه القراءة صلة؛ كقوله: ﴿تَبَّتْ بِالذُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تبت الدهن. وقيل: بمعنى «من» والمفعول محذوف، والتقدير: يُذْهِبُ النورَ من الأبصار؛ كقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨]، أي: منها.

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾^(٣)، والباء على هذه القراءة للتعدي. والمعنى: يكاد ضوء برقه من شدة إضاءته ولمعانه وبريقه يخطف الأبصار ويزيلها، كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

والأبصار: جمع بصر، وهي: حاسة البصر.

وهذا أمر مشاهد أن السحاب الذي فيه برد يكون برقه أشد إضاءة ولمعانًا غالبًا.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: التقليب: تغيير الشيء من جهة إلى جهة.

وتقليب الليل والنهار منه ما هو حسي، ومنه ما هو معنوي.

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «المحرر الوجيز» ٤٣١ / ٢.

(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٣٣٢ / ٢.

فالتقلب الحسي: بالمعاقبة بينهما وإبدال أحدهما مكان الآخر، فالليل يعقبه النهار، والنهار يعقبه الليل، وبالزيادة في أحدهما والنقص من الآخر، أو جعلها متساويين، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧].

والتقلب المعنوي: بتغيير الأحوال التي تقع فيهما، فمن حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن أمن إلى خوف، ومن خوف إلى أمن، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، ومن صحة إلى سقم، ومن سقم إلى صحة، كما قال عز وجل: ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ ﴾ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿ [آل عمران: ١٤٠]، وقال عز وجل: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَبْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، أي: إن في إزجاء السحاب، والتأليف بينه، وجعله متراكماً، وإخراج الودق من خلاله، والإصابة به من يشاء، وصرفه عن من يشاء، وكون برقه يكاد يخطف الأبصار، وتقلب الليل والنهار «لعبرة»، أي: لدلالة وعظمة، دلالة على قدرة الله تعالى التامة وعظمته، وعظمة تبين أن دوام الحال من المحال، وأن كل شيء للزوال إلا الحي القيوم، كما قال عز وجل: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال عز وجل: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨].

ففي تعاقب الليل والنهار عبرة وعظمة ونعمة ومنة قال عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهَا أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

﴿لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، أي: لأصحاب البصائر والعقول السليمة، الذين يتفكرون في آيات الله الكونية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].
 وبين «الأبصار» في قوله «يذهب بالأبصار» وقوله هنا «لأولي الأبصار» جناس تام؛ لاتفاق الحروف واختلاف المعنى، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيَسْأَأَ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

وإنما خص أولي الأبصار؛ لأنهم هم الذين يتفكرون في آيات الله الكونية والشرعية. وأما من عداهم فإنهم لعدم انتفاعهم بعقولهم أشبه شيء بالأنعام، بل هم أضل منها، كما قال تعالى: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَدَجَاءَ كُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

الفوائد والأحكام:

- ١- تقرير قدرة الله عز وجل العظيمة على سوق السحاب والتأليف بينه، وجعله مترامماً بعضه فوق بعض، وإخراج المطر وإنزاله من خلاله، وإنزال البرد من جبال في السماء على من يشاء، وصرفه عمن يشاء، وما يخرج منه من نور البرق الذي يكاد لقوته يزيل الأبصار؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَى اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاطِرُ قَيْدِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾.
- ٢- لله عز وجل الحكمة التامة في إنزال المطر والبرد على من يشاء، وصرفه عمن يشاء، ابتلاءً واختباراً، وإنعاماً وانتقاماً، ورحمةً وعذاباً؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٣- قدرة الله عز وجل التامة وحكمته البالغة في قلب الليل والنهار؛ لقوله تعالى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.
- ٤- وجوب التأمل في عظيم قدرة الله عز وجل في سوق السحاب وتأليفه وتراكمه وإنزال المطر والبرد، وفي البرق، وفي قلب الله الليل والنهار، وأخذ العبرة والعظة من ذلك، وأن كل شيء إلى الزوال إلا من له البقاء سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

فدوام الحال من المحال، وهذه الأيام والليالي إنما هي مطايا للارتحال، وخزائن للأعمال، وتُذَكَّرُ بتقليبها بأن مآل هذه الدنيا إلى الزوال. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

٥- أن الذين يعتبرون ويتعظون ويتأملون في آيات الله الكونية والشرعية هم أصحاب العقول السليمة الذين دلتهم عقولهم إلى معرفة الله عز وجل والقيام بحقوقه؛ لهذا خصهم بالذكر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٤﴾﴾.

ذكر الله عز وجل آياته في العالم العلوي في الآيتين السابقتين، ثم أتبع ذلك بذكر آياته في العالم السفلي، وفي ذلك كله تنبيه وتذكير ودلالة على عظيم قدرته وكما لها.

قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف: «خالق كل دابة».

وقرأ الباقون: «خلق كل دابة»^(١).

أي: أوجد كل دابة، والدابة: تشمل كل ما يدب على الأرض من الحيوانات، وأصلها: «داب»، والهاء للمبالغة. وقيل: الهاء للواحدة، كبقرة وشاة.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَأْرُطَنَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ شَيْءٍ نُرِيدُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿مِنْ مَاءٍ﴾ كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

أي: وخلقنا من الماء كل شيء حي. وإن كانت هذه الآية تشمل النبات أيضًا.

فما يتوالد من الدواب والحيوانات فمادته ماء النطفة حين يلحق الذكر الأنثى، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥٠﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦١﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧٠﴾﴾ [الطارق: ٥٠ - ٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

وأما ما لا يتوالد، وإنما يتولد فمادته رطوبة؛ لأنه يتولد من العفونات والرطوبات المائية كالحشرات والديدان ونحو ذلك^(٢).

فكل ما يدب على الأرض من الحيوانات مخلوق من ماء، وأصل حياته من الماء على أي صفة كان خلقه.

وقد يكون هذا من باب التغليب فيخرج الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣١.

مَارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿ [الرحمن: ١٥]، وكذلك الملائكة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: « خلقت الملائكة من نور»^(١).

﴿فَمِنْهُمْ﴾ بضمير العقلاء و«مَنْ» الموصولة التي تستعمل للعالم يدل على دخول «البشر» في عموم قوله (كل دابة) وجاء التعبير بضميرهم تغليبا لهم على غيرهم من غير العقلاء ولو لم يدخل العقلاء لقال: (فَمِنْهَا ما يَمْشِي... الخ).

﴿مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ «من» موصولة، وهي في الأصل للعالم فجاء بها دون «ما» التي لغير العالم، إما تغليبا للعالم على غيره، أو على سبيل التبادل بينهما، ومجيء إحداهما مكان الأخرى.

والذي يمشي على بطنه من الدواب كالحيات والحيتان والديدان والزواحف. والمشي على البطن كما يسمى مشيا يسمى أيضا زحفاً وحبواً^(٢).

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾: كالإنسان والطير.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام، الأزواج الثمانية: الإبل والبقر والضأن والماعز، وكالخيل والبغال والحمير والسباع ونحو ذلك.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، أي: يخلق الله الذي يشاء خلقه من المخلوقات مما يمشي على ما ذكر، ومما يختلف عنه، مما يمشي على أكثر مما ذكر أو أقل منه.

وهذا يدل على أن ما جاء في الآية من ذكر الأنواع الثلاثة إنما هو على سبيل التمثيل فقط، وليس على سبيل الحصر، فهناك من الدواب ما يمشي على أكثر من أربع، وهذا أمر مشاهد معلوم.

وقدم في الذكر من يمشي على بطنه؛ لأنه أدل على كمال القدرة وأعجب ممن يمشي على رجلين، ومن يمشي على رجلين أدل على ذلك وأعجب ممن يمشي على أربع.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعدما ذكر عز وجل بعضاً من دلائل قدرته العلوية والسفلية، أكد عز وجل قدرته على كل شيء.

وأكد ذلك ب«إن»، وهي حرف توكيد ونصب، ويكون الجملة اسمية، وبتقديم

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق ٢٩٩٦ - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧٩ / ٦، «تيسير الكريم الرحمن» ٤٣١ / ٥، وانظر: «لسان العرب» مادة «زحف».

المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلق به، وهو ﴿قَدِيرٌ﴾ إذ الأصل قدير على كل شيء ٤.

و«القدير» على وزن «فعليل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على كمال قدرته عز وجل على كل شيء، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المسلمات: ٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفٌ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ، مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

الفوائد والأحكام:

١. أن الله خلق كل دابة مما يدب على الأرض من ماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾.

فأصل خلقة كل الدواب من الماء، فمنها ما هو من ماء النطفة، ومنها ما هو من الرطوبات والعفونات؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].
فمعنى الآية: أن كل شيء خلق من الماء، وليس معناها أن الماء ضروري لبقاء الحياة، كما يفهمه كثير من الناس.

٢. قدرة الله عز وجل الباهرة، وحكمته الظاهرة في اختلاف مشية هذه الدواب فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهِمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾.
٣. إثبات المشيئة لله تعالى وأنه عز وجل يخلق ما يشاء من المخلوقات من غير ما ذكر، وما يمشي على غير ما ذكر، وما ذكره في هذه الآية إنما هو أمثلة لبعض ما خلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

٤. إثبات قدرة الله عز وجل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦١).

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة جملة من الآيات الكونية العلوية والسفلية في السموات والأرض والدواب أتبع ذلك بيان أنه أنزل أعظم من ذلك، وهي الآيات الشرعية التي فيها الهداية للطريق المستقيم رحمة منه وامتناناً.

قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾: «اللام» واقعة في جواب القسم، و«قد» للتحقيق، والتقدير: والله لقد أنزلنا. والإنزال يكون من علو إلى أسفل، وضمير «نا» يعود إلى الله عز وجل فهو سبحانه وتعالى عالٍ فوق خلقه مستوٍ على عرشه.

﴿آيَاتٍ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة والدلالة، وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، وهي: القرآن الكريم. وهي المرادة هنا، وسُميت آيات لأنها علامة على وجود الله وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته وعلامة على صدق من جاء بها من عند الله ولما اشتملت عليه من الهدى الصالح لكل زمان ومكان، ولكل أمة، الدال على أنها من عند الله، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

كما أن الآية علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها.
والآية في الشرع: «القطعة من كلام الله عز وجل ذات بداية ونهاية منفصلة عما قبلها وعما بعدها، مندرجة تحت سورة من سور القرآن الكريم».

﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وخلف وحفص عن عاصم: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بكسر الياء مع التشديد اسم فاعل أي: بينات بأنفسهن، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الحديد: ٩]، ومبينات للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والخير من الشر، ولكل ما يحتاجه الخلق في أمور دينهم ودنياهم، كما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقرأ أبو عمرو ويعقوب ونافع وأبو جعفر وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: «مبينات» بفتح الياء وتشديدها^(١)، اسم مفعول، أي: أن الله وضحها وبينها وفصلها،

(١) انظر: «النشر» ٢/٢٤٨-٢٤٩.

كما قال عز وجل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].
 ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، كقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].
 المراد بالهداية هنا هداية التوفيق والقبول الخاصة بالله عز وجل، كما في قوله -
 تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: من يشاء الله هدايتهم، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وقوله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يدل على أنه عز وجل يفعل لحكمة، فيهدي من يشاء بفضله،
 ويضل من يشاء بعدله، وكل ذلك لحكمة؛ لأنه قيد الهداية بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ
 يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

فعل الإنسان أن يبحث عن أسباب الهداية فيفوق لها بإذن الله عز وجل، كما قال
 تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلنَّسْرِى﴾ [الليل: ٥-٧].

﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى طريق مستقيم، و«المستقيم» في الأصل هو أقصر
 خط يصل بين نقطتين، أي: يهدي إلى طريق لا عوج فيه ولا التواء، ويؤدي إلى السعادة
 والنجاة في الدنيا والآخرة بأخصر طريق، وأقرب وقت، وهو معرفة الحق والعمل به،
 وهو العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به محمداً ﷺ، كما قال عز وجل:
 ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]،
 [الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩].

ولهذا أمرنا الله بالدعاء بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة من الصلاة
 في سورة الفاتحة، وهو صراط الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
 فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا
 صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٤١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل على عظم ما أنزل من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِ
 مُبَيَّنَاتٍ﴾، أي: والله لقد أنزلنا.

- ٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.
- ٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾، وفي هذا الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.
- ٤- أن آيات القرآن الكريم في غاية الوضوح والبيان بينات بأنفسهن، موضحات للحق من الباطل، والحلال من الحرام وغير ذلك لقوله: (مُبَيِّنَاتٍ).
- ٥- أن هداية التوفيق إلى الصراط المستقيم خاصة بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
- ٦- الترغيب في سؤال الهداية من الله عز وجل وحده؛ لأن الهداية بيده وحده.
- ٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.
- ٨- أن أقوم الطرق وأعد لها وأقربها للسعادة والنجاة هو طريق الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْغُتُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أِفَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَمْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ۞

ذكر الله عز وجل صفات الرجال المؤمنين بقوله ﴿ فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ الآية، ثم ذكر الله الكافرين وأعمالهم بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ ﴾ الآيتين. ثم أتبع ذلك بذكر حال الصنف الثالث المذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وهم المنافقون.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ۞

قوله ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ «الواو» استثنائية، أي: ويقول المنافقون، ومرضى القلوب، وضعاف الإيمان^(١)، أي: ويقولون بألسنتهم. ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾، أي: صدقنا بالله وبالرسول.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه. والإيمان بالرسول ﷺ: شهادة أنه رسول الله ﷺ وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع. وأعاد حرف الجر في قوله «وبالرسول»؛ لبيان أنه يجب الإيمان بالرسول ﷺ إيماناً مستقلاً، فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله فليس بمؤمن. و«ال» في قوله «وبالرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود بالأذهان، وهو محمد ﷺ.

﴿ وَأَطَعْنَا ﴾، أي: انقذنا بجوارحنا لله ورسوله، بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن معنى الطاعة: الامتثال وموافقة الطلب بفعله إن كان مأموراً، أو تركه إن كان منهيّاً.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٣.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: ثم يعرض فريق وطائفة منهم عن الإيمان بالله والرسول فتخالف أعمالهم أقوالهم، ويقولون ما لا يفعلون.

﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: من بعد قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطَّعْنَا﴾.

وفيهم من قوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أن من القائلين: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطَّعْنَا﴾ فريقاً لا يتولى، بل يصدق بتلك المقالة.

﴿وَمَا أَوْلَيْتَكَ﴾ «الواو» حالية، و«ما» نافية والإشارة للفريق المتولي عن الإيمان، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الباء حرف جر زائد من حيث الإعراب مؤكد من حيث المعنى للنفي في قوله: ﴿وَمَا أَوْلَيْتَكَ﴾، أي: توكيد نفي الإيمان عنهم.

أي: وما أولئك الذين يتولون عن الإيمان بالله والرسول، وعن طاعة الله والرسول بالمؤمنين حقاً؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. ويحتمل أن المراد نفي أصل الإيمان عنهم، وهذا إذا كان إعراضهم إعراضاً مطلقاً، أو مما يكفر به المعرض.

ويحتمل أن المراد نفي كمال الإيمان الذي ادعوه، وهذا إذا كان إعراضهم بترك ما لا يخرجون بتركه عن أصل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤٨).

رُوي أن رجلاً من المنافقين يقال له بشر كانت بينه وبين يهودي خصومة، فقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، وقال اليهودي نتحاكم إلى محمد، فاتفقوا على التحاكم إلى عمر، ورُوي أن عمر - رضي الله عنه - قتل ذلك المنافق، وقيل غير ذلك^(١).

قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا﴾ «الواو» عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة. «دعوا»

الضمير الواو يعود إلى الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطَّعْنَا﴾.

﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: إذا دعوا إلى كتاب الله تعالى وإلى حكمه عز وجل.

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨١، «لباب النقول» ص ١٦٠.

«ورسوله»، أي: إليه ﷺ بنفسه في حياته، وإلى سنته ﷺ بعد وفاته. وعطف بالواو في قوله «ورسوله»؛ لأن المقام مقام الطاعة والحكم والتشريع، وهذا لا مانع فيه من عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله بالواو؛ لأن طاعة الرسول ﷺ وحكمه وشرعه من شرع الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه العطف بالواو؛ لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت»، «أو ما شاء الله وشاء محمد».

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت: فقال ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»^(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت. ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت»^(٢). وعن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: « ورب الكعبة؛ وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»^(٣).

وعن حذيفة - رضي الله عنه - : أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. وذكر ذلك للنبي ﷺ. فقال: «أما والله إن كنت لأعْرِفُها لكم. قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»^(٤).

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الكاف: «لِيَحْكُمَ».

وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الكاف: ﴿لِيَحْكُمَ﴾.

و«اللام» في ﴿لِيَحْكُمَ﴾ لام التعليل، أي: دعوا لأجل أن يحكم بينهم والضمير في

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه أحمد شاكر في تحريجه للمسند ١٨٣٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الكفارات ٢١١٧. وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في الأبيان والندور ٣٧٧٣، وأحمد ٦/ ٣٧١ - ٣٧٢. وصححه الألباني.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الكفارات ٢١١٨. وصححه الألباني.

قوله: «ليحكم» يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه المباشر للحكم بينهم، وهو المبلغ عن الله عز وجل فحكمه ﷺ بينهم هو حكم الله، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

ولهذا قال ﷺ لسعد بن معاذ- رضي الله عنه- لما حكم بيني قريظة أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبي ذراريهم: « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، أو من فوق سبع سموات»^(١).

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ هذه الجملة جملة جواب الشرط المتقدم، وصدرت بإذا الفجائية؛ لأنها جملة اسمية، وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية فلا بد أن يصدر بالفاء أو بإذا الفجائية.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ يفهم منه أن منهم فريقاً يقبل حكم الله ورسوله.

﴿مُعْرِضُونَ﴾، أي: عن حكم الله ورسوله، لا يلتفتون إليه، فهم متولون بأجسامهم، معرضون بقلوبهم، لا ينظرون لما تولوا عنه، فالمتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، بخلاف المعرض، فإنه لا يلوي إلى ما عرض عنه، ولا يلتفت إليه^(٢).

وفي تصدير الجملة بإذا الفجائية التي تدل على المفاجأة دليل على استكبار هؤلاء وعنادهم، وأنهم يفاجئون من دعاهم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بالإعراض من أول وهلة دون تروٍ وتفكر في الأمر، فكأنهم بيتوا في أنفسهم من ذي قبل رد حكم الله ورسوله والإعراض عنه؛ لأنهم مبطلون في دعواهم وظالمون، ويعلمون أنه ﷺ لا يحكم إلا بالحق، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿ [النساء: ٦٠-٦١]، إلى أن قال عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٤٣٣/٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، أي: وإن يكن لهم الحق في حكم الله ورسوله لم يعرضوا ولم يتولوا بل ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾، أي: إلى رسول الله ﷺ، أو إلى حكم الله ورسوله.

﴿مُذْعِنِينَ﴾ مسرعين منقادين طائعين ذليلين، والإذعان: سهولة الانقياد^(١).

فهم إن كان الحق ليس لهم - فيما حكم الله به ورسوله أعرضوا عنه سواء كان الحق عليهم أو لا عليهم ولا لهم، وإن كان لهم الحق في ذلك الحكم جاؤوا إليه مسرعين منقادين طائعين، ليس من باب الطاعة لحكم الله ورسوله والإيمان بذلك، وإنما لأن ذلك وافق أهواءهم حيث كان الحق فيه لهم، وهذا ليس من باب الانقياد لحكم الله ورسوله، وإنما من باب اتباع الهوى^(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ

بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴿الجاثية: ٢٣﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ

وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُ ﴿الحج: ١١﴾.

وقال تعالى في المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ

أَوْ وَرَوُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿المطففين: ١-٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ آذَانُ بُؤْسٌ أَمْ يَحَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ آذَانُ بُؤْسٌ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتفريع.

والمرض قسمان: مرض حسي يصيب الجسم كله، ومرض معنوي يصيب القلوب

والعقول، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴿البقرة: ١٠﴾﴾.

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن»، «لسان العرب» مادة «ذعن».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨٠/٦.

وهو أخطر الأمراض قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

والمرض المعنوي قد يكون:

مرض شهوة، وهو ثلاثة أنواع: مرض شهوة فرج، ومرض شهوة بطن، ومرض شهوة اتباع الهوى، وهو أشد أنواع مرض الشهوة، وهو المراد بقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. وقد يكون مرض شبهة وشك؛ وهو المراد بقوله: ﴿أَرَأَيْتَابُؤَاءُ﴾، وهو أشد من مرض الشهوة بجميع أنواعه.

و«أم» في هذا الموضع والذي بعده هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي هي للإضراب الانتقالي من كلام إلى كلام آخر دون إبطال الأول مع همزة الاستفهام الإنكاري. والتقدير: بل أرتابوا، أي: أشكوا في صحة نبوة محمد ﷺ، وفيما جاءهم به من عند الله، وفي صحة حكمه.

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾، أي: بل يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله يعني في الحكم، والحيف: الجور والظلم.

والمعنى: لماذا يعرضون عن حكم الله ورسوله إذا لم يكن الحق، لهم ويأتون إليه مسرعين منقادين طائعين إذا كان الحق لهم؟ أي قلوبهم مرض اتباع الشهوة والهوى، أم شكوا في صحة نبوته ﷺ وفيما جاءهم به من عند الله، واشتبه الأمر عليهم، ولم يتبين لهم الحق، أم يخافون من الجور في حكم الله ورسوله عليهم^(٢).

﴿بَلْ أَوْلِيَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «بل» عاطفة، وهي للإضراب الانتقالي.

والمعنى: ليس الحيف في حكم الله ورسوله ﴿بَلْ أَوْلِيَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لإعراضهم عن حكم الله ورسوله، بسبب مرض قلوبهم بالشهوة واتباع الهوى والريب والشك واتهام حكم الله ورسوله بالجور والظلم، فهم بهذه الأعمال هم الذين بلغوا الغاية في

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ - من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥ / ٤٣٤.

الظلم^(١).

ولهذا أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة جملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

والظلم لغة: النقص، قال تعالى: ﴿كَلَّمْنَا الْجِنِّينَ ءَأَنْتَ أَكْهَمًا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣].

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، أو على سبيل التعدي وهو نوعان:

١- ظلم الإنسان لنفسه بالمعاصي والذنوب وأعظمها الشرك بالله، وهو أظلم الظلم؛ لأن حق الله أوضح الحقوق وأبينها، قال لقمان لابنه: ﴿يَبْتَئِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٢- وظلم الغير، وهو أيضًا داخل في ظلم النفس؛ لأن ظلم الغير من المعاصي.

الفوائد والأحكام:

١- فضح المنافقين ومرضى القلوب وذمهم وبيان ترددهم وتذبذبهم فهم يدعون الإيـان بالله وبرسوله وطاعتها ثم يتولى فريق منهم فتخالف أفعالهم أقوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعنا ثم يتولَّى فريقٌ منهم من بعد ذلك﴾.

٢- أن من ادعى الإيـان والطاعة بقوله وخالف ذلك بفعله فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلِيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالإيـان قول وعمل واعتقاد، وليس مجرد قول باللسان، مع الإعراض بالقلوب والتولي بالأبدان^(٢).

٣- إعراض المنافقين ومرضى القلوب عن حكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

٤- وجوب الانقياد لحكم الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٤.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٥.

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل في مقام الطاعة
والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

٦- قبول المنافقين لحكم الله ورسوله إذا كان الحق فيه لهم، ورده إذا كان الحق عليهم؛
لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْمَقْتُلُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

٧- جمع المنافقين بين مرض القلوب والريب والشك، وعدم الاطمئنان إلى حكم الله
ورسوله والظلم؛ لقوله ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أُرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ
هُمْ الظَّالِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي وَتَعَفَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة المعرضين عن حكم الله ورسوله ما لم يكن الحق لهم، بين حال المؤمنين السامعين المطيعين لحكم الله ورسوله فيما لهم وفيما عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إنها: أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة. ونُصب «قول» على أنه خبر «كان» مقدم، واسمها «أن يقولوا»، أي: المصدر المقدر من «أن» والفعل بعدها، والتقدير: ما كان قولهم إلا هذا القول، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

والمعنى: إنما كان قول المؤمنين كاملي الإيذان الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم وأقوالهم بأفعالهم، وهو قولهم: سمعنا وأطعنا^(١).

﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: كالجملية السابقة «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة «دعوا» إلى الله، أي: إلى كتاب الله عز وجل وحكمه، «ورسوله»، أي: إليه ﷺ بشخصه في حياته، وإلى حكمه وسنته بعد وفاته ﷺ.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الكاف: «لِيُحْكَم».

وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الكاف: ﴿لِيَحْكُمُ﴾. و«اللام» للتعليل أي: لأجل أن يحكم بينهم، والضمير في قوله «ليحكم» كما سبق يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه المبلغ عن الله عز وجل والمباشر للحكم بينهم، وحكمه بينهم هو حكم الله عز وجل.

أي: ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من الخصومات، وفي الأحكام وغير ذلك، كما

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٥

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].

ومما يؤيد أن الضمير في قوله: ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمْ ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ قوله في الآيات بعد هذه الآية: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾.

﴿ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾، أي: سمعنا بأذاننا، «وأطعنا»، أي: انقذنا بجوارحنا، بفعل ما نؤمر به وترك ما ننهى عنه سواء كان الحكم لنا أو علينا.

وهذا بخلاف من قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾، [البقرة: ٩٣]، [النساء: ٤٦]، وبخلاف الذين قال الله عنهم: ﴿ وَلَهُمْ مَا أَذَانَ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وبخلاف الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٤٨) وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ.

فالواجب على المؤمن إذا سمع حكم الله ورسوله أن يسمع ويطيع ويرضى ويسلم، فإن الآية وإن كان ظاهرها الخبر، فإن معناها الأمر وإيجاب التحاكم إلى الله ورسوله، وإلى من حكم بحكم الله ورسوله من حكام المسلمين وقضاتهم، والرضا بذلك.

والله المستعان، قل أن تجد خصماً يخرج من المحكمة الشرعية راضياً إذا كان الحكم عليه، لاعن الحكم، ولاعن القاضي إلا من رحم ربك. كما قال ابن الوردي^(١):

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الحكم وهذا إن عدل
وقد قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

كما أنه أيضاً يجب التسليم والصبر والرضى لأحكام الله القدرية حتى يسلم الإنسان من الجزع والقلق والاعتراض على قضاء الله وقدره.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإشارة للمؤمنين القائلين سمعنا وأطعنا، وأشار إليهم بإشارة البعيد تشریفاً لهم، وأكد الفلاح وحصره فيهم بضمير الفصل وبالجملة الاسمية معرفة الطرفين.

والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المهوب^(١)، والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن من سمع لحكم الله ورسوله، وأطاع ورضي بذلك وسلّم انشرح صدره واستنار قلبه لقبول الحق، واطمأن وسعد وأفلح في حياته، بخلاف من لم يسمع لحكم الله ورسوله، ولم يطع فإنه يضيق صدره ويظلم قلبه ويعيش في حيرة من أمره. وهكذا الشأن بالنسبة لأحكام الله القدرية فمن رضي بها وصبر هان عليه أمرها واطمأن وسعد في حياته، ومن لم يرض بها وجزع كان نصيبه الجزع والقلق. أما السعادة في الآخرة فبالنجاة من النار والفوز بالجنة ورؤية العزيز الجبار قال تعالى ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

لما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، «الواو» عاطفة أو استئنافية و«من» شرطية جازمة «يطع» فعل الشرط مجزوم بها وعلامة جزمه السكون، وحذفت منه الياء لالتقاء الساكنين. والطاعة: موافقة الطلب بفعله إن كان أمراً، وتركه إن كان نهياً، أي: فعل المأمور، وترك المنهي، أي: فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله. ويحسن في مثل هذا المقام أن نحمل الطاعة على فعل الأوامر؛ لذكر التقوى بعدها. وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله بالواو؛ لأن هذا في مقام الطاعة والأمر والنهي، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨١/٦

﴿وَيُخَشِ اللَّهُ وَيَتَّقَهُ﴾: معطوف على «يطع». و«يخش» مجزوم بحذف حرف العلة الألف فأصله «يخشى»، و«يتقه» مجزوم بحذف حرف العلة الياء فأصله «يتقيه».
 قرأ حفص عن عاصم: «وَيَتَّقَهُ» بسكون القاف وكسر الهاء.
 وقرأ قالون ويعقوب الحضرمي: «وَيَتَّقَهُ» بكسر القاف والهاء.
 وقرأ ورش وابن كثير وخلف عن حمزة، والكسائي وخلف: «وَيَتَّقِيهِ» بكسر القاف والهاء مع إشباع كسرة الهاء.

وقرأ أبو عمرو وشعبة: «وَيَتَّقَهُ» بكسر القاف وسكون الهاء^(١).
 والخشية: بمعنى الخوف، بل أخص منه فهي خوف مع هيبة وتعظيم وإجلال؛ لأن من شرطها- كما يقول بعض أهل العلم- عِظَمُ المخشي وعلم الخاشي كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: يخافونه خوفاً مقروناً بتعظيمهم له مع علم ومعرفة. وقيل: الخشية من مُنَزَّلِ المكروه، والخوف يكون من نفس المكروه. والتقوى لغة: مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الأمر المخوف وقاية، تتقي البرد والحر والشوك ونحو ذلك.

وكلمة «تقوى» أصلها «وقوى» فقلبت الواو تاءً لعلة تصريفية، فقيل «تقوى». وأجمع ما قيل في معناها: «أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أو امره واجتناب نواهيه». وعطف «ويتقه» على قوله «ويخش الله» لأن التقوى نتيجة خشية الله، فعطفها على التقوى من باب التوكيد.

قال ابن كثير^(٢): «(وَيُخَشِ اللَّهُ) فيها مضى (وَيَتَّقَهُ) فيما يستقبل». وحيث ذكرت الطاعة قبل هذا ثم عطف عليها التقوى فيحسن في مثل هذا المقام أن تحمل التقوى على ترك النواهي^(٣)؛ لأن الطاعة والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افرقت وإذا افرقت اجتمعت كالفقير والمسكين، والإسلام والإيمان ونحو

(١) انظر: «التبصرة» ص ٦١١، «المهذب في القراءات العشر» ٧٧/٢.

(٢) في «تفسيره» ٨١/٦.

(٣) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٤٣٦/٥.

ذلك، وذلك لثلاثا يقال بالترادف، وتضيق فائدة العطف الذي هو في الأصل يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، سواء كانت المغايرة بين الذوات، أو بين الصفات، ولأن تأسيس معنى جديد أولى من التوكيد.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ جملة جواب الشرط، واقرنت بالفاء لأنها جملة اسمية. والإشارة لمن جمعوا بين طاعة الله ورسوله وخشية الله وتقواه، وأكد الفوز لهم وحصره فيهم بضمير الفصل «هم» ويكون الجواب جملة اسمية معرفة الطرفين.

وقوله: ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ كقوله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ بالفوز والفلاح: النجاة من المرهوب والحصول على المطلوب.

والفائزون: الذين ظفروا بالسعادة في الدنيا بالحياة الطيبة، والسعادة في الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة ورؤية العزيز الجبار. نسأل الله الكريم من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- امتداح المؤمنين والثناء عليهم في سرعة الانقياد والاستجابة والقبول والسمع والطاعة لحكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

٢- وجوب السمع والطاعة لله وللرسول ﷺ في الحكم وفي جميع الأحوال، وخشية الله عز وجل وتقواه.

٣- أن الفلاح والفوز وحصول المطلوب والنجاة من المرهوب ودخول الجنة والنجاة من النار بالسمع والطاعة لحكم الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله في جميع الأحوال وخشية الله وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

٤- الترغيب والإغراء في طاعة الله ورسوله، وخشية الله وتقواه لحصر الفوز فيمن اتصف بهذه الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُنْفِسُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُنْفِسُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ «الواو» استئنافية، «أقسموا بالله» حلفوا به.

والمراد المتخلفون عن الجهاد من المنافقين ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان^(١). كما قال الله عز وجل عن الكفار: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩١﴾ وَنُقِلَبُ أَفْسَدْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَرَّ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢].

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ جهد منصوب على الحالية أو المصدرية، أي: غاية أيمانهم.

أي: أقسموا بالله أو كد الأيمان وأغلظها، وطاقة ما في وسعهم وما يقدرون عليه.

﴿لَئِن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب القسم، واللام موطئة للقسم، أي: والله لئن أمرتهم في المستقبل بالجهاد في سبيل الله، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم الثاني وهو قوله: (لئن أمرتهم)، أي: والله لئن أمرتهم بالجهاد ليخرجنَّ إليه.

أي: إن هؤلاء حلفوا بالله الأيمان المؤكدة والمغلظة لئن أمرهم الرسول ﷺ بالجهاد ليخرجنَّ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وهذا ديدنهم اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة: ١٦]، [المنافقون: ٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَ وَكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴿١٦﴾﴾ [المنافقون: ١٦].

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨٢/٦، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٧٣٧.

[التوبة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعُرْضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]، ويبعثون وهم على هذا، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

والقسم إذا تضمن التزاماً من الإنسان لله كان جامعاً بين القسم والندر. وأما إذا قصد بالقسم مجرد تحقيق شيء دون الالتزام فليس بنذر، كأن يقول: والله لأخرجن إلى السوق، ونحو ذلك.

﴿قُلْ لَا تَنْفُسِمُوا﴾، أي: قل لهم يا محمد: لا حاجة أن تقسموا، أولاً داعي للقسم ولا مبرر له، ويؤخذ من هذا كراهة القسم إذا لم تدع الحاجة إليه. وفي الحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكاهم وهم عذاب أليم: أشميط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»^(١).

كما يؤخذ من هذه الآية كراهة النذر مطلقاً، بل ظاهر الآية تحريم ذلك. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تحريم النذر، وقد قال ﷺ في ذم النذر «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»^(٢)، والعقل والمعنى يقتضي ذلك؛ لأن العافية لا يعدها شيء، فكيف يلزم الإنسان نفسه في أمر لم يلزمه الله به، بل بأمر قد يعجز عنه، وقد يندم عليه، كما هو حال كثير ممن يندرون، ولا شك أن في هذا تكليفاً للنفس، بل وظلماً لها، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِقَافًا فِي

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي هريرة وسلمان رضي الله عنهما بسند صحيح - فيما ذكره شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب التوحيد. انظر: «فتح المجيد» ص ٤١٦ - ٤١٨.

(٢) أخرجه البخاري في القدر ٦٦٠٨، ومسلم في النذور ١٦٣٩، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٧، والنسائي

في الأيمان والنذور ٣٨٠١، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ، بِمَا آخَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿التوبة: ٧٥-٧٧﴾.
﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ طاعة: مبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: طاعتكم طاعة معروفة.

والمعنى: عليكم إذا أمرتم «طاعة معروفة»، أي: أن تطيعوا إذا أمرتم، ولا حاجة أن تقسموا أنكم إن أمرتم ستمثلون، بل امثلوا ما أمرتم به لأمر الله لكم بذلك ولا حاجة للقسم.

وأيضاً «طاعة معروفة» بأن تكون الطاعة بما عرف من الشرع من غير زيادة أو نقصان، وفي الحديث: «إنها الطاعة بالمعروف»^(١).

وقيل معناه طاعتكم معروفة، أي: قد علمت طاعتكم، إنما هي طاعة نفاق قول لا فعل معه، وكلما حلفتكم كذبتهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا آيَاتِنَاهُمْ هُجْرَةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

فهم من سجيبتهم الكذب حتى فيما يختارونه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتُوا لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

ولهذا قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعِذْهُم بِاللَّحْرِ وَالْجَمْرِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعَكُمْ أَبَدًا وَلَنْ نُقَاتِلَ مَعَكُمْ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «خير» على وزن «فعليل»، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة خبرته عز وجل.

والخبرة أخص من العلم، وهي: معرفة بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فالخير

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٥، ومسلم في الإمارة ١٨٤٠، وأبو داود في الجهاد ٢٦٢٥، والنسائي في البيعة ٤٢٠٥ - من حديث علي رضي الله عنه.

المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان عز وجل مطلعاً على البواطن والدقائق والخفيات، فاطلاعه على الظواهر وجلائل الأمور وجلياتها من باب أولى. ومن علمه بالبواطن علمه بما تخفيه صدور هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرهم الرسول ﷺ بالخروج للجهاد ليخرجن.

وقوله: «بما تعملون»، «ما» موصولة، أو مصدرية، والتقدير بالذي تعملون، أو بعملكم، أي: بأعمال القلب واللسان والجوارح.

وفي هذا ترغيب في عمل الخير وترهيب من عمل الشر، ووعد ووعيد، وأنه عز وجل سيجازي كلاً بما عمل، كما قال عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، أي: ير عمله وجزاءه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ سبق بيان معنى الطاعة، وأنها امتثال الطلب بفعله إن كان مأموراً، وتركه إن كان محظوراً، أي: أطيعوا الله والرسول بفعل ما أمركم الله به ورسوله وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وقوله: «وأطيعوا الرسول» بإعادة العامل، كما في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] يدل على أن طاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة بحيث تجب طاعته ﷺ فيما جاء في سنته وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم.

وطاعة الرسول ﷺ فيما جاء به من الكتاب أو السنة كل ذلك من طاعة الله عز وجل، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي: إن كل ما جاء به حق من عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

وعن المقدم بن معد يكرب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن

ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»^(١).

وفي هذا رد على الخوارج وبعض المعتزلة ومن سلك مسلكهم ممن يدعون إلى الاقتصار على القرآن دون السنة.

و«ال» في الرسول للعهد الذهني، أي الرسول المعهود المعروف بينكم، وهو محمد ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ «الفاء» استئنافية، «تولوا» أصلها «تولوا» وحذفت منه إحدى التاءين تخفيفاً^(٢).

والمعنى: فإن تعرضوا عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ «الفاء» رابطة لجواب الشرط، وضمير الهاء يعود إلى الرسول ﷺ و«ما» في الموضعين موصولة، أي: فإنما عليه الذي حمل وعليكم الذي حملتم، أو مصدرية أي: فإنما عليه حملة وعليكم حملكم.

وفي الآية مع بيان المطلوب منه ومنهم وعد لمن وفى بما عليه، ووعد لمن خالف ولم يف بما عليه.

والذي حملة ﷺ هو تبليغ الرسالة، وبيان ما أنزل إليه من ربه والدعوة إلى الله عز وجل كما قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ النَّبِيِّ﴾، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وليس عليه هداية القلوب وإنما ذلك بيد علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

(١) أخرجه أبو داود في السنة- لزوم الجماعة ٤٦٠٤، والترمذي في العلم ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ١٢،

وأحمد ١٣١/٤. وصححه الألباني.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٤

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده ﷺ، وقال ﷺ لأصحابه «ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد»^(١). وكادت نفسه أن تذهب حسرات على تكذيب قومه له حتى نهاه الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتِي^٥﴾ [فاطر: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَدِيعٌ قَلْبًا لِابْنَكَ تُبْدِيهِمْ وَمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. وبذلك حصل له في الدنيا الشؤدد والعز والتمكين له ولدينه وأمه، وله عند الله في الآخرة الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة في جنات الخلود عليه صلوات الله وسلامه.

﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾، أي: وعليكم الذي حملتم، وهو الاتباع والطاعة لله ورسوله، وإن توليتم فضرر ذلك عليكم.

فاختلف الناس في هذا كما قال عز وجل: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وسيجد كل من الفريقين عمله وثمرته غداً، قال: عز وجل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنًا لِّلرَّوَا أَعْمَلَهُمْ^٦﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ^٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

وفي قوله: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾ ما يشعر بعظم الحمل الذي حمله الرسول ﷺ في رسالته وبعثته إلى الناس عامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ قَيْلًا﴾ [المزمل: ٥].

ويشعر بعظم الأمانة التي حملها الإنسان، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ «الواو»: عاطفة، و«إن»: شرطية، «تطيعوه»: فعل الشرط وجوابه: «تهتدوا»، وكلاهما مجزوم بحذف النون.

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٧٤١، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣- من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

أي: وإن طيعوا الرسول ﷺ بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه «تهتدوا» إلى الطريق المستقيم، فطاعته عين الهدى لكم، كما قال تعالى عنه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٣﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[الشورى: ٥٢-٥٣].

والهداية إلى الطريق المستقيم بمعرفة الحق والعمل به، والعلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به محمداً ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] [الفتح: ٢٨] [الصف: ٩].

وهي النعمة الحقيقية والمطلب الأول لكل مسلم، كما قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿[الفاتحة: ٦، ٧]، بأن عرفوا الحق واتبعوه.

وهي الاعتصام بالله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].
﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ هذا تفسير لقوله تعالى فيما سبق: ﴿فَاتِمَّا عَلَيْهِ مَا حَمَلُ﴾. والبلاغ: الوصول إلى الغاية، يقال: بلغ كذا بمعنى وصل إليه، وفي قصة الثلاثة «لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»^(١).

والمعنى: ما على الرسول ﷺ إلا تبليغ رسالة الله عز وجل إلى المدعوين، والحصر هنا إضافي: أي ليس عليه فيما يتعلق بهم إلا تبليغهم الرسالة، أما هدايتهم فأمرها إلى الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].
لكن عليه ﷺ الطاعة والامتثال بنفسه.

وأما الحصر الحقيقي فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ [المائدة: ٣٣]، أي: ما لهم جزاء إلا هذا.

«المبين»: اسم فاعل، من «أبان» الشيء بمعنى أظهره ووضحه، ف«المبين»: المظهر الموضح لما دعا إليه وبلغه، ومن لازم ذلك أن يكون بيناً بنفسه، فهو بين بنفسه مبين لغيره.

الفوائد والأحكام:

١- حلف المنافقين الأيمان المغلظة والمؤكدة للرسول ﷺ بالخروج إلى الجهاد إذا أمرهم

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- مطولاً.

- بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.
- ٢- أن من أبرز صفات المنافقين إظهار الإيمان والانقياد باللسان، مع ما في القلب من إضرار خلاف الظاهر، وتأكيد وعودهم وعهودهم بالأيمان الكاذبة وعدم الوفاء بذلك.
- ٣- النهي عن القسم على فعل الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً﴾؛ ولهذا نهى ﷺ عن النذر- كما سبق ذكر ذلك- فالمطلوب من المؤمن أن يمثل أمر الله ورسوله دون أن يقسم على أنه سيمثل ذلك.
- ٤- أن طاعة المنافقين المزعومة إنما هي طاعة نفاق في الظاهر مع المخالفة في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾.
- ٥- إثبات خبرة الله عز وجل بأعمال المنافقين وغيرها من الأعمال الظاهرة والخفية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
- ٦- وجوب طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.
- ٧- أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً حتى فيما لم يرد في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بإعادة الفعل.
- ٨- تهديد من تولى عن طاعة الله ورسوله من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾.
- ٩- أن مهمة الرسول ﷺ التي حمله الله إياها هي تبليغ رسالة ربه، وليس عليه هداية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾.
- ١٠- الإغراء والحث على طاعة الرسول ﷺ، وأنها هي الطريق الوحيد إلى الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.
- ١١- تأكيد أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ المبين، وأن هداية القلوب بيد علام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

سبب النزول:

عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبنيت آمينين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾»^(١).

قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعدهم وعده الصدق الذي لا يتخلف، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

والوعد: بما يرجى من المحبوب والخير غالباً، يقال: وعد يعد وعداً، وقد يستعمل فيما يكره، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]، وهذا بخلاف الوعد فهو بما يخاف من المكروه والشر يقال أوعد يوعد وعداً، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

قال الشاعر:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ويأمن مني صولة المتوعد

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» كتاب التفسیر ٤٠١/٢ وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨٣/٧: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات». وانظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢١-٢٢٢، «لباب النقول» ص ١٦٠، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص ١٥١-١٥٢.

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدتي^(١) أي: لمخلف وعيدي بالشر، ومنجز موعدتي بالخير، أي: إن نهاية أمري إلى العفو والمسامحة وفعل الذي هو خير.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وأستهم. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك. وحذف الموصوف وهو الأعمال، وأقام الصفة مقامه إشارة إلى أن العمل ليس هو المهم، وإنما المهم أن يكون صالحاً مقبولاً، فكم من أعمال لا قيمة لها تذهب سدى وهباءً مثوراً؛ لفقدانها أحد شرطي صلاح العمل وهما: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، فلا يسمى العمل صالحاً إلا بهذين الشرطين، ويجمعها قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو محسن متبع ما جاء عن الرسول ﷺ.

﴿لَيْسَتْخَلْفَنَّهُمْ﴾: «اللام» واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله ليستخلفنهم في الأرض، وقيل: إن اللام واقعة في جواب الوعد على أنه بمنزلة القسم في كونه واقعاً ومحققاً لا محالة، والنون للتوكيد، فأكد هذا الوعد لهم بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد.

والاستخلاف في الأرض: النيابة عن الغير؛ لغيبته أو لعجزه أو لموته، أو لتشريف النائب وتكريمه؛ ليقم الحق في أرض الله، وهو المقصود من استخلاف المؤمنين. ومعنى «يستخلفنهم في الأرض»، أي: يجعلهم خلفاء يخلفون غيرهم في أرض الله الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: قرأ أبو بكر عن عاصم: «كما استخلف» بضم

(١) هذان البيتان لعامر بن الطفيل. انظر: «الصحاح» للجوهري مادة «وعد».

التاء وكسر اللام، على البناء للمفعول.

وقرأ الباقون بفتحها على البناء للفاعل^(١).

وهذا من باب التوكيد للوعد السابق.

«كما» نعت لمصدر محذوف، أي: استخلافًا كاستخلاف الذين من قبلهم من المؤمنين الصالحين من الأمم السابقة، ومن ذلك استخلاف بني إسرائيل بدلاً من الفراعنة.

كما قال عز وجل: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرُوقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥ ونمكن لهم في الأرض ونرى فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانِ وَخُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٨ كَذَلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]. وقال تعالى: ﴿كَدَرْتُمْ كُؤُوسًا مِنْ جَنَّةٍ وَعُيُونٍ ٥٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٦ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكَبِينَ ٥٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

﴿وَلِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ﴾: «الواو» عاطفة، والتمكين التثبيت والتأييد والتقوية، «دينهم» أضاف الدين إليهم؛ لأنهم اختاروه واتبعوه، كما أنه دين الله؛ لأنه هو الذي شرعه. وفي إضافة الدين إليهم تشريف وتكريم لهم.

﴿الَّذِي أَرْضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الذي ارتضاه واختاره لهم والذي هو أكمل الأديان. كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

والمعنى: أن يجعل لهم دينهم الذي رضوه واختاروه لأنفسهم واتبعوه ورضيه الله لهم متمكنًا قويًا ظاهرًا على الأديان كلها، كما قال عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، [الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩].

وعن تميم الداري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص ٣٤٠، «النشر في القراءات العشر» ٢ / ٣٣٢.

هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو ذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»^(١).

وعن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه وفد على النبي ﷺ فقال له: «أتعرف الحيرة؟ قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: فوالذي نفسي بيده لئتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتح كنوز كسرى بن هرمز. قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم، كسرى بن هرمز، ولئيدلن المال حتى لا يقبله أحد. قال عدي بن حاتم: فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها»^(٢). وقد حصل هذا في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وعن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فماله في الآخرة من نصيب»^(٣).

﴿وَلْيُبَدِّلْنَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وشعبة عن عاصم بتخفيف الدال: «ولْيُبَدِّلْنَهُمْ». وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿وَلْيُبَدِّلْنَهُمْ﴾، والإبدال والتبديل: جعل شيء مكان شيء. ﴿مَنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ﴾، أي: من بعد أن كانوا في خوف، والخائف هو الذي لا يطمئن ولا يأمن على دينه أو نفسه أو ماله أو عرضه وغير ذلك، مما يتوقع من المكروه بأمانة معلومة أو مظنونة.

﴿أَمْنًا﴾ الأمن: ضد الخوف، أي: طمأنينة وأمنًا على دينهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم وديارهم وغير ذلك.

وقال: ﴿مَنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ﴾؛ لأن مجيء الأمن بعد الخوف المتحقق أظهر وأبين في

(١) أخرجه أحمد ٤/١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب وعلامات النبوة في الإسلام ٣٥٩٥، ومسلم في الزكاة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢، والترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٤٠٢٩، وأحمد ٤/٢٥٧.

(٣) أخرجه أحمد ٥/١٣٤.

نعمة الأمن وفائدته، وبضدها تتميز الأشياء، ولا يعرف قدر النعمة ويُقدّر لها قدرها إلا من فقدتها، ولهذا قالوا: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

والأمن من أكبر النعم، به تتحقق أمور الدين والدنيا، وبفقدانه تنعدم، ولهذا امتن الله على قريش بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُنْخِطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال ﷺ: «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها»^(١)

وقد أكد عز وجل وعده للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بثلاثة مؤكدات لفظية هي: القسم، واللام، ونون التوكيد، ومؤكد معنوي وهو أن هذه سنته عز وجل مع أوليائه، وهو الذي لا يخلف الميعاد، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وذلك؛ لأهمية هذا الموعد، لما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا والآخرة.

وقد تم هذا الوعد من الله عز وجل للمؤمنين باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم، وتبديل خوفهم بالأمن، كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخِطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَآيَتِكُمْ بِنُصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فبعد أن كان الرسول ﷺ وأصحابه بمكة خائفين، لما يلاقونه من الأذى والتنكيل على يدي كفار مكة، لصدهم عن دينهم ومنعهم من الطواف والصلاة عند البيت، والذي لم يسلم منه حتى سيد الخلق ﷺ، فقد وُضِعَ سلا الجزور على ظهره ﷺ وهو ساجد، وكفار قريش يضحكون منه ويسخرون، حتى جاءت فاطمة - رضي الله عنها -

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١ - من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي - رضي الله عنه - وقال الترمذي: «حديث حسن غريب». وقال الألباني في «صحيح الجامع الصغير» ٦٠٤٢: «حسن».

فرفعتة عن ظهره^(١)، ورماه أهل الطائف بالحجارة حتى أدموا عقبه^(٢)، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته يوم أحد^(٣)، وهكذا لقي أصحابه كبلال وخباب صنوف الأذى من قريش، حتى إنه ﷺ خرج من مكة للهجرة متخفياً خوفاً من قريش، وكذا فعل أصحابه بعده، ثم من الله عليهم باستخلافهم في الأرض، والتمكين لدينهم، وتبديل خوفهم بالأمن، ودخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً، ووقف على باب الكعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»^(٤).

فمكّن الله عز وجل له ولدينه غاية التمكين، ومكّن له من أعدائه حتى قال لهم مبيناً كرم خلقه ﷺ وفضله عليهم: « ما ترون أني فاعل بكم؟»، قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: « ما أقول لكم إلا كما قال يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم»، اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٥).

ثم اتسعت الفتوحات الإسلامية أيام الخلافة الراشدة وبعدها، فشملت سائر الجزيرة والشام ومصر وبلاد فارس، وامتدت إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، تحقيقاً لوعده الله عز وجل قال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»^(٦).

قال ابن كثير رحمه الله بعد ما ذكر ما فتحه الله على المسلمين^(٧): «فها نحن نتقلب

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٠، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٤، والنسائي في الطهارة ٣٠٧ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٦١/٢.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد ١٧٩٥، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد ١٧٩١، والترمذي في التفسير ٣٠٠٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في القسامة ٤٧٩٩، وابن ماجه في الديات ٢٦٢٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وحسنه الألباني في الإرواء ٧/٢٥٧. وانظر: «السيرة النبوية» ٥٤/٤.

(٥) أخرجه البيهقي في سننه ١١٨/٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر: «السيرة النبوية» ٥٥/٤.

(٦) أخرجه مسلم في الفتن وأشراف الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦، وابن ماجه في الفتن، ٣٩٥٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٧) في «تفسيره» ٨٣/٦-٨٤.

فيا وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيـان به ورسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا».

ويؤخذ من الآية أنه لا خلافة لأحد على شبر من الأرض خلافة شرعية بحق إلا للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، فلا حق في الخلافة على الأرض لكافر، ومن هنا يجب أن نعلم أنه لا حق لليهود في فلسطين الأرض المقدسة المباركة الآن، أما قبل مبعث محمد ﷺ ويوم أن كان بنو إسرائيل مؤمنين صالحين ودينهم لم ينسخ بالإسلام فقد كانوا أحق بها، قال موسى عليه السلام ﴿يَقَوْمِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

أما الآن فالخلافة الشرعية على الأرض إنما هي للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ وأهل الإسلام الذي نسخ جميع الأديان قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْآيَةَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فاليهود الآن في فلسطين محتلون ومغتصبون، لا قدم لهم في هذه الأرض المباركة، وسيخرجون منها بإذن الله عز وجل أذلة صاغرين بعدما يعود المسلمون إلى دينهم وتصلح أحوالهم، وعندما يأتي وعد الله.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله»^(١) وليس ذلك على الله بعزيز، لكن على الأمة الإسلامية العودة إلى الله حقاً، وعلينا مراجعة حساباتنا في أداء حقوق الله وحقوق الخلق، وإصلاح أحوالنا العامة والخاصة، فإن وعد الله آت ونصره قريب، قال عز وجل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٤١] الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

علينا إعداد العدة بإصلاح أحوالنا أفراداً وجماعات، ومؤسسات ودولاً، ولنعلم أن هذا أعظم وأقوى وأهم سلاح على الأعداء، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٢٥، ومسلم في الفتن وأشراف الساعة ٢٩٢١، والترمذي في الفتن ٢٢٣٦.

بأنفسهم، ولنعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه، وأن من خان حي على الفلاح خان حي على الكفاح، وأن النصر تخلف عن المسلمين يوم أحد؛ بسبب مخالفة واحدة من الرماة لأمره ﷺ، وحصل لهم ما حصل في حنين بسبب اعتمادهم على كثرتهم وقوتهم وقول بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فالأول بسبب نقص المتابعة والثاني بسبب نقص الاعتماد على الله عز وجل.

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^(١) يحتمل أن تكون الجملة استئنافية للثناء عليهم، أو حالية أي: حال كونهم مستمرين على عبادة الله تعالى وعدم الإشراف به شيئاً، أي: على الإيثار والعمل الصالح، فالتمكين في الأرض ذكر سببه في أول الآية وفي آخرها، وهذا هو حق الله على العباد كما جاء في حديث معاذ- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(١).

وبهذا يتحقق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف بالأمن كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: لهم الأمن في الدنيا والآخرة، الأمن النفسي والأمن الاجتماعي للأفراد والجماعات والدول.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع، ومنه يقال طريق مُعَبَّد أي: مُذَلَّل، ذلته الأقدام بالمشي، وبعبارة معبد أي: مذلل للركوب وحمل الأمتعة عليه غير صعب. والعبادة في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي تشمل: فعل المأمورات من الواجبات والمستحبات، وترك المنهيات من المحرمات والمكروهات، بل وتشمل فعل المباحات كالأكل والشرب والنوم والراحة وغير ذلك مع استحضار النية بحيث يكون المقصود من ذلك هو المحافظة على النفس التي هي وديعة عند الإنسان، والتقوي بذلك على طاعة الله عز وجل.

وهذا معنى لا يدركه إلا الموقفون. نسأل الله التوفيق، أما المخذولون فلا، ولهذا قال أهل العلم: «الموقفون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات» نعم.. يدخل

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٦، ومسلم في الإيمان ٣٠، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٩، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦، وأحمد ٥/٢٤٢.

الواحد منهم المسجد ويُمهمُّ ويخرج وما يدري ماذا قال. حتى إنه قد يخرج الإنسان من الصلاة ما كتب له منها إلا عشرها أو أقل من ذلك وقد يخرج منها وما كتب له منها شيء.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِشَيْءٍ﴾ «لا» نافية، والشرك: اتخاذ شريك مع الله، يدعى ويعبد من دون الله، ويسوى في الله فيما هو من خصائص الله كالذبح والنذر والتوكل وغير ذلك، قال تعالى عن المشركين أنهم يقولون مخاطبين معبوداتهم من دون الله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ سَأَلْتُم مَّرِيكَم رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]،

وهو أقسام: شرك أصغر، ومنه الرياء قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء»، (١) وشرك أكبر كطلب الحاجات والمدد من أصحاب القبور وغير ذلك، ومنه شرك الطاعة قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوبَهُمْ أَرْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يجلون ما حرم الله فتحلونهم ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟»، قال نعم: قال: «فتلك عبادتهم» (٢).

ومن ذلك عبادة الدنيا يجب من أجلها، ويبغض من أجلها، ويعادي ويوالي من أجلها، ويترك الواجبات من أجلها، ويرتكب الموبقات من أجلها. قال ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ» (٣).

و﴿شَيْئًا﴾ مفعول ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في قوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾، وهو نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، أي لا يشركون بي شيئًا من الأشياء أيًا كان، أو: لا يشركون بي شيئًا من الشرك، أي: يعبدون الله عبادة خالصة له تعالى كما قال عز

(١) أخرجه أحمد ٤٢٩/٥ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٠٩٥، والبخاري في التاريخ الكبير ١٠٦/٧، والطبري في «جامع البيان» ٤١٧/١١ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٧٨٤/٦، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجل ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

والشرك أمره خطير، وهو أخفى من ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ولهذا جاء في الدعاء «اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»^(١).

وقال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص»، أي: إن أمر الإخلاص أمر عظيم، وليس هو بالأمر اليسير، بل لا بد من مجاهدة النفس والتفتيش في خفاياها ومتابعة نظراتها وتصرفاتها وخطراتها.

فبالإيمان والعمل الصالح وعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له يحصل الاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين وتبديل الخوف بالأمن، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَظَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْتِيَكُمْ الْيَسْرَةُ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الأنفال: ٤٠] الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِ الْأُمُورِ [الحج: ٤٠-٤١].

وبعد ما وعد الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم وتبديل خوفهم بالأمن، مع استمرارهم على عبادة الله وحده، وأن ذلك هو سبب الاستخلاف والتمكين والأمن، أتبع ذلك بالتهديد والوعيد لمن كفر بعد ذلك فقال:

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: «الواو» عاطفة و«من» شرطية، و«كفر» فعل الشرط وسبق بيان معنى الكفر.

ويحتمل أن المراد به هنا كفر النعمة، ويحتمل أن المراد به الكفر المخرج من الملة. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾، أي: بعد الإيمان والعمل الصالح، وعبادة الله وحده دون شريك، أو بعد الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن، أو بعدهما معاً، أو بعد الوعد بذلك. ﴿فَأُولَئِكَ﴾: «الفاء» رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية. والإشارة لمن كفر بعد

(١) أخرجه أحمد ٤/٤٠٣ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ذلك وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ جمع فاسق، والفسق: الخروج للفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة؛ لخروجها لأجل الإفساد، فالمراد «الفاسقون» الخارجون عن طاعة الله ورسوله الذين بلغوا الغاية في الفسق؛ لأن الله أكد ذلك بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

ومن فسق وخرج عن طاعة الله عز وجل وعن الإيمان والعمل الصالح فليس أهلاً للاستخلاف والتمكين والأمن، بل هو أهل لنزع ذلك منه، فإن النعم إذا شكرت قوت وإذا كفرت فرت، قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وأعظم النعم على الإطلاق نعمة الإيمان والاستخلاف والأمن.

القوائد والأحكام:

١- وعد الله عز وجل الذي لا يتخلف للذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم في الأرض، كما استخلف من قبلهم، وتمكين دينهم وتبديلهم من بعد خوفهم أمناً؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾. وهكذا تحقق للمؤمنين هذا الوعد في عهد الرسول ﷺ والخلافة الراشدة والعهود الزاهية للإسلام.

٢- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، ويستخلف فيها من يشاء.

٣- أن الإيمان قول واعتقاد وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله عز وجل رتب عليه الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين، وتبديل الخوف بالأمن.

٥- أن الخلافة في الأرض إنما يستحقها أهل الإيمان والعمل الصالح.

٦- أن سنة الله عز وجل استخلاف من آمن به وعمل صالحاً؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وفي هذا تأكيد لتحقيق وعد الله للمؤمنين من هذه الأمة.

٧- أن الله عز وجل قد رضي للمؤمنين بهذا الدين ورضوه لأنفسهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَلِيَمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

إنها يعرف قيمة الأمن من تجرع مرارة الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَسْبِدَلْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

٨- أن استمرار الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن لمن استمروا على الإيثار والعمل الصالح، وعبادة الله وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

٩- أن من كفر بعد الإيثار والعمل الصالح وعبادة الله وحده لا شريك له وبعد الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٨).

سبق الكلام عن معنى الصلاة وإقامتها، ومعنى الزكاة وإيتائها في الكلام على قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].
والصلاة تشمل الفروض والنوافل، كما قد تشمل الزكاة أيضًا الصدقة الواجبة والمستحبة.

والصلاة والزكاة أكبر الطاعات وأجلها، وهما جامعتان لحق الله عز وجل وحق خلقه؛ للإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد^(١).

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: من عطف العام على الخاص؛ لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من طاعة الرسول ﷺ وإنما خصهما بالذكر لمزيتتهما بين الطاعات؛ ولهذا تسميان القرينتين؛ لأن الله قرن بينهما في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعًا.
و«ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمدًا ﷺ، وطاعته بامثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وتصديقه فيما أخبر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

وذلك معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ. وسواء كان ذلك مما جاء في القرآن، أو مما جاء في السنة، فيجب طاعته في ذلك كله، وكله وحى من عند الله.
ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ وفضل الصلاة على الزكاة، وفضلها على سائر العبادات.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله، وقيل: للرجاء، أي: رجاء أن يرحمكم الله، قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥ / ٤٤١.

الفوائد والأحكام:

- ١- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.
وعن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»^(١).
- ٢- عِظَم أمر الصلاة في الإسلام من بين سائر العبادات فهي عمود الإسلام؛ لهذا بدأ بالأمر بها فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٣- أن المقصود الأعظم من الصلاة إقامتها إقامةً تامةً بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ولم يقل: (صلُّوا) وفرق بين هذا وهذا.
- ٤- عِظَم أمر الزكاة في الإسلام وأنها أهم العبادات المالية، وتأتي بعد الصلاة من بين سائر العبادات، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾.
- ٥- أن الصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية؛ لهذا خصهما بالذكر بين سائر العبادات وقرن بينهما، وهما القرينتان في القرآن في نحو اثنين وثمانين موضعاً.
- ٦- وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به أو نهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].
- ٧- أن رحمة الله عز وجل الخاصة لمن أطاع الرسول ﷺ وهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].
- ٨- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٥٧، ومسلم في الإبان ٥٦، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ

الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، قرأ ابن عامر وحزمة بالياء وفتح السين: «لا يحسبن»، أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض، أو لا يحسبن حاسب، أو أحد، «الذين كفروا معجزين في الأرض» و«الذين»: مفعول أول، و«معجزين»: مفعول ثانٍ.

وقرأ عاصم بالتاء وفتح السين: ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وقرأ الباقون بالتاء وكسر السين: «تحسبن»^(١).

والحسبان بمعنى الظن^(٢)، أي: لا تظنن يا محمد الذين كفروا وخالفوك وكذبوك معجزين الله في الأرض، وأنهم سيفوتونه فلا يدركهم أو يفلتون من عذابه^(٣)، أو يعملون ما يعجزه.

ولا ينبغي أن يظن هذا الظن أحد من المؤمنين، فالخطاب له ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١].

فهو عز وجل القوي القدير، الذي لا يعجزه شيء ولا يستعصي عليه؛ ولهذا قال

(١) انظر: «الغاية» ص ٣٤١، «التبصرة» ص ٦١٢، «النشر» ٢/٣٣٣، «المهذب» ٢/١٩.

(٢) انظر مادة «حسب» في «لسان العرب».

(٣) انظر: «اللسان» مادة «عجز».

مؤمنو الجن: ﴿وَأَنظَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن نُّعْجِزُهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

ولكن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»^(١).

﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾ المأوى: ما يأوي إليه الإنسان، أي: مرجعهم ومآلهم ومكانهم الذي يأوون إليه النار^(٢)، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْحَجِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَكَوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ٨-١١].

﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ الواو: استثنائية، واللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لبئس المصير النار، وبئس: فعل جامد يفيد الدم، بمعنى: قبح، وفاعلها قوله: «المصير» والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: ولبئس المصير هي، أو النار. ولا يُقدَّر عظم ومدى تناهي ذم النار إلا من ذمها وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿وَالْمَصِيرُ﴾: ما يصيرون إليه وهو المأوى والمآل والمآب، أي: بئس المآل مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والندامة، والعذاب الأبدي.

وفي قوله: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾: إيذان بفناء الدنيا وزوالها، وأن المرد والمرجع إلى الله عز وجل والدار الآخرة، ثم مصير كل إلى مأواه ومنزله الأخير ودار خلوده، فالكافرون إلى النار دار البوار، والمتقون إلى الجنة دار القرار، إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وكما قيل:

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بها يرضي الإله وإن فرطت فالنار

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٦، ومسلم في «البر والصلة» ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠،

وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨٨/٦.

هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك ماذا أنت تختار^(١)

الفوائد والأحكام:

- ١- وعيد الكافرين وتهديدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٢- قدرة الله التامة، وقوته وجبروته وقهره للكافرين والظالمين فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٣- أن مصير الكافرين ومأواهم الذي يأوون إليه هو النار وبئس المأوى والمنقلب والمستقر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.
- ٤- إثبات النار، وأنها موجودة الآن، معدة للكافرين.

* * *

(١) الآيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ١٤١.

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْتِدْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْتُوا كَمَا اسْتَفْتَنِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٩٠﴾.

سبب النزول:

روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «وجه رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له: مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل، فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته على ذلك، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية» (١).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْتِدْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨٨﴾.

قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها»: للتنبيه، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب صفة ل«أي»، أو بدل منها، و«آمنوا»: صلة الموصول.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه» (٢).

﴿لِيَسْتَفْتِدْنَكُمْ﴾ «اللام»: لام الأمر، والأصل في الأمر الوجوب، والاستئذان: طلب الإذن بالدخول.

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحي ص ٢٢٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٤/٣.

ووجه الخطاب للأولياء إشعارًا لهم بمسؤوليتهم تجاه ممالئهم وأطفالهم في وجوب توجيههم لالتزام هذه الأحكام.

ووجه الخطاب في قوله: «ليستأذنكم» للذكور تغليباً لهم على الإناث، وهو يشمل الأولياء من الذكور والإناث.

﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، أي: من العبيد والإماء، البالغ ومن دون البلوغ. وأضاف الملك لليمين مع أن المعنى: الذين ملكتم أنتم؛ لأن اليمين هي الآخذة والمعطية، وفي هذا إثبات الرق الذي سببه الكفر.

﴿وَالَّذِينَ تَرَبَّيْتُمْ مِنَ الْحُلَمِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وليستأذنكم أيضاً الذين لم يبلغوا الحلم من الأحرار، والحلم: هو البلوغ والاحتلام، أي: الذين دون سن البلوغ من الأطفال ذكورا وإناثا.

وبلوغ الحلم له علامات عدة منها: إنزال المنى في يقظة أو منام بالإجماع^(١)، ومنها بلوغ خمس عشرة سنة عند الجمهور؛ لحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «عرضت على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني»^(٢).

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «فهذا هو الحد الفارق بين البالغ وغيره». وذهب أبو حنيفة إلى أن حد البلوغ عند الذكر ثماني عشرة سنة وعند الأنثى سبع عشرة سنة^(٣)، ومن علامات البلوغ عند الجمهور نبات شعر العانة؛ لحديث عطية القرظي قال «أمر النبي ﷺ بقتل من أنبت من بني قريظة، فنظروا إليّ فوجدوني لم أنبت فاستبقوني»^(٤).

(١) انظر: «المغني» ٥٩٧/٦.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦٤، ومسلم في الإمارة ١٨٦٨، وأبو داود في الخراج والإمارة ٢٩٥٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٣١، والترمذي في الأحكام ١٣٦١، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٣.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/٣٣١.

(٤) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٤، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٠، والترمذي في السير ١٥٨٤، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٣ وقال الترمذي «حديث حسن صحيح». وصححه الألباني.

وخص الشافعي في أحد قوليهِ الإنبات بأولاد الكفار، ولم يعتبر أبو حنيفة الإنبات من علامات البلوغ لعدم صحة الحديث عنده^(١).

ومن علامات البلوغ عند النساء أيضًا: الحيض والحمل^(٢).

واختلف في السن الذي يؤمر به من دون البلوغ بالاستئذان، فقال بعض أهل العلم يؤمر ببلوغه سن التمييز سبع سنوات^(٣)، لأنه قبل ذلك لا يدري عن شيء، وقيل ببلوغه أربع سنوات.

وحيث لا دليل على التحديد وكون ذلك يختلف من شخص إلى آخر فبعض الأطفال يدرك هذه الأمور وهو ابن أربع أو خمس سنوات، وبعضهم قد لا يدركها إلا بعد سن التمييز سبع سنوات فينبغي تعليم الأطفال هذه الآداب في سن مبكر ما أمكن ليعتادوا عليها، ويلزمون ذلك عندما يظهر منهم التمييز بين الأشياء.

﴿تِلْكَ مَرْتَبٌ﴾ ثلاث: منصوبة على الظرفية، أي في ثلاثة أوقات.

﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ هذا وما بعده تفصيل وبيان لقوله: ﴿تِلْكَ مَرْتَبٌ﴾.

وسميت صلاة الفجر بهذا الاسم؛ لأن وقتها يدخل عند انفجار ضوء الصبح^(٤). وفي هذا الوقت قد يكون الشخص لم يستيقظ بعد من النوم، أو ما زال في ثياب النوم، أو مع أهله أو غير متهيئ لأن يراه أحد ونحو ذلك.

ولا يفهم من قوله ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ أن ما قبله من الليل يباح الدخول فيه بلا استئذان بل إن ما قبل هذا الوقت من الليل أولى بوجوب الاستئذان، كما أن الأولى عدم طروق الناس فيه؛ لأنه وقت النوم إلا عند الضرورة.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ الحين: الوقت، أي: وقت وضع ثيابكم، والمراد: وضع بعض الثياب كما جرت به العادة، يتخفف الإنسان من بعض الملابس؛ لأجل الراحة أو النوم أو كونه مع زوجته، كأن يكون في إزار أو في لحاف ونحو ذلك، وهذا جائز إذا لم

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/٣٣١، ٣٣٢.

(٢) انظر: «المغني» ٦/٥٩٧-٦٠٠.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٨.

(٤) انظر: «لسان العرب» مادة «فجر».

يكن عنده سوى زوجه، ولا يصح حمل الآية على وضع الثياب كلية بحيث يكون الشخص عرياناً فإن ذلك لا يجوز مطلقاً في أي حال، إلا لحاجة كالغسل ونحو ذلك مع وجوب التستر التام.

﴿مِنَ الظَّهْرِ﴾، أي: لأجل الظهر، أو في وقت الظهر، وهو وقت انتصاف النهار وارتفاع حرارة الشمس ووقت القيلولة.

قال السعدي^(١): «قيدت بقوله: ﴿وَمِنَ الظَّهْرِ﴾، أي: للقائلة؛ لأن العبد قد ينام بثيابه المعتادة».

أي: أن الحكمة من التقييد في قوله: ﴿وَمِنَ الظَّهْرِ﴾؛ لأن العورة ليست حاصلة وقت الظهر لكل الناس، وإنما تكون عورة لمن يضع ثيابه؛ لينام عند الظهر، فبعض الناس لا يخلع ثيابه، بخلاف نوم الليل؛ فإن الناس يخلعون ثيابهم؛ لطول مدته، ولهذا لم يقيد قوله: ﴿مِنَ قَبْلِ صَلَاةِ النَّجْرِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنَ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ بقوله: ﴿وَمِنَ الظَّهْرِ﴾.

﴿وَمِنَ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾؛ لأنه وقت النوم والراحة والتخفيف من الملابس، واحتمال كون الإنسان مع زوجه.

وسميت صلاة العشاء بهذا الاسم؛ لأنها تصلى في وقت العشاء حين يغيب الشفق الأحمر ويبدأ اشتداد ظلمة الليل.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ثلاث» بالنصب بدلاً من قوله: ﴿ثَلَاثُ مَرَّاتٍ﴾، وقرأ الباقر بالرفع: ﴿ثَلَاثُ﴾، خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي ثلاث عورات^(٢).

وقوله: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ تعليل للأمر بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة، أي: أن هذه الأوقات أوقات ثلاث عورات لكم، أي مظنة انكشاف العورات والاطلاع عليها.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٤٤٢.

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/٣٣٣.

والعورات: جمع عورة، والعورة في الأصل: الخلل، ومنه قيل لفاقد العين أعور؛ لاختلال عينه.

وسميت هذه الأوقات عورات؛ لأن السّتر يختل فيها غالبًا. والعورة كل ما لا يجب الإنسان أن يُطلع عليه، ويحرم النظر إليها. ولهذا أوجب الله الاستئذان على المالك والأطفال في هذه الأوقات الثلاثة، وإن كانوا في الأصل ممن لا يجب عليهم الاستئذان مطلقًا، أما من عداهم فيجب عليهم الاستئذان في جميع الأوقات.

قال ابن تيمية: «وفي ذلك ما يدل على أن المملوك المميز، والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل، كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما»^(١). والمراد بالعورات هنا ما يشمل العورات المغلظة والمخففة، بل ويشمل كل ما لا يجب الإنسان الاطلاع عليه من الأحوال والأفعال والأقوال وغير ذلك. والمرأة كلها عورة، وقال بعض أهل العلم إلا وجهها وكفيها، والراجح أن المرأة كلها عورة عند الأجانب أما عند محارمها وعند النساء فلها أن تكشف ما جرت العادة بكشفه، كراسها ووجهها وكفيها وذراعيها وقدميها ونحو ذلك. وينبغي أن تستر ما جرت العادة بستره كالعضدين والصدر والفخذين والساقين ونحو ذلك، مما قد يكون سببًا للفتنة.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»^(٢).

وعنه- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تباشر المرأة المرأة فتنتعها لزوجها كأنه ينظر إليها»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٧٣، وابن خزيمة في صحيحه ١٦٨٥، وابن حبان في صحيحه ٥٥٩٨، ٥٥٩٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٤٠، وأبو داود في النكاح ٢١٥٠، والترمذي في الأدب ٢٧٩٢.

واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»^(١).

وعورة الرجل من السرة إلى الركبة، وقال بعض أهل العلم إن الفخذ ليس بعورة بل السوأتان فقط هما العورة؛ لحديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «إن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتني لتمس فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذة حتى إني انظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فتحدث، فلما خرج قالت: عائشة دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تبأله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تبأله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» وفي رواية: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له وأنا على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته»^(٣)

وذهب بعض المحققين إلى أن الفخذ عورة لحديث جرهد الأسلمي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو كاشف عن فخذة فقال النبي ﷺ: «غط فخذك فإنها من العورة»^(٤).

وعن محمد بن جحش - رضي الله عنه - قال: مر النبي ﷺ وأنا معه على معمر، وفخذه مكشوفتان، فقال: «يا معمر، غط فخذيك فإن الفخذين عورة»^(٥).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: مر رسول الله ﷺ على رجل، وفخذه

(١) أخرجه مسلم في الحيض ٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٧١، ومسلم في النكاح ١٣٦٥، والنسائي في النكاح: ٣٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠١، وأحمد ٦/٦٢، وانظر: «المحلى» ٣/٢١٠.

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب - ما جاء في حفظ العورة ٢٧٩٥، ٢٧٩٧، ٢٧٩٨، والحاكم في اللباس

٤/١٨٠. وقال الترمذي «حديث حسن» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه أحمد ٥/٢٩٠، والحاكم في اللباس ٤/١٨٠.

خارجة، فقال: «غط فخذك فإن فخذ الرجل من عورته»،^(١)
 قال البخاري: «حديث أنس أسند وحديث جرهد أحوط، حتى يُخرج من
 اختلافهم»^(٢).
 ولا شك أن الأحوط عدم كشف الفخذ إلا عند الحاجة؛ لأن كشفه قد يحصل بسببه
 فتنة.

ولكون هذه الأوقات الثلاثة مظنة انكشاف العورات والاطلاع على ما لا يجوز
 الاطلاع عليه أمر الله عز وجل المؤمنين بالزام مماليتهم وأطفالهم بالاستئذان، والأصل في
 الأمر الوجوب، ولا صارف له هنا يصرفه عن الوجوب، فالآية حكمها باق، واستئذان
 المذكورين في الأوقات الثلاثة واجب ما وجدت العلة، وهي خوف كشف العورات، وقد
 كان الناس بالأمس القريب في هذه البلاد ليس لهم على الغرف داخل قصور الطين أبواب،
 وإنما الأبواب على الأسوار الخارجية، وهذا الأمر ما زال موجوداً الآن في بعض البلاد
 فمتى وجدت العلة وهي خوف كشف العورات ومفاجأة المدخول عليه وهو في حال لا
 يجب أن يراه عليها أحد كأن يكون مع أهله، أو متخففاً من بعض الثياب، ونحو ذلك، ففي
 هذه الحال يجب الاستئذان، والحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا.

أما إذا كانت هناك أبواب مغلقة فإن من أراد الدخول لا بد أن يستأذن بطرق
 الباب أيًا كان هذا المستأذن لكون الباب مغلقاً مقللاً.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر في قوله ﴿لِئَسْتَعْلَمَ نَكْمٌ﴾ للاستحباب؛ لأنه
 من باب الآداب وليس للوجوب، وقيل: إن هذا الحكم منسوخ، أو لفترة معينة ثم
 انتهى العمل به، وكل هذه الأقوال لا دليل عليها، والصحيح القول الأول^(٣).

وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بسند صحيح أنه قال: «كان الناس
 ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٧٥، والترمذي في الأدب ٢٧٩٦، والحاكم في اللباس ٤/ ١٨١. وقال أحمد شاعر في

تخرجه للمسنند «إسناده صحيح» ٢٤٩٣.

(٢) انظر: «فتح الباري» باب ما يذكر في الفخذ ١/ ٤٧٨.

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» ٤/ ١٩٤.

يتيمه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمي الله، ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط عليهم الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به^(١).

وهذا من ابن عباس - رضي الله عنه - لا يدل على نسخ هذا الحكم وترك العمل به كلية وإنما يدل على بقاءه عند الحاجة إلى الاستئذان.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: ليس عليكم أيها الأولياء ولا عليهم يعني المالك والأطفال.

﴿جُنَاحٌ﴾، أي: حرج وإثم، وأصل الجُنَاح: الميل؛ سمي بذلك لأنه يميل بالإنسان كما يميل الجناح بالطائر.

﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أي: بعد أوقات العورات الثلاث في دخولهم عليكم بلا استئذان. ومفهوم الآية أن أولياء المالك والأطفال يَأْتُمُونَ إذا دخل عليهم مملكتهم وأطفالهم في الأوقات الثلاثة المذكورة بلا استئذان، إذا كان ذلك بسبب تفريط من الأولياء في تعليمهم وتربيتهم، وأن الداخلين من المالك والأطفال أيضًا يَأْتُمُونَ. ولا إشكال في إثم المملوك البالغ؛ لأنه مكلف وقد ترك الاستئذان وهو واجب عليه.

أما الصبيان فلا إثم عليهم لعدم التكليف، ودلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم، فيخرج منها الصبيان لعموم الأدلة على عدم تكليفهم، وإنما يلحق الحرج والإثم أولياءهم إن فرطوا في تربيتهم وتأديبهم على الاستئذان.

﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الجملة تعليل لقوله قبل هذا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾، أي: ليس عليكم ولا عليهم جناح في دخولهم بلا استئذان في غير الأوقات الثلاثة؛ لأنهم طوافون عليكم.

وطوافون: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم طوافون، أو خدمكم طوافون. ومعنى «طوافون عليكم» مترددون عليكم للخدمة، ولو ألزموا بالاستئذان

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - الاستئذان في العورات الثلاث ٥١٩٢، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨٩/٦ - ٩٠ من رواية ابن أبي حاتم وصححه إسناده وحسنه الألباني.

عليكم دائماً لكان في ذلك مشقة عليهم وعليكم.

وقد رفع الله عز وجل الحرج عن هذه الأمة فرخص عز وجل في دخولهم بلا استئذان في غير الأوقات الثلاثة رفعاً للمشقة. ومن قواعد هذه الشريعة المطهرة أن المشقة تجلب التيسير.

والطائف والطواف: المتردد، ومنه سُمي الطواف بالبيت؛ لأن الطائف يتردد، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَؤُوبٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقوله ﷺ في الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات»^(١).

﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله «طوافون عليكم»، فهي مؤكدة لقوله «طوافون عليكم»،

والمعنى: كما أنهم يطوفون عليكم لخدمتكم وقضاء حوائجكم أنتم تطوفون عليهم تنادونهم وتبحثون عنهم ليقوموا بحوائجكم.

﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «الكاف» اسم بمعنى «مثل» في محل نصب على أنه مفعول مطلق، والإشارة بقوله «ذلك» ترجع إلى مصدر الفعل «يبين» والتقدير: مثل ذلك البيان يبين الله لكم الآيات، ومعنى «يبين» يفصل ويوضح. وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية، وقد بين الله ذلك كله أتم بيان:

قال عز وجل في بيان الآيات الشرعية آيات القرآن الكريم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَ بِهٖ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصُرْهُ، ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا يَسَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وقال عز وجل ﴿كَذَّبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقال عز وجل ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وسُميت الآيات الشرعية آيات؛ لما فيها من الدلالة على أن القرآن الكريم من عند

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة- سور الهرة ٧٥، والنسائي في الطهارة- سور الهرة ٦٨، والترمذي في الطهارة ما جاء في سور الهرة ٩٢، وابن ماجه في الطهارة- الوضوء بسور الهرة ٣٦٧، وأحمد ٢٩٦/٥، من حديث أبي قتادة- رضي الله عنه- قال ابن حجر في «تلخيص الحبير» ١/٥٣-٥٤: «صححه البخاري والترمذي والعقيلي والدارقطني. وأعله ابن منده» وقال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/٣٣: «وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم». وصححه الألباني.

الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].
والدلالة على صدق من جاء بها من عند الله. ولكونها صالحة لكل زمان، ولكل
مكان، ولكل أمة.

كما بين عز وجل آياته الكونية فبدت ظاهرة واضحة بينة في جميع مخلوقاته في
السموات والأرض وما بينها قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
يُغْشَى الْآيِلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ
أَعْتَابٍ وَزَّرَعٌ وَنَخِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الرعد: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال عز
وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْبَلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا
لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال عز وجل: ﴿وَأَيُّ
لَهُمُ الْبَلُّ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٧-٣٩].

وهكذا كل ما خلق الله عز وجل من المخلوقات في هذا الكون علويه وسفليه من
الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات وغير ذلك كل ذلك من آيات
الله عز وجل الكونية الدالة على وجوده وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه
وصفاته، كما قيل:

فواعجباً كيف يعصى الإله أم كيف يحجده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

وبهذا البيان للآيات الشرعية والكونية تظهر عناية الله عز وجل بالخلق ونعمته
ومنته عليهم، كما تقوم بذلك عليهم الحجة، كما يظهر بذلك كمال الدين الإسلامي

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ١٠٤.

ورقيه، وأن ما شرعه الله عز وجل من الشرع صالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، فيه ضمان السعادة للبشرية في دينها ودنياها وأخرها، مما لا يستطيع البشر مهما بلغت أنظمتهم أن يأتوا بمثله.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وعلم الله عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، فيما خلق، وفيما شرع، وفيما قدر. وباجتماع العلم الواسع المحيط بكل شيء، والحكم التام والحكمة البالغة في حقه عز وجل، جاءت أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، على أكمل الوجوه وأتمها، كما قال عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

ولله المثل الأعلى، قل أن تجد في الناس من جمع الله له بين العلم والحكمة، فأكثرهم حرم العلم أو الحكمة، أو حرمهما معًا، فتجده يتخبط في الأحكام إما بسبب جهله، وإما بسبب سفهه، وإما بسببها معًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، «الأطفال» أي الذين أمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة «منكم» أيها المؤمنون.

﴿الْحُلُمَ﴾ سن الاحتلام والبلوغ.

﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ «الفاء» رابطة لجواب الشرط، واللام لام الأمر، والأصل في الأمر الوجوب، أي: فليستأذنوا وجوبًا.

﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما استأذن الذين من قبلهم من البالغين والذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا

وَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴿٦١﴾ [النور: ٢٧]، وكما استأذن الذين من قبلهم ممن بلغوا مبلغ الرجال قبلهم.

وقال هنا: ﴿فَلَيْسَتَفْدُونُوا﴾ بتوجيه الأمر إليهم؛ لبلوغهم، وقال في الآية قبلها: ﴿لَيْسَتَفْدِينَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ بتوجيه الخطاب إلى الأولياء؛ لأن الأطفال غير مخاطبين (١).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ أي مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في الآية السابقة. وفي الآية دليل على وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث عند الدخول على أهلهم من الرجال والنساء في جميع الأوقات.

وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: «أستأذن على أمي؟ قال: «نعم» قال: إنه ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها؟ قال: «أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: إذن فاستأذن عليها» (٢).

وقد قال ﷺ: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» (٣).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عباس، أستأذن على أخواتي أيتام في حجري، في بيت واحد؟ قال: «نعم، أتحب أن تراها عريانة» (٤).
وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: «عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم» (٥).

وهذا محمول على تنبيه القادم لأهله بقدومه ودخوله، لا على الاستئذان المعروف. ومثله ما روى عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وعنهما- قالت:

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٣٠٨/١٢.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الجامع ١٧٩٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٤٤/١٧- مرسلًا من حديث عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ- الحديث.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤٤/١٧.

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤٢/١٧.

«كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه»^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «إني أمر جاريتي تستأذن علي»^(٢).
قالوا: المراد زوجته، وهذا لا ينافي ما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»^(٣).

لأنه وإن كان هذا مباحاً ما بين الزوجين وما بين السيد وأمه في حال اجتماعهما وكونهما معاً لكن لا ينبغي أن يفاجئ أحدهما الآخر بالدخول عليه؛ لأنه قد يكون على حالٍ لا يجب أن يراه أحد وهو على تلك الحال، وكان ﷺ لا يطرق أهله ليلاً، لكن لو زال المحذور باتصال هاتفي فلا بأس - فيما يظهر - والله أعلم.

وإذا وجب أن يستأذن البالغ عند الدخول على أهله من رجال ونساء فوجوب الاستئذان إذا دخل على غيرهم من باب أولى - كما دلت عليه آية الاستئذان في أول السورة.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ نِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَّبِعَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

قوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ القواعد: جمع قاعد، وهي المرأة العجوز التي بلغت من الكبر عتياً، وقعدت عن الحيض والولد والزواج، فليس لها رغبة في الأزواج، ولا يرغب بالزواج منها؛ لقوله تعالى: ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾

وحذفت الهاء من مفرد «القواعد» فقبل «قاعد» للفرق بين قعود الكبر، والقعود بمعنى الجلوس، فيقال: قاعدة في بيتها^(٤)، ويقال قاعد عن الحيض والولد والزواج.

و«ال» في القواعد اسم موصول، أي: اللاتي قعدن؛ ولهذا بينه بـ«من» البيانية في قوله: «من النساء».

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٢٤٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب - باب الاستئذان في العورات الثلاث ٥١٩١. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح ١٩٢٠ - من حديث معاوية بن حيدة القشيري - رضي الله عنه وحسنه الألباني.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٣٠٩.

﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ «اللاتي» صفة للقواعد، «لا يرجون»: «الواو» فيه واو الفعل، ونون النسوة فاعل.

والمعنى: لا يطمعن في النكاح لكبرهن، فلا هي ترغب في النكاح ولا يرغب بمثلها غالبًا.

و«نكاحًا» نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: أنهم بلغن سنًا كبيرًا لا يطمعن في شيء من ذلك، والمراد بالنكاح: الزواج.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾، أي: فليس عليهن حرج ولا إثم ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، «أن» والفعل في تأويل مصدر في محل جر، أي: في وضع ثيابهن، وليس المراد بهذا: التعري والتجرد من الثياب كلية، وإنما المراد به وضع بعض الثياب، وهي الثياب الظاهرة كالعباءة والجلباب والخمار^(١)، بحيث تكتفي عند غير المحارم بالثياب التي تلبسها الشابة عند المحارم، وبهذا يكون غير المحارم بالنسبة للقواعد كالمحارم، فيجوز لمن كشف وجوههن^(٢)، ونحو ذلك، وذلك لزوال المفسدة الموجودة في غيرهن، وأمن الفتنة غالبًا، وهذا رخصة وليس بسنة؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾.

ويؤخذ من مفهوم الآية وجوب الحجاب والتستر الكامل على غير القواعد من الشابات وغيرهن^(٣)

﴿عِزِّ مُتَّبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ حال، أي: حال كونهن في وضع ثيابهن غير متبرجات بزيينة، أي: غير مظهرات للزيينة.

والتبرج بالزيينة التكلف لإظهار الزينة، والباء في قوله: «بزيينة» للتعدية، وقيل: بمعنى لام التعليل أي: لأجل الزينة، وإذا كان التبرج محرماً على القواعد فتحريمه على غيرهن من باب أولى.

فبهذه الشروط الثلاثة وهي: كون المرأة قاعدًا عجوزًا كبيرة، وكونها لا ترجو

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٩١/٦

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/٤٢٩ - ٤٣٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٤٤٥

(٣) انظر: «رسالتان في الحجاب» لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وفضيلة الشيخ محمد

العثيمين - رحمهما الله - ص ٩، ٢٦

النكاح ولا تطمع فيه، وألاً تقصد التبرج بالزينة في وضع ثيابها بهذه الشروط الثلاثة يجوز للقواعد وضع ثيابهن رخصة من الله عز وجل لهن، وتخفيفاً عنهن إذ لم يوجب عليهن ما أوجبه على غيرهن من التستر التام.

﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، وخبره ما بعده، أي: واستغفاهن خير لهن.

والاستغفاف: طلب العفة، وهي: طلب الكف عما يحرم ولا يحل، وعمّا لا يجمل كالقبيح والمكروه.

والمعنى: وترك وضعهن لثيابهن - وإن كان جائزاً - خير لهن وأفضل احتياطاً؛ لثلا يجر ذلك إلى فتنه، وكما قيل: لكل ساقطة لاقطة.

فإن خيفت الفتنة بسبب ذلك كان الاستغفاف واجباً، فالسلامة لا يعدلها شيء، وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(١)، وفيه: «ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»^(٢).

وكما يقال: «ابتعد عن العيب ذراعاً ونم».

ولهذا أمر الرسول ﷺ من سمع بالدجال أن ينأى عنه؛ لأن الرجل يأتيه وهو يرى أنه مؤمن ثم ما يزال يقذف به بالشبهة حتى يفتنه، أو حتى يرتد عن دينه^(٣).

وروي أن حفصة بنت سيرين - رحمها الله - كانت تتحجب وهي كبيرة، فدخل عليها بعض السلف فقال: يا أمة الله إن الله يقول: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾، فقالت: أكمل الآية ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة رضي الله

(١) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٨ - من حديث الحسن بن علي رضي الله عنها. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في الإبان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣١٩، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدجال فليأمنه، ثلاثاً يقولها، فإن الرجل يأتيه يتبعه وهو يحسب أنه صادق بما يبعث به من الشبهات».

عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]»^(١).

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

فهو عز وجل سميع الدعاء سميع لجميع الأقوال والأصوات، عليم بجميع الأشياء من الظواهر والخفيات، وبها يحصل بالقلب من قصد التبرج، وغير ذلك، وفي هذا وعد ووعد يوجب على العبد مراقبة الله فيما يقول، وفيما يفعل.

الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.
 - ٢- تشریف المؤمنين وتكريمهم بندايم بوصف الإيمان، وفي هذا حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امثال ما ذكر بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امثاله يعد نقصاً في الإيمان.
 - ٣- مسؤولية الأولياء من السادة والآباء وغيرهم تجاه ممالिकهم وأطفالهم في وجوب توجيههم وتعليمهم أحكام الاستئذان وآدابه وغيرها وإلزامهم بذلك؛ لأن الله وجه الخطاب لهم فقال: ﴿لَيْسَتَّزِدْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَبِغُوا الْحَلْمَ مِنْكُمْ﴾ الآية.
 - ٤- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ وسببه الكفر.
 - ٥- شرف اليمين؛ لإضافة الملك إلى الأيمان في قوله: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾.
 - ٦- إثبات الملكية الفردية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾.
- وفي هذا الرد على الشيوعية الملحدة التي تمنع الملكية الفردية، وتجعل الناس شركاء في كل شيء حتى في النساء.
- ٧- أن من لم يبلغ الحلم ليس بمكلف ولا يوجه إليه الخطاب؛ لأن الله وجه الخطاب إلى الأولياء فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَتَّزِدْنَكُمْ﴾ الآية.
 - ٨- وجوب إلزام المماليك والأطفال دون الحلم بالاستئذان في الأوقات الثلاثة

(١) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لَسْتَ تَدْرِكُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾.

٩- جواز وضع الثياب والتخفيف منها عند النوم والراحة.

١٠- الإشارة إلى أن الحكمة في أمر المالك والأطفال بالاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خاصة أنها أوقات عورات، أي: أوقات انكشاف العورات وإظهار ما لا يجب الناس الاطلاع عليه من الأحوال والأقوال والأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾.

١١- تحريم النظر إلى العورات، وأنه لا يجوز للأطفال المميزين ممن هم دون البلوغ النظر إلى عورة الرجل، كما لا يجوز للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾.

١٢- أن أولياء المالك والصبيان يأثمون إذا لم يعلموهم الاستئذان في هذه الأوقات ويلزموهم بذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

فمفهوم هذا أن دخولهم بلا استئذان في الأوقات الثلاثة عليهم فيه جناح وإثم وهذا إذا فرطوا في تعليمهم وإلزامهم. كما أن المالك البالغين يأثمون إذا دخلوا بلا استئذان في هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنهم مكلفون.

١٣- أن المشقة تجلب التيسير؛ لهذا رفع الحرج عن الناس في عدم إيجاب الاستئذان على المذكورين فيما عدا هذه الأوقات الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

كما أباح الله تعالى للقواعد من النساء وضع ثيابهن، لقوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾.

١٤- الإشارة إلى وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث عند الدخول على أهلهم من الرجال والنساء في جميع الأوقات؛ لأنه لم يستثن من ذلك إلا المالك والأطفال دون البلوغ، ووجوب الاستئذان عند الدخول على غير أهلهم من باب أولى كما دلت عليه آية الاستئذان في أول السورة.

١٥- اعتبار العلل في الأحكام، وأنه ينبغي للعالم أن يقرن الحكم بدليله وعلته فذلك

- أبلغ؛ لقوله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.
- ١٦- امتنان الله عز وجل على عباده ببيان الأحكام والآيات الشرعية والكونية بياناً شافياً كافياً؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾، وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ فأكد هذا في موضعين هنا؛ لبيان كمال عنايته ونعمته ومنتته.
- ١٧- إثبات صفة العلم الواسع الله عز وجل وإثبات صفة الحكم التام لله عز وجل بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي والجزائي، وإثبات الحكمة البالغة لله عز وجل بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقد أكد هذا في موضعين من الآيات الكريمة.
- ١٨- وجوب الاستئذان على الأطفال عند بلوغهم الحلم كغيرهم من البالغين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ١٩- يجوز للقواعد من النساء اللاتي لا يطمعن في الزواج ولا يرغب فيهن وضع الثياب الظاهرة كالعباءة، والجلباب، والخمار غير مظهرات للزينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾.
- ٢٠- لا يجوز للقواعد وضع الثياب بقصد التبرج بالزينة؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾.
- ٢١- أن استعفاف القواعد وعدم وضعهن لثيابهن خير لهن من وضعها، لما قد يترتب على وضعها من أمور لا تحمد عقباها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.
- ٢٢- أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا، فإذا تحقق وجود الفتنة للقواعد أو بهن إذا وضعن ثيابهن وجب عليهن عدم وضعها.
- ٢٣- إثبات تفاضل الإيثار والأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.
- ٢٤- يفهم من قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ﴾ الآية وجوب الحجاب والتستر الكامل على جميع النساء أمام الرجال الأجانب.
- ٢٥- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل وأنه يسمع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

- ٢٦- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.
- ٢٧- وجوب مراقبة الله عز وجل في جميع الأقوال والأعمال؛ لأنه سميع لأقوال العباد، عليم بأعمالهم وأحوالهم، وسيحاسبهم ويمجازيهم على ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَمَلَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِشُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾.

سبب النزول:

عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يوعبون في النفي^(١) مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمناهم، ويقولون لهم: قد أحللتنا لكم أن تأكلوا مما أحببتهم، وكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا، إنهم أذنوا عن غير طيب نفس فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِشُهُمْ﴾^(٢).

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ «أعمى» على وزن «أفعل» صفة مشبهة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢].

والأعمى: هو فاقد البصر. والخرج في اللغة: الضيق، والمراد به في الآية: الإثم والذنب. ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ الأعرج هو: الذي لا يمشي مشياً مستقيماً، لعله في إحدى رجليه، أو كليهما.

﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ المريض: من به علة، أي: من خرجت صحته عن الاعتدال، وقد قالوا في تعريف المرض: هو عبارة عن خروج البدن عن الاعتدال والاعتقاد إلى الاعوجاج والشذوذ.

وكرر نفي الحرج؛ لتأكيد نفيه عن جميع المذكورين، ورفع توهم تعلقه بصنف واحد،

(١) أي: يخرجون بأجمعهم في الغزو.

(٢) أخرجه البزار، انظر: «كشف الأستار» ٣/ ٦١. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨٤: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح»، وقال السيوطي في «لباب النقول» ص ١٦٠: «سنده صحيح»، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣١٢، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص ١٥٢.

والمعنى ليس على هؤلاء الثلاثة حرج في ترك الجهاد، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

وذلك لضعفهم، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيْتَخِمْنَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِذَآ أَهْمَلِكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

ويؤيد هذا المعنى أن الله ذكر في الآية بعد هذه الآية أمر الاستئذان حال الجهاد. وقيل: لا حرج عليهم في الأكل مع غيرهم من الأصحاء، وقيل: غير ذلك (١). والصحيح: أنه لا حرج عليهم في ترك أي عمل تحول هذه الأعذار بينهم وبينه، أو تكون سبباً لنقصه أو الإخلال فيه من جهاد أو غير ذلك، وهذا من رحمة الله عز وجل وسماحة هذه الشريعة.

﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ «الواو» عاطفة، و«لا» نافية وقوله «على أنفسكم» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، والمبتدأ مقدر تقديره: ولا حرج على أنفسكم. ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر تقديره: ولا حرج على أنفسكم في أكلكم من بيوتكم.

وذكر الأكل من بيوتهم مع أن الأصل جواز أكل الإنسان من بيته إما توطئة وتمهيداً لذكر ما بعده، أو إشارة إلى أن الأكل من بيوت المذكورين كالأكل من بيوتهم، أو مراعاة لمعنى قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، أي: أن تأكلوا من بيوتكم جميعاً أو أشتاتاً، أي: جماعة، أو متفرقين.

وقوله: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ يشمل بيوت المخاطبين وبيوت أولادهم؛ لأن بيوت أولادهم كبيوتهم، يأكلون منها سواء رضي أولادهم أو لم يرضوا؛ ولهذا لم يذكر بيوت الأولاد (٢)، وفي الحديث: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٩٢/٦.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٩٣/٦، «البحر المحيط» ٤٧٤/٦.

كسبكم»^(١).

وقال ﷺ للذي اشتكى أباه وقال: يا رسول الله، إن أبي يريد أن يجتاح مالي. قال ﷺ: «أذهب أنت ومالك لأبيك»^(٢).

فللوالدين الأكل من بيوت أولادهما، بل ولهما الأخذ من مال أولادهما بالمعروف. وهذا بخلاف الأكل من بيوت المذكورين فإنه إنما يجوز إذا لم نعلم عدم رضاهم، فإن علمنا عدم رضاهم فلا يجوز.

﴿أَوْبُوتِ آبَائِكُمْ﴾ «أو» عاطفة هنا وفي المواضع التالية.

﴿أَبَائِكُمْ﴾، أي: الأدنى منهم، والأعلى، وهو الجد من أي جهة كان؛ لأن الله سماه أباً قال تعالى: ﴿كَأَخْرَجَ أَبْوَابَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿أَوْبُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الدنيا منهن، والعليا، وهي الجدة، من أي جهة كانت.

﴿أَوْبُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾ من أي جهة كانوا، أشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوْبُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾ من أي جهة كن شقيقات أو لأب أو لأم.

لكن إذا كانت الأخت متزوجة والبيت لزوجها، فليس لإخوتها الأكل عندها إلا بإذن زوجها.

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ٤٤٥٠، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٠، وأحمد ٣١/٦، ٤٢- من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه في التجارات ٢٢٩١، والطحاوي في «مشكل الآثار» ١/٢٣٠- باب بيان مشكل ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»، وفي «شرح معاني الآثار» ١٥٨/٤، والإساعيلي في «معجم شيوخه» ٣/١٦٤- ترجمة رقم ٤٠٨- كلهم من حديث جابر رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ٤٤٤٩-٤٤٥٢، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، والدارمي في البيوع ٢٥٣٧- من حديث عائشة- رضي الله عنها- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وأخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٢، وأحمد ١٧٩/٢، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ١٥٨/٤، وقال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» ١٨٣/٥: «رجال إسناده ثقات»، وقال الزيلعي في «نصب الراية» ٣/٣٣٧، قال ابن القطان: «إسناده صحيح»، وصححه الألباني من حديث جابر- رضي الله عنه- انظر: «إرواء الغليل» حديث ٨٣٨.

﴿أَوْ بِيُوتِ أَعْمَامِكُمْ﴾ الأعمام إخوة الأب، وإخوة الجد وإن علا، من أي جهة كان الجد.

﴿أَوْ بِيُوتِ عَمَمِكُمْ﴾ العمات: أخوات الأب، وأخوات الجد وإن علا، من أي جهة كان الجد فإن كانت العممة ذات زوج والبيت له لم يميز الأكل عندها إلا بإذن زوجها.
﴿أَوْ بِيُوتِ أَخْوَالِكُمْ﴾ الأخوال إخوة الأم، وإخوة الجدة، وإن علت، من أي جهة كانت الجدة.

﴿أَوْ بِيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ الخالات أخوات الأم، وأخوات الجدة وإن علت، من أي جهة كانت الجدة، فإن كانت الخالة ذات زوج والبيت له لم يميز الأكل عندها إلا بإذنه.

قال ابن كثير^(١) في كلامه على هذه الآية: « وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنهما».

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ﴾، أي: ما ملكتم مفاتيحه من البيوت والخزائن، بأن كنتم أمناء عليه أو وكلاء عليه، مفاتيحه في أيديكم تتصرفون فيه.

ومفاتيح: جمع مفتاح، وهو ما تفتح به أغلاق الأبواب والخزائن والكنوز.

قال تعالى عن قارون: ﴿وَأَيْنَتُهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَى﴾

[القصص: ٧٦].

قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ «صديق»: بالإنفراد اسم جنس، والصديق من صدقك في مودته وتصدقته في مودتك.

كما قال الشافعي^(٢) رحمه الله:

صديق صدوق صادق الوعد منصفاً سلام على الدنيا إذا لم يكن بها

وكما قال الشاعر محمد بن عثيمين^(٣):

أخ كان لي نعم المعين على التقى به تنجلي عني الهموم وتذهب

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٤، ٩٣

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٨٥.

(٣) انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» ١/ ١٤٨، «ديوان الشعر العربي على مر العصور» ٨/ ٩١.

فطورًا بأخبار الرسول وصحبه وطورًا بأداب تلذ وتعذب
على ذا مضى عمري كذاك وعمره صفيين لا نجفوا ولا نتعَّبُ
لكل اجتماع من خليلين فرقة ولو بينهم قد طاب عيش ومشرب

والإنسان في حاجة- كما قال الشافعي رحمه الله- إلى صديق صدوق صادق الوعد
منصفا، يكون عونًا له على أمور دينه وديناه، ويثبه ما في نفسه ولا يخشى غوائله، إن
أصابك ما أصابك من أمور الدنيا وهمومها خفف عليك المصاب بقوله الطيب الذي
يدخل عليك السرور وانسراح الصدر ويهون عليك المصاب، وبفعله الحقيقي الذي
يواسيك به، كما قال أبو العتاهية^(١):

صديقي من يقاسمني همومي ويرمي بالعداوة من رماني
ويصفولي إذا ما غبت عنه وأرجوه لنائبه الزمان

لكن مثل هذا نادر جدا؛ ولهذا أفرد الصديق في قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ بينما جمع
ما قبله، وكما في قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]
وفي هذا وذاك إشارة إلى ندرة الصديق حقاً، كما قال الشافعي^(٢):

فما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل
وقال الآخر:
أريد صديقاً أطمئن لديه ولي ربع قرن ما عثرت عليه
وقال الآخر:

أأنت أخي ما لم يكن لي حاجة فإن وجدت أيقنت أن لا أخاليا^(٣)
بل عده بعضهم من المستحيل فقال:
ولقد صحبت بني الزمان فلم أجد خلاً وفيّاً للشدائد أصطفي

(١) انظر: «ديوانه» ص ٤٢٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٩٩.

(٣) البيت لعبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب. انظر: «الكامل» للمبرد ١/ ١٧٢، «طبقات المحدثين»
للأصبهاني ١/ ٣٠٣، «تاريخ دمشق» ٣٣/ ٢٢٠.

فعلمت أن المستحيل ثلاثة الغُول والعنقاء والخل الوفي^(١)
وقال الآخر:

بحثت عن الصديق فلم أجده على التحقيق يوجد في الأنام
وأحسبه محالاً نَمَّـوه على وجه المجاز من الكلام^(٢)

ولهذا فإن العاقل اللبيب من يحسن التعامل مع الآخرين من الأصدقاء وغيرهم، ويحسن الظن، ويجازي من أحسن إليه بالإحسان مضاعفاً، ويجازي المسيء بالإحسان ما استطاع ذلك، ويعرف أن الصديق حقاً من كان عوناً لصديقه على أمر الدين والدنيا، فيختار من الأصدقاء من كان بهذه الصفة، وهم قليل، ولا يغتر بحلاوة ألسنة الكثيرين، ولا يعوّل على أحد من الخلق أياً كان، فيتخلى عنه في أشدّ المواقف وأصعب الظروف، بل يكون تعويله واعتماده على ربه، فهو الذي من توكل عليه كفاه، فلا يخيب ولا يُضام ولا يُضار من توكل عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ «عليكم» جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل نصب خبر ليس، و«جناح» اسمها، والجناح: الحرج والإثم.

﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: ليس عليكم حرج في أكلكم جميعاً أو أشتاتاً. و«جَمِيعاً» حال، أي: مجتمعين.
﴿أَوْ أَشْتَاتاً﴾ جمع شتيت، أي: متفرقين.

قال الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا^(٣)
والمعنى: ليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوت من ذكروا حال كونكم مجتمعين أو متفرقين. وكان من كرم بعض العرب أنه لا يأكل وحده.
كما قال حاتم الطائي^(٤):

إذا ما صنعت الزاد فالتمسن له أكيلاً فإني لست آكله وحدي

(١) البيتان بدون نسبة. انظر: «الهدية الهادية» ص ٥٩.

(٢) البيتان للناسخ الأكبر. انظر: «ديوانه» بمجلة المورد، العدد ١، ص ٦٠.

(٣) البيت ورد في «ديوان قيس بن الملوح» ص ١٢٢، وفي «ديوان ابن خفاجة» ص ٢٣٧.

(٤) انظر: «ديوانه» ص ٢٩٥.

فبين الله عز وجل جواز الأكل حال كونهم مجتمعين أو متفرقين، لكن الاجتماع على الأكل أفضل؛ لأنه سبب للألفة، وحصول البركة.

عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع؟ قال: «فلعلكم تفترقون». قالوا: نعم. قال: «فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»^(١).

فيجوز الأكل من بيوت المذكورين بالمعروف بلا إذن، وإن لم نعلم رضاهم؛ لأن العرف والعادة رضاهم بذلك غالبًا، لما بينهم من صلة القرابة أو الائتمان والمعاملة، أو الصداقة كما إذا علمنا رضاهم، وفي هذا اعتبار العرف والعادة.

لكن إن علمنا عدم رضاهم فلا يجوز، اللهم إلا في حال تقصير من تجب عليه النفقة فللمنفق عليه أن يأكل من ماله بالمعروف وإن لم يعلم ولم يرخص لقله ﷺ لما قالت امرأة أبي سفيان: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. فقال ﷺ: «خذي ما يكفيك وولديك بالمعروف»^(٢).

أما من عدا من ذكروا فلا يجوز الأكل من بيوتهم إلا بعد رضاهم كأولاد الإخوة وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال، والأقارب من جهة الرضاع وغيرهم.

ويؤخذ من الآية أهمية حقوق من ذكروا بعضهم على بعض، بل أخذ بعض أهل العلم من الآية وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما يؤخذ منها أن حق القرابة أعظم من حق الصديق؛ لتأخيره في الآية، ولهذا فإن من الجفاء وعدم الوفاء أن يبرّ الرجل صديقه ويجفو أباه كما جاء في الحديث^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في الأئمة- الاجتماع على الطعام ٣٧٦٤، وابن ماجه في الأئمة- الاجتماع على الطعام ٣٢٨٦، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٤٦، ومسلم في الأفضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن- ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ٢٢١٠- مطولاً من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء» وذكر منهن: «وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه»... الحديث، وقال الترمذي: «حديث غريب».

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ بيوتاً: نكرة، يعم جميع البيوت، ما كان للإنسان أو لغيره، مسكونة أو غير مسكونة، وكذا بيوت الله المساجد^(١).

﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإن كان في البيوت أحد فالسلام عليه بمثابة السلام على النفس؛ لأن المؤمنين كالجسد الواحد والنفس الواحدة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، المعنى هنا: لا يقتل بعضكم بعضاً.

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحُمى والسهر»^(٢).

فإن لم يكن في البيوت أحد قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين^(٣)؛ لأن هذا هو السلام الذي علم النبي ﷺ أمته أن يسلموا به على أنفسهم وعلى من كان غائباً عنهم - كما في التشهد في الصلاة.

وإن كان من في البيت كفاراً قال: «السلام على من اتبع الهدى» كما في كتابه ﷺ له رقل^(٤).

وإن كان لا يدري أهم مسلمون أم كفار، وهو في بلاد الإسلام سلم عليهم بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله.

﴿تَحِيَّةٌ﴾ تحية: مصدر، أي تحيونها تحية؛ لأن معنى السلام: الدعاء بالبقاء والحياة والسلامة لمن يُسلم عليهم، ﴿مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي: من لدنه عز وجل؛ لأنه سبحانه وتعالى هو المالك لها، فكأن المسلم يقول: أدعو الله لكم بالسلامة من عنده. كما أنها من عنده عز وجل، هو الذي شرعها ويثيب عليها.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/٣٨٣-٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/٢٦٥٠-٢٦٥١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٣١٨، ٣١٩. «تفسير ابن كثير» ٦/٩٤.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٧٣، وأبو داود في الأدب ٥١٣٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧١٧- من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.

﴿مُبْرَكَةً﴾، أي: ذات بركة، والبركة الخير الكثير الثابت؛ لأنها طريق للتحابب والتآلف، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»^(١).

﴿طَيِّبَةً﴾ بأن تكون خالصة لله عز وجل، وفق شرعه، مقبولة عنده عز وجل يثيب عليها، من الكلم الطيب المحبوب عند الله؛ لأنه لا يقبل من الأعمال والأقوال إلا ما كان طيباً صالحاً حسناً، كما قال عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].
وقال عز وجل في رد التحية: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

وكما في التشهد: «التحيات لله والصلوات والطيبات...»^(٢).
وطيبة أيضاً تطيب بها نفس المسلم والمسلم عليه، وتدخل المحبة والسرور على كل منهما.

ويؤخذ من الآية مشروعية السلام؛ لأن الله أمر به وهو من عنده عز وجل وفيه البركة والخير والعمل الطيب لما فيه من دعاء المسلمين بعضهم لبعض وإدخال المحبة والسرور فيما بينهم، لكن بما شرع الله من تحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
لا أن يقول لمن لقيه: مرحباً أو أهلاً وسهلاً، أو يقول في المكالمات الهاتفية «ألو» فهذا ليس من التحية المشروعة، لكن إن سلم بالتحية المشروعة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم أتبع ذلك بقوله: «مرحباً» ونحو ذلك فلا بأس، وهكذا حصل من الأنبياء مع نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، وذلك ليلة الإسراء والمعراج، فكان ﷺ يسلم عليهم واحداً واحداً، ثم بعد ردهم السلام عليه يتبعون ذلك بقولهم: «

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٥٤، وأبو داود في الأدب ٥١٩٣، والترمذي في الاستئذان ٢٦٨٨، وابن ماجه في المقدمة ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح»^(١).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾، أي: مثل ذلك البيان يبين الله لكم الآيات الشرعية والكونية، وقد تقدم الكلام على مثل هذا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ «لعل» للتعليل، وقيل: للرجاء، أي لأجل أن تعقلوا، أو رجاء أن تعقلوا. والمراد بالعقل هنا: الفهم وحسن التصرف، وليس عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف والذي يفقده يُرفع التكليف، كما قال ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَالْمَجْنُونِ حَتَّى يَفِيْقَ، وَالصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ»^(٢).

بل المراد العقل الذي هو مناط المدح والذم؛ والذي هو الاستفادة من العقل والانتفاع به في حسن التصرف والأخذ بالنافع وترك الضار في أمور الدين والدنيا، وهو الذي أثنى الله به على المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

وذم بفقده الكافرين في مواضع كثيرة، كما قال تعالى: ﴿هُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤، ٧٦، آل عمران: ٦٥، الأنعام: ٣٢، الأعراف: ١٦٩، يونس: ١٦، هود: ٥١، يوسف: ١٠٩، الأنبياء: ١٠، ٦٧، المؤمنون: ٨٠، القصص: ٦٠، الصافات: ١٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- رفع الحرج والإثم عن الأعمى والأعرج والمريض في تركهم الجهاد، وفي أي عمل لا يستطيعونه بسبب هذه الأعذار؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾.

٢- مراعاة الشرع لأهل الأعذار ورفع المشقة عنهم فعدّهم الله عز وجل عن الجهاد

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٣، ومسلم في الإيمان ١٦٢، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦- من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٩٨، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٢، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث عائشة- رضي الله عنها. وصححه الألباني.

وغيره مما لا يستطيعون القيام به، بل أعطاهم مثل أجر من يعمل ذلك إذا صدقت نياتهم، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].

٣- جواز الأكل من بيوت المذكورين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَمَلَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

والأكل من بيوت هؤلاء المذكورين يرجع إلى ثلاثة أسباب: قرابة، أو ائتمان، أو صداقة. والأكل من بيوتهم جائز، سواء علمنا رضاهم أو لم نعلم؛ لأن الغالب رضاهم. لكن لو علمنا عدم رضاهم لم يجز الأكل، إلا إذا كان الأكل ممن تجب عليهم نفقته.

٤- في قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ توطئة لما بعده أو إشارة إلى أن الأكل من بيوت من ذكروا بعد كالأكل من بيوتهم أنفسهم.

٥- لم يذكر عز وجل الأكل من بيوت أولادهم؛ لأن بيوت أولادهم كبيوتهم.

٦- جواز الأكل من البيوت التي مفاتيحها عند الإنسان وهو مؤكّل عليها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

٧- جواز الأكل من بيت الصديق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

٨- أهمية حقوق المذكورين في الآية بعضهم على بعض، وبخاصة الأقارب، وأن حقهم أعظم من حق الصديق؛ لهذا قدّمهم عليه في الذكر، بل أخذ بعض أهل العلم من الآية وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض.

٩- يجوز الأكل من بيوت من ذكروا سواء كان الآكلون مجتمعين، أو متفرقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، وإن كان الأولى الأكل مجتمعين ففيه البركة كما دلت السنة على ذلك.

١٠- مشروعية السلام وفضيلته عند دخول البيوت سواء كانت للداخل أو لغيره مسكونة أو غير مسكونة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾.

١١- أن المسلمين كالجسد الواحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

١٢- امتنان الله عز وجل على عباده ببيان وإيضاح الآيات الكونية والشرعية والعناية بذلك؛ لأجل أن يعقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه ويتفكروا ويتدبروا في آياته، ويستدلوا بها على عظمته واستحقاقه للعبادة دون من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أن العاقل حقاً من دله عقله إلى التأمل في آيات الله وتعظيم حقوقه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

لما ذكر الأمر بالاستئذان عموماً عند دخول البيوت ذكر الأمر بالاستئذان عند الانصراف إذا كانوا على أمر جامع مع النبي ﷺ^(١).

سبب النزول:

رُوي أن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق، الذي حفره النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة بلا كلل منهم ولا ملل، مع ما هم فيه من الخوف والجوع والبرد والتعب، وإذا أراد أحد منهم الانصراف استأذن النبي ﷺ بينما أخذ المنافقون يتشاقلون في العمل ويتسللون خفية^(٢).

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون كاملو الإيمان المتصفون بالصفات المذكورة.

ويفهم من حصر الإيمان في أهل هذه الصفات أن من لم يتصف بها فليس بمؤمن، أو هو ناقص الإيمان؛ لأن معنى الحصر إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه. والإيمان في اللغة: التصديق، وشرعاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذه هي الصفة الأولى، والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالرسول ﷺ هو طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ هذه هي الصفة الثانية أي: وإذا كانوا معه ﷺ على أمر جامع، أي: أمر عام وهام يستدعي اجتماع جميع المسلمين، كالجهاد، والمشورة ونشر سنة

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٥.

(٢) انظر: «لباب النقول» ص ١٦٢، «الدر المشور» ٥/ ٦٠.

في الدين، أو لترهيب عدو، وغير ذلك من الأمور المهمة التي يجتمع المسلمون لفعالها^(١). ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾، أي: لم ينصرفوا عما اجتمعوا عليه مع النبي ﷺ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾، أي: إلى غاية أن يستأذنه، أي: يطلبوا منه الإذن بالذهاب.

لما يؤدي إليه ذهابهم بلا استئذان من الفوضى والإخلال بالنظام، وكون ذلك يفتُّ في عضد الجماعة، ويضعف رأيها وقوتها، ويضر بمصالح الأمة.

قال ابن القيم في كلامه على هذه الآية^(٢):

«فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه».

وصدق ابن القيم رحمه الله قال عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُفَدِمُوا بِئِنَّ يَدَيَّ اللَّهُ وَرَسُولِي﴾ [الحجرات: ١] وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا بِدَارٍ﴾ [الأنفال: ٤٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، أي: إن الذين يستأذنونك عند إرادتهم الانصراف والذهاب في حال الاجتماع على أمر جامع ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أشار إليهم بالإشارة للبعيد، إشارة إلى فضلهم ورفعة مكانتهم وعلو منزلتهم، فحصر الإيمان فيهم أولاً، وأكده فيهم ثانياً بمؤكدات ثلاثة «إن» والإشارة «أولئك» وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين تدل على الثبوت والدوام. أي: أولئك الذين يؤمنون حقاً بالله ورسوله.

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ «الفاء» عاطفة، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا طلبوا منك الإذن لهم لبعض أمورهم.

﴿فَإِذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، أي: فأذن للذي شئت منهم، ممن ترى قبول عذره، وحاجته للاستئذان. فجعله مخيراً في الإذن لمن شاء منهم وعدمه، وذلك حسب المصلحة، فإذا كان الإذن لهم لا يضر بالمصلحة العامة وفيه مصلحة لهم تفوق مصلحة

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/٣٢٠-٣٢١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٢٧٥.

بقائهم، ولا يخشى إذا أذن لهم أن يكثروا المستأذنون أذن لهم، وإلا فلا.
فلا يجوز الانصراف إلا لحاجة بعد إذن الرسول ﷺ، أو إذن ولي الأمر من بعده.
وفي أمره ﷺ بالإذن لمن شاء منهم، وكذا ولاية الأمر من بعده تيسير من الله عز
وجل على الأمة.

وعلى من أذن له بعد الاستئذان قبل أن ينصرف أن يتبع الاستئذان بالسلام، كما
جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم
إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»^(١).
﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾، أي: اطلب من الله عز وجل المغفرة لهم؛ لتطيب قلوبهم
بالانصراف بلا حرج حيث تأدبوا بأدب الله عز وجل ولم يذهبوا حتى أذنت لهم.
وطلباً من الله التجاوز عما قد يكون في استئذانهم من التقصير، وتعويضاً عما يخاف
أن يفوتهم من أجر هذا الاجتماع بحسب ما يكون من نقص في عذرهم.
أما من كان معذوراً وحال بينه وبين المشاركة في هذا الأمر الجامع العذر فله أجره
كاملاً.

كما يدل قوله ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾ على أن عدم الاستئذان والبقاء أولى.
كما يدل على الانتفاع بدعاء الغير، وهو محل إجماع قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم
انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢).
﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾
[النجم: ٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته كما في حديث ابن عمر في
المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه
فيقره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي: رب أعرف، قال: فيقول:

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - السلام إذا قام من المجلس ٥٢٠٨، والترمذي في أبواب الاستئذان -
التسليم عند القيام والقعود ٢٧٠٦، وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١،
والترمذي في الأحكام ١٣٧٦ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١).

﴿رَحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

وقال تعالى للجنة: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشياء»^(٢) وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠].

وهي قسمان: رحمة عامة لجميع المخلوقات الناطق والبهيم، والمؤمن والكافر. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]. ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وحيث قرن عز وجل بين وصف نفسه بالمغفرة والرحمة فيؤخذ من المغفرة التخلية وزوال المهوب، ومن الرحمة التحلية وحصول المطلوب.

الفوائد والأحكام:

- ١- أن المؤمنين حقاً الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً كاملاً سمعاً وطاعةً وانقياداً لأمر الله ورسوله ظاهراً وباطناً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٢- أن من صفات المؤمنين بالله ورسوله حقاً إذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر جامع لمصلحة الأمة لم ينصرفوا حتى يستأذنوه، وكذا حالهم مع ولاة أمر المسلمين بعده ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.
- ٣- الإشارة إلى وجوب اجتماع كلمة المسلمين في القضايا التي تتعلق بمصالح الأمة كالجهاد والمشورة وغير ذلك.

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.
(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- ٤- التعريض بمن ينصرفون عند اجتماع المسلمين على أمر بلا استئذان من الرسول ﷺ أو أولى الأمر بعده.
- ٥- تأكيد الثناء على المؤمنين بالله ورسوله وأنهم لا ينصرفون إلا بعد إذنه ﷺ، وأن عدم انصرافهم إلا بعد الاستئذان يدل على قوة إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٦- أن الإذن لمن يريد الانصراف من المسلمين مفوض له ﷺ فيأذن لمن شاء منهم، ويمنع من شاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا اسْتَنْذَرُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، أي: وامنع من شئت منهم- وذلك كله حسب المصلحة والأمر بعده ﷺ موكول لولاية أمر المسلمين.
- ٧- أن على ولي الأمر التيسير على من تحت ولايته مع مراعاة المصلحة العامة.
- ٨- أن الاستئذان بدون عذر لا يقبل.
- ٩- الاستغفار لمن استأذنوا بعد الإذن لهم بالانصراف لما عساه أن يلحقهم من نقص أو تقصير في العذر ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾. وفي هذا إشارة إلى أن البقاء وعدم الاستئذان أولى.
- ١٠- الانتفاع بدعاء الغير واستغفارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾.
- ١١- إثبات صفة المغفرة التامة الواسعة لله عز وجل، وأنه يغفر لمن استغفر وتاب وأناب إليه، وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة عامة، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ١٢- أن التخلية قبل التحلية؛ لأن الله عز وجل قدّم المغفرة على الرحمة في الآية، فبالمغفرة يزول المرهوب، وبالرحمة يحصل المطلوب.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣).

سبب النزول:

رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبية ﷺ، قال: فقالوا: يا نبي الله؛ يا رسول الله» (١).
قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ «لا»: ناهية، و«دعاء»: مضاف إلى مفعوله، و الفاعل ضمير المخاطبين محذوف، والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول بينكم أي: نداءه بينكم.

﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ بأن تقولوا: يا محمد، أو يا محمد بن عبد الله، أو يا أبا القاسم، أو نحو ذلك، كما ينادي بعضكم بعضاً بقوله: يا فلان بن فلان، بل ينبغي أن تنادوه بوصف النبوة والرسالة فتقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، مع خفض الصوت، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] (٢)، تكريماً له ﷺ واحتراماً وتوقيراً.

قال ابن القيم رحمه الله (٣): «وإذا كان هذا في خطابه فكذلك لا ينبغي أن يجعل ما يدعى له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض، بل يدعو له بأشرف الدعاء وهو الصلاة عليه».

ومن هنا يعلم خطأ ما يفعله كثير من الكتاب المتأثرين بالمستشرقين والغربيين من الاكتفاء بكتابة «محمد» في ذكر اسمه ﷺ وبكتابة: «ص» أو «صلعم» بدل: ﷺ.
ويحتمل أن المصدر «دعاء» مضاف إلى فاعله، أي: إلى الرسول، فيكون المعنى لا تجعلوا دعاء الرسول إذا دعاكم دعاء بعضكم بعضاً، إن شئتم أحببتم وإن شئتم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٦٥٤ - «الأثر» ١٤٩٢٤، وانظر: «لباب النقول» ص ١٦٢، «الدر المنثور» ٥/ ٦١.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٦.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

تركتم، بل إذا دعاكم الرسول ﷺ وجبت عليكم إجابته^(١).
وعلى هذا فتكون الآية فيها الأمر بوجوب طاعة الرسول ﷺ والنهي عن معصيته، ويقوي هذا الاحتمال قوله بعد ذلك: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وإجابة دعوة الرسول ﷺ واجبة، حتى قال بعض أهل العلم: لو دعاه الرسول ﷺ وهو يصلي وجبت عليه إجابته^(٢).

لما جاء في حديث أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دعاه وهو يصلي فلم يجبه، فقال له: ألم يقل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢٤]^(٣).

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين معاً إذ لا تنافي بينهما فهي في تعليم الأدب مع الرسول ﷺ في خطابه وندائه، وفي وجوب إجابة أمره ودعائه.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ «قد» للتحقيق، والمضارع هنا بمعنى الماضي، أي: علم الله الذين يتسللون منكم، وجاء بصيغة المضارع للدلالة على استمرار علمه في المستقبل.

ومعنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: يخرجون ويذهبون وينصرفون، ﴿لِوَاذًا﴾، أي: خفية، من لاذ بالشيء يلود به، أي: اختفى من ورائه، فهم عندما يريدون الانصراف يلود بعضهم ويتخفى في الآخرين، حتى لا يراهم الرسول ﷺ.

والمعنى: أن الله لا يخفى عليه الذين ينصرفون ويخرجون عما أجمع عليه المسلمون من الجهاد أو حضر الخندق أو غير ذلك وفي هذا وعيد وتهديد لهم بمجازاتهم على ذلك. ﴿فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ «الفاء» رابطة لجواب شرط مقدر، و(اللام) لام الأمر؛ ولهذا سكنت بعد الفاء. والخذر: الاحتراز وأخذ الحيلة خشية وقوع المكروه.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٨٨ - ٣٩٠، «بدائع التفسير» ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٤٧، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٨، والنسائي في الافتتاح ٩١٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٥.

﴿يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، أي: يصدون أو يخرجون عن أمره مخالفين له، وجاء التعبير بـ«عن» في قوله «عن أمره» لتضمن الفعل (يخالفون) معنى: (يصدون) أو (يخرجون) فجمعوا بين المخالفة والصد والخروج.

وقيل: يخالفون أمره و«عن» زائدة للتوكيد.

والمعنى: يصدون ويخرجون عن منهجه وطريقته ويعصون أمره، فيتخذون طريقاً ومنهجاً غير طريقه، ومنهجه ويخالفونه في قوله وفعله.

قال ابن كثير رحمه الله^(١): «أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً ما كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ، أنه قال: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

وقوله ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ يحتمل أن الضمير يرجع إلى الله عز وجل بدليل قوله قبل هذا: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾.

ويحتمل أن يرجع إلى الرسول ﷺ؛ لقوله قبل هذا: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

ولا مانع من حمله على المعنيين إذ لا منافاة بينهما. وأمر الرسول ﷺ من أمر الله عز وجل قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يجذر». والفتنة: الابتلاء والاختبار، والمراد من الفتنة هنا: الفتنة في الدين، قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، أي: الفتنة في قلوبهم من الشرك والزيغ والنفاق والبدع والمعاصي^(٣)، كما قال عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَدَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنْدِرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

(١) في «تفسيره» ٩٧/٦.

(٢) أخرجه مسلم في الأفضية ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٩٧/٦.

[الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَجَلُ وَأَسْتَفَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَيَّرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرْهُ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥].

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله عز وجل يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»^(١).

فسر رحمه الله الفتنة بالشرك والصد عن سبيل الله؛ لأن الإنسان إذا رد بعض قول الله تعالى أو بعض قول الرسول ﷺ قد يكون ذلك سبباً لزيغ قلبه؛ لأن من عقوبة المعصية أن تجر إلى معصية أكبر منها، وهو - رحمه الله - يشير بهذا إلى معنى قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وغيرها من الآيات في هذا المعنى.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «أو» مانعة خلو، أي: لا يخلو حال من خالف أمر الله ورسوله أن يصاب بالفتنة، أو بالعذاب الأليم، أو يصاب بهما جميعاً. والعذاب: العقوبة والنكال.

أي: أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا؛ لأن العذاب ذكر في مقابل الفتنة فيكون عقوبة معجلة لهم في الدنيا بالقتل وغيره.

ويحتمل أن العذاب في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة.

﴿أَلِيمٌ﴾ «فعل» بمعنى «مفعول»، أي: مؤلم حساً ومعنى.

وهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد يدل على وجوب امتثال أمر الله ورسوله وأن الأصل في أمر الله ورسوله الوجوب وهكذا استدل أهل العلم من الأصوليين وغيرهم بهذه الآية على أن الأصل في الأمر الوجوب.

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص ٥٤٥.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب احترام الرسول ﷺ وتعظيمه وتوقيره، ودعائه وندائه بوصف النبوة والرسالة: يا نبي الله، يا رسول الله، كما دعاه الله عز وجل بذلك في القرآن الكريم، وعدم دعائه باسمه مجرداً؛ لأن الله تعالى نهى المؤمنين عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

٢- وجوب إجابة دعوة الرسول ﷺ إذا دعا أحداً من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، أي: أن دعاء الرسول ونداءه يوجب على المدعو والمنادى الإجابة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

بخلاف دعاء الناس بعضهم بعضاً فهذا لا يوجب الإجابة مطلقاً.

٣- إثبات وتحقيق علم الله عز وجل بأولئك الذين يتسللون منصرفين خفية يلود بعضهم ببعض من المنافقين ومرضى القلوب من غير إذنه ﷺ، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُطُونَ فِيكُمْ إِذَا﴾.

٤- تحذير الذين يتسللون في الأمور الجامعة بدون عذر، ولا استئذان، ويفتنون في عضد المسلمين.

٥- التحذير الشديد والوعيد الأكيد لمن يخالف أمر الرسول ﷺ من أن تصيبهم فتنة في الدين بالشرك والكفر والنفاق الاعتقادي، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٦- تعظيم مكانة الرسول ﷺ، وتعظيم أمره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ لأن أمره ﷺ من أمر الله تعالى.

٧- أن الأصل في الأمر الوجوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجِعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بعد ما حذر عز وجل من خالف أمره وأمر رسوله ﷺ بالفتنة أو العذاب الأليم أتبع ذلك ببيان أن له وحده ملك السموات والأرض فلا يعجزه شيء، وأنه يعلم ما هم عليه ومرجعهم جميعاً إليه فينبئهم بأعمالهم ويجازيهم عليها.

قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: «ألا» أداة استفتاح وتنبية، و«إن» حرف توكيد ونصب، «لله» جار ومجرور خبرها مقدم، و«ما» اسم موصول، اسمها مؤخر، وقدّم الخبر؛ لإفادة الحصر، أي: إن لله عز وجل وحده ما في السموات والأرض.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد علم ما أنتم عليه أيها الناس في الماضي ويعلم ما أنتم عليه في المستقبل من امثال أمر الله ورسوله أو مخالفة ذلك، وغير ذلك من أحوالكم في الدنيا حال العمل، فهو عالم بذلك كله مشاهد له، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ الواو عاطفة، و«يوم» منصوب عطفاً على «ما» في قوله: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، وليس بظرف، و﴿يُرْجَعُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لتنبية المخاطب، أي: ويعلم يوم يرجعون إليه، أي: ويعلم متى يرجعون إليه، ويعلم أحوالهم حين يرجعون إليه يوم القيامة حال الحساب والجزاء.

وفي هذا إثبات المعاد والحساب، كما قال تعالى: ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

[القيامة: ١٣].

فعلمه عز وجل محيط بأحوال الخلق في الدنيا والآخرة في الحاضر والمستقبل.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي عملوه، أو بعملهم كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا

بِعَادِرٍ صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ إِلَّا أَحْصَنَهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿الكهف: ٤٩﴾.
 أي: فيخبرهم بالذي عملوه من خير أو شر؛ لتقريرهم بأعمالهم على سبيل العرض فقط بالنسبة للمؤمنين، ثم يجازيهم بفضله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ لأن من نُوقش الحساب عُذِب، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقش الحساب عُذِب» قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا سَيْرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ قال: ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب عُذِب»^(١).

ولهذا قال ﷺ «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»^(٢).
 وكما رُوِيَ في قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمس مئة سنة وأخرج الله له الرمانة كل يوم، ولما قال الله تعالى له: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي قال: بل بعلمي. فقال الله عز وجل ردوا عبدي فحاسبوه، فوجدوا أن أعماله كلها خلال خمس مئة سنة لا تكافئ نعمة البصر، فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدي. فقال: لا يا رب، بل أدخلني الجنة برحمتك»^(٣).

وأما الكفار فتعرض عليهم أعمالهم على وجه المناقشة والمعاتبة والتقريب والتوبيخ والحساب العسير، ويجازيهم عز وجل بعدله السيئة بمثلها ولا يظلم ربك أحدًا.
 ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، أي: والله عز وجل بكل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، دقيقةها وجليلها، من الأعمال والأقوال، وغير ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: محيط به علمًا.

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٠٣، ومسلم في الجنة- إثبات الحساب ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦، وأحمد ٤٧/٦.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

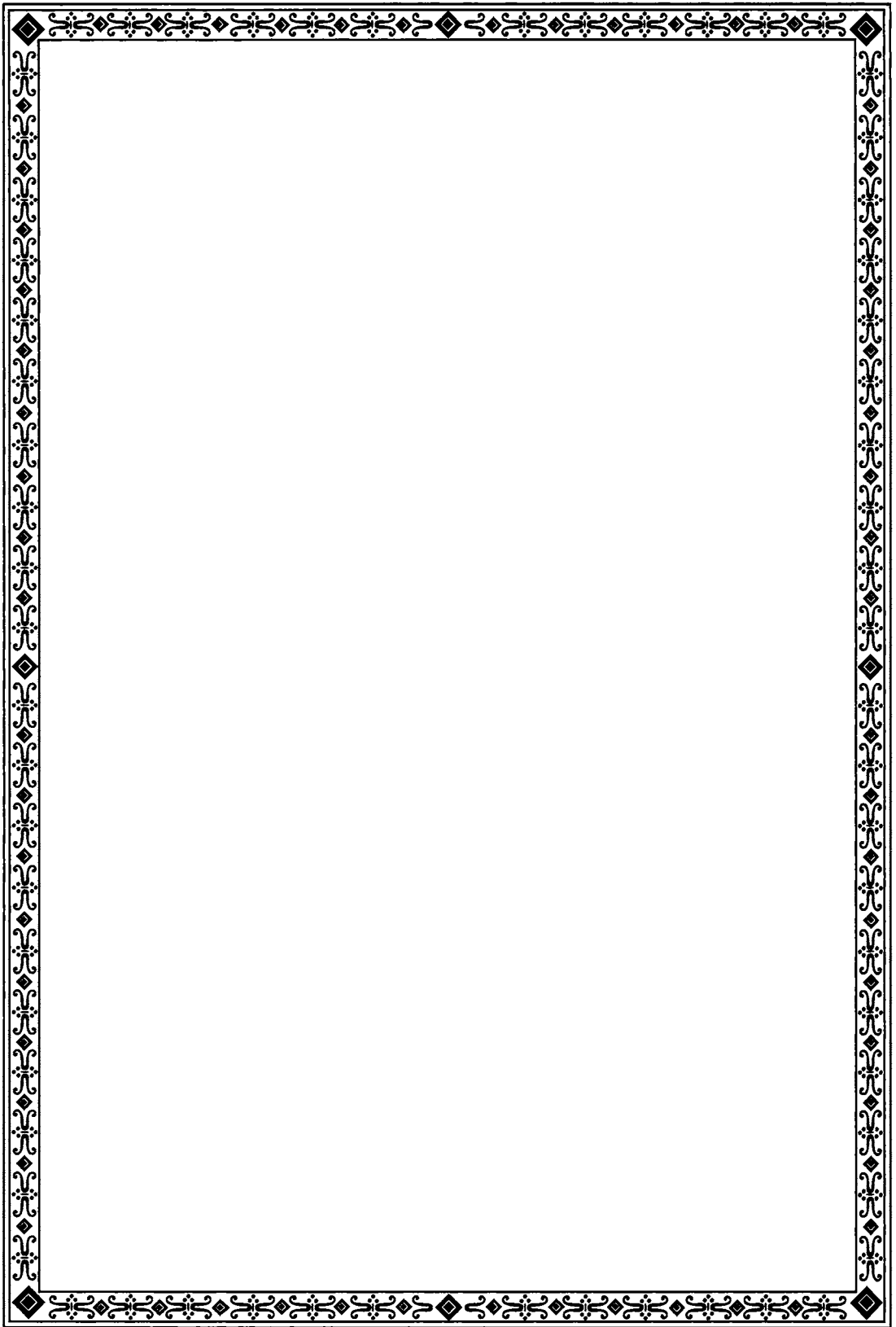
(٣) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٢٥٠/٤ من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات أن الله جميع ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿الْآ
إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢- علم الله عز وجل التام بما عليه العباد من أعمال وأحوال، ومتى يرجعون إليه،
وحالهم حين يرجعون إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾.
- ٣- إثبات المعاد، وأن مرجع الخلائق ومصيرهم إلى الله عز وجل فيخبرهم بأعمالهم
ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾.
- ٤- إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وفي هذا حث
على امتثال أمر الله ومراقبته، وتحذير من المخالفة.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الفرقان»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبيته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها...»^(١).

ب- مكان نزولها:

مكة.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الفرقان بذكر تعاليه عز وجل وتعاضمه، والثناء عليه بإنزاله الفرقان، واختصاصه بعموم ملك السموات والأرض، وتنزيهه عن الولد والشريك، وخلق كل شيء وتقديره: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾.

٢- ذم المشركين الكافرين في اتخاذهم آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وزعمهم أنه ﷺ افترى القرآن وأعاناه عليه غيره؛ ظلماً منهم وزوراً، وأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً، والرد عليهم: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- أنزل القرآن على سبعة أحرف ٤٩٩٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨١٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٥، والنسائي في الافتتاح ٩٣٦، والترمذي في القراءات ٢٩٤٣.

٣- ذكر طعن المشركين في رسالته ﷺ لكونه بشراً وليس بملك، وإثارة الشبهات حوله بعد أن طعنوا في القرآن: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾.

٤- ذكر تكذيبهم بالساعة، والوعيد والتهديد لمن كذب بها بالسعير، وما لهم فيها من صنوف العذاب، وشتان بينها وبين جنة الخلد ﴿الَّتِي وَعَدَ الْمُنْقُوتُ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾.

٥- تبرؤ المشركين ومعبوداتهم بعضهم من بعض يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

٦- الرد على المشركين في طعنهم في رسالته ﷺ لكونه بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وبيان أن الرسل كلهم بهذه الشاكلة عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

٧- جرأة المكذبين بلقاء الله- لشدة كفرهم واستكبارهم وعتوهم- على اقتراح إنزال ملائكة عليهم، أو رؤيتهم ربهم تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وتهديد المجرمين ووعيدهم يوم رؤيتهم الملائكة: أن لا بشرى لهم، وإحباط أعمالهم.

٨- التنويه والإشادة بمستقر أصحاب الجنة وحسن مقيلتهم: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ إِذِ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

٩- عظم أهوال يوم القيامة، ففيه تشقق السماء بالغيام، ونزول الملائكة، وظهور أن الملك كله لله، وعسر ذلك اليوم على الظالمين، وندمهم على مجانبة طريق الرسول

ﷺ، وعلى مخالفتهم أولياء الشيطان، وإضلالهم لهم، وخذلان الشيطان لهم.
 ١٠- شكوى الرسول إلى ربه هجران قومه للقرآن، وعدم أخذهم بما فيه من الأوامر والنواهي، وتركهم له.
 ١١- حكمة الله الكونية في تسليطه على كل نبي عدواً من المجرمين، وكفى به عز وجل هادياً ونصيراً.

١٢- اقتراح الذين كفروا- عناداً منهم- إنزال القرآن جملة واحدة على النبي ﷺ، وبيان عز وجل الحكمة في إنزاله عليه ﷺ مفرقاً؛ وهي تثبيت قلبه ﷺ، وتوعده عز وجل وتهديده للمكذابين: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۗ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۗ﴾ (٣٢) الَّذِينَ يَمْشُرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾.

١٣- ذكر شيء من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وإقامة الحجة عليهم وإهلاكهم كما كذبوا الرسل؛ ليعتبر بذلك المشركون المكذبون: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ۗ﴾ (٣٥) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نَوْجٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نَسُورًا ﴿٤٠﴾.

١٤- تناول المشركين الجاحدين على رسول الله ﷺ، واستهزاؤهم به، وتهديده عز وجل وتوعده لهم، وتسليته له ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُوكَ إِلَّا هُرُوعًا ﴿٤١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنَ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا لَا يَتْلُمُونَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٤٥﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٤٦﴾.

١٥- ذكر بعض مظاهر قدرة الله تعالى في الكون ونعمته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٧﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي

جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾، وقوله: ﴿٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٣﴾، وقوله: ﴿٥٤﴾ نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٥٦﴾.

١٦- ذم المشركين وتسفيههم في عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وإنكارهم اسم الرحمن، وامتناعهم من السجود له، ونفورهم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٦﴾، وقوله: ﴿وَأِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

١٧- بيان مهمته ﷺ وتسليته وتقوية قلبه تجاه المكذبين من قومه وأمره بالتوكل على الله وتسيحجه، فكفى به عز وجل بذنوب عباده خيرا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾.

١٨- بيان صفات عباد الرحمن؛ ثناء عليهم، وترغيبًا في الاتصاف بها، من التواضع ومسألة الجاهلين، وقيام الليل، وسؤال ربهم صرف عذاب جهنم عنهم، وكون إنفاقهم قوامًا وسطًا بين الإسراف والتقتير، واجتنابهم الشرك بالله، وعدم قتلهم النفس المعصومة بغير حق، واجتنابهم الزنا وشهادة الزور، وإكرامهم أنفسهم عن اللغو، واتعاضهم بآيات ربهم، وسماهم وتدبرهم لها، وسؤالهم ربهم أن يجعل لهم من ذرياتهم قرة أعين، ويجعلهم للمتقين إمامًا.

١٩- الوعيد والتهديد لمن أشرك بالله أو قتل النفس المعصومة، أو ارتكب فاحشة الزنا، والترغيب في التوبة: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿٦٨﴾ يَضَعُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾.

٢٠- وعد الله تعالى الذي لا يخلف وعده لعباده المتصفين بما ذكر بعظيم الثواب:
﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَلَدِينَ فِيهَا
حَسَنَتٌ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

٢١- وعيد الكافرين المكذبين بلزوم العذاب لهم بعد إقامة الحجة عليهم وكفرهم
وتكذيبهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَقْرَأُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَهُ ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا اسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبْتُمَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعظيم وكملت صفاته، وكثر خيره، وعمت بركته. وفي هذا بيان وإخبار، وثناء على نفسه بعظمته وكمال صفاته وكثرة خيره وبركته؛ لأن البركة نوعان: بركة تضاف إليه عز وجل إضافة العزة والرحمة، ويوصف بها فيقال: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهي مختصة به^(١)، وصف عز وجل بها نفسه في مواضع كثيرة من كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ؛ كما قال ﷺ: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٢).

وهي دالة على كمال بركته وعظمتها وسعتها.

وبركة: هي فعله، يبارك ما شاء، وعلى من شاء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣٢٨١.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٣٠٠، وأبو داود في الصلاة، ما يقول الرجل إذا سلم ١٥١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما يقال بعد التسليم ٩٢٨، وأحمد ٥٢٧٥؛ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

﴿حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى في ثنائه على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته: ﴿رَحِمْتُ
اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَدَّعَيْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾
[الصفات: ١١٣]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم:
٣١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، أي: الذي نزل القرآن، وهو الله عز وجل، أي: نزل القرآن
مفرقاً شيئاً فشيئاً، وسمي القرآن بـ«الفرقان»؛ لأنه الفارق بين الحق والباطل، والهدى
والضلال، والحلال والحرام، والسعادة والشقاوة؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل، وغير ذلك. ومن لازم كونه فارقاً بين الحق
والباطل أن يكون بيناً واضحاً في نفسه، كما وصفه الله عز وجل في مواضع كثيرة.

وقيل: لأنه نزل مفرقاً، ولم ينزل جملة واحدة؛ كما اقترح المشركون المكذبون، قال
تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فكان وصفه بالفرقان في أول السورة كالتوطئة والتمهيد لما يأتي بعد من ذكر
اقتراح المكذبين والرد عليهم في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ
جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

فأخبر عز وجل عن بركته، وكمال صفاته، وكثرة خيراته، وأثنى على نفسه بتنزيل
القرآن الذي هو من أعظم بركاته وأعم خيراته؛ كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ
عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، أي: على عبده ونبيه ورسوله محمد ﷺ، ووصفه بوصف العبودية
دون وصف النبوة والرسالة؛ لأن أشرف صفة يتصف بها البشر هي العبودية لله تعالى؛
ولهذا وصفه بها في أشرف أحواله؛ في مقام القرب من ربه عز وجل ليلة الإسراء، فقال
تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

كما وصفه بها في مقام دعائه إياه، فقال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾

[الجن: ١٩].

ووصفه بها هنا عند إنزال الكتاب عليه؛ ولهذا قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله وسوله»^(١).

﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يكون للعالمين من الإنس والجن كلهم نذيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي»، وذكر منها: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة»^(٢). وفي رواية: «بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود»^(٣).

ومعنى ﴿نَذِيرًا﴾، أي: منذرًا ومحذرًا لهم من عذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة؛ كما قال ﷺ: «أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء»^(٤).

ومن لازم النذارة تبليغ ما أرسل به مما يكون الأخذ به سببًا للنجاة، ومن مقتضى ذلك الإشارة بالنجاة لمن أخذ بهذا السبب واتبع النذير.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿الَّذِي﴾: بدل من الموصول السابق، أو عطف بيان، أو نعت له، أي: المملك والمالك العظيم الذي له ملك السموات والأرض وجميع ما فيها من المخلوقات العلوية والسفلية، المتفرد بذلك كله؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، أي: ولم يجعل له ولدًا؛ لكمال غناه عن الخلق، وعدم حاجته إلى الولد.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، أي: ولم يكن له شريك في هذا الملك العظيم؛ لكمال عظمته عز وجل، وسعة علمه واطلاعه وقدرته على كل شيء، وتما غناه عن الشريك

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٤٥، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد ١٢٥٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

والظهير؛ كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]،
وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣-٤]،
وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: وأوجد كل شيء في هذا الكون.

﴿فَقَدَّرَهُ﴾، أي: قدر كل شيء خلقه، أي: سواه مقدرًا ﴿تَقْدِيرًا﴾، أي: تقديرًا
دقيقًا يناسبه ويصلحه كما اقتضته حكمته عز وجل، بلا تفاوت ولا خلل؛ لتتام قدرته
وعلمه؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٢-٣]،
وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥٠]، وقال
تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي
أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ
سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٤﴾﴾:

لما بين عظمتهم وكمال صفاتهم، وكثرة خيره وإحسانه، ومن أعظم ذلك تنزيله القرآن
على محمد ﷺ؛ مما فيه إثبات التوحيد والنبوة، أتبعه بذكر البراهين على ذلك، وبيان
ضلال المخالفين لذلك، وإبطال عبادة من سوى الله.

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾، أي: واتخذ المشركون، أي: جعلوا ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، أي: غير
الله ﴿ءَالِهَةً﴾، أي: معبودات عبدوها من الأصنام والأوثان.

وسموا آلهة بحسب اعتقادهم الباطل.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾، الجملة في محل نصب صفة لـ ﴿ءَالِهَةً﴾، و﴿شَيْئًا﴾ نكرة
في سياق النفي، فتعم، أي: لا يخلقون أي شيء، مهما صغر أو قل بسبب عجزهم؛ كما
قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾

[الحج: ٧٣]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»^(١).

﴿وَهُمْ﴾، يعني: هؤلاء الآلهة ﴿يُخْلَقُونَ﴾، أي: وهم مخلوقون مربوبون لله تعالى، فكيف يُسوون بالخالق العظيم؟ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾، أي: ولا يملك هؤلاء المعبودون من دون الله لأنفسهم ﴿ضَرًّا﴾ يدفعونه عنها، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ يجلبونه لها، وإذا كانوا لا يملكون ذلك لأنفسهم، فكيف يملكونه لعبادهم؟!

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾، قَدَّم قوله: ﴿مَوْتًا﴾ - والله أعلم - لمناسبة ومقابلة قوله: ﴿ضَرًّا﴾، أو لأن الموت - وهو العدم - كان أولاً.

أي: ولا يملكون ولا يستطيعون إماتة أحد أو إحيائه، ولا نشره وبعثه بعد موته، بل الذي يملك ذلك كله هو الله تعالى وحده؛ فهو الذي يحيي ويميت، ويعيد الخلائق يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [١٣] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصفات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

وإذا كان هؤلاء الآلهة من دون الله بهذا الضعف، فكيف يتخذهم المشركون من دون الله آلهة؟! هذا من أعجب العجب! وأول دليل على سفههم ونقص عقولهم، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].
قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٥٩، ومسلم في اللباس والزينة ٢١١١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿١﴾ وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣﴾.

لما قرر صحة التوحيد والنبوة، وضلال من اتخذوا من دون الله آلهة؛ شرع في إبطال قول من قدح في الرسالة والقرآن.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، والإشارة إلى القرآن، أي: ما هذا الذي جاء به محمد ﴿إِلَّا إِفْكٌ أُفْرَنَهُ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كذب بين ظاهر اختلقه وتقولوه محمد من عند نفسه.

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، أي: وساعده وظاهره على اختلاقه وجمعه قوم آخرون، من اليهود أو غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾، بهذا القول وهذا الزعم الباطل ﴿ظُلْمًا﴾، أي: ظلمًا عظيمًا، ﴿وَزُورًا﴾، أي: كذبًا شنيعًا، بكفرهم وشركهم، وتكذيبهم القرآن والرسول ﷺ، والكذب عليه.

﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال الذين كفروا: ﴿اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: هذا القرآن ﴿اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، «الأساطير» جمع أسطورة، أي: أقاصيص الأولين وحكاياتهم وأحاديثهم المسطرة في كتبهم مما لا أصل له.

﴿أَكْتَتَبَهَا﴾، أي: استنسخها محمد، أي: أمر غيره بأن يكتبها وينسخها له؛ لأنهم يعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.

﴿فِيهِ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: تقرأ عليه أول النهار وآخره.

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد ردًا عليهم، وتكذيبًا لقولهم:

﴿أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: أنزل هذا القرآن

العظيم، المشتمل على أخبار الأولين والآخرين، وعلى كل شيء، الذي يعلم السر والغيب في السموات والأرض، وعلمه بالجهر والشهادة من باب أولى؛ كما قال تعالى:

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى:

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠].

أي: أنزله الذي أحاط علمه بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].
وفي قوله: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع دلالة هذا الكتاب العظيم على كمال علمه عز وجل وحكمته: إشارة إلى أنه لا يمكن لأحد أن يتقول عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

﴿إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾، أي: إنه كان ذا مغفرة واسعة لذنوب عباده، وذا رحمة واسعة وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ ولهذا لم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة، بل فتح لهم باب التوبة والإنابة إلى الله تعالى، ووعدهم بالمغفرة والرحمة إن تابوا ورجعوا إليه.

الفوائد والأحكام:

- ١- بيان عظمته عز وجل، وكمال صفاته، وكثرة خيراته، وعموم بركته، وأن من أعظم ذلك تنزيهه القرآن على محمد ﷺ، وثناؤه عز وجل على نفسه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾.
- ٢- إثبات وصفه عز وجل بهذا الوصف ﴿تَبَارَكَ﴾ الدال على عظيم صفاته، وكثرة خيراته، لوصفه عز وجل نفسه بذلك، ووصف الرسول ﷺ له بذلك.
- ٣- أن البركة إنما تكون فيما باركه الله، أو بارك فيه، أو عليه، فلا تطلب من غير الله تعالى.

- ٤- إثبات نبوته ﷺ بوحى الله تعالى إليه، وإنزال القرآن عليه.
- ٥- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، وفي هذا ردُّ على القدرية القائلين بخلق القرآن.
- ٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٧- أن من أسماء القرآن الكريم: «الفرقان»؛ لأنه بيّن واضح، وفيه بيان الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وأهل السعادة، وأهل الشقاوة.

٨- أن أشرف ما يتصف به البشر هو العبودية لله تعالى؛ لأن الله عز وجل وصف بها نبيه ﷺ في حال إنزال القرآن عليه، فقال: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ولم يقل: على نبيه أو رسوله.

٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأن الحكمة من تنزيل القرآن الكريم على النبي ﷺ: لينذر به العالمين، ويخوفهم عذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة، لمن خالف أمره أو ارتكب نهيّه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ومن لازم هذا تبليغهم ما أمر الله به وما نهى عنه؛ ليمثلوا ذلك، وثمرة ذلك: البشارة بالنجاة من المرهوب، وحصول المطلوب.

١٠- عموم رسالته ﷺ للإنس والجن كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

١١- بيان سعة ملكه عز وجل، وكمال تصرفه، وتفرده بملك السموات والأرض وما فيها وما بينهما من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

١٢- تنزيه نفسه عز وجل عن الولد والشريك؛ لكمال عظمته وقوته، وقدرته على كل شيء، وغناه عن الولد والشريك والظهير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾.

١٣- تفرد عز وجل بالخلق، وخلق كل شيء وتساويته، وتقديره تقديرًا دقيقًا على ما يناسبه ويصلحه، وكما اقتضته حكمته، بلا نقص ولا خلل ولا تفاوت؛ لتعام قدرته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

١٤- ذم المشركين، وتسفيه عقولهم، وبيان ضلالهم في عبادتهم من دون الله آلهة لا يخلقون أي شيء بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم دفع ضرر أو جلب نفع، ولا يملكون إماتة أحد، ولا إحياءه، ولا بعثه بعد الموت، ولا غير ذلك، بل

هم مريبون لله تعالى، ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

١٥- تكذيب الكفار بالقرآن، وزعمهم أنه إفك وكذب بين ظاهر، واتهامهم له ﷺ باختلاقه وتقوله، واستعانته على ذلك بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْتَرِيَ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾.

١٦- ارتكابهم في تكذيبهم القرآن أعظم كتب الله وأصدقها، وفي اتهامهم الرسول ﷺ أفضل رسل الله وأصدقهم بافترائه أعظم الظلم والزور؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْتَرِيَ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

١٧- جرأتهم على وصف القرآن بأساطير الأولين وحكاياتهم وخرافاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

١٨- زعمهم أن الرسول ﷺ اكتتبها واستنسخها، وهم يعلمون أنهم كاذبون؛ لعلمهم أنه لا يكتب.

١٩- إثبات أن القرآن منزل من عند الله عز وجل، الذي يعلم السر في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢٠- إحاطة علمه عز وجل بالغيب والشهادة، والسر والجمهور، في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وعلمه بالشهادة والجمهور من باب أولى.

٢١- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ ولهذا لم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة، بل فتح لهم باب المغفرة والرحمة إن تابوا ورجعوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

٢٢- الوعد للتائبين بالنجاة من المهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَوْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَرَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا الْقُورُ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَدْرَأِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ۝١٦﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾.

لما ذكر طعنهم في القرآن وتكذيبهم له، أتبع ذلك بذكر طعنهم في الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾، الاستفهام للاستهزاء والتهمك، أي: ما لهذا الذي يزعم أنه رسول، أو يدعي الرسالة ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ مثلنا، ويحتاج إلى الطعام كما نحتاج إليه.

﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، أي: ويسير في الأسواق، ويتردد فيها مثلنا طلبًا للتكسب والتجارة ولقمة العيش.

وهذا بزعمهم لا يليق بمن يكون رسولاً، وهذا زعم باطل، أبطله الله تعالى ورده بقوله بعد هذا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم؛ كنت أرها على قراريط لأهل مكة»^(١).

(١) سبق تحريجه.

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ «لولا» للتحضيض، أي: هلا أنزل إليه ملك من الملائكة الذين لا يأكلون الطعام ولا يمشون في الأسواق، يشهد على صدق رسالته، ويكون معه نذيرًا للناس. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ [الأنعام: ٨].

وكما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ دَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣].

﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ﴾ من السماء ﴿كَزُّ﴾، أي: مال كثير مجموع من غير تعب منه، ويستغني به عن المشي في الأسواق، وطلب الكسب، ويكون دليلاً على صدقه؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾، أي: بستان فيه أنواع الثمار.
﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون: «تَأْكُلُ مِنْهَا»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

أي: تغنيه عن المشي في الأسواق وطلب الكسب، وتدل على صدقه.
و«أو» في هذا الموضع والذي قبله: عاطفة، تفيد التدرج من الأشد إلى ما هو أيسر منه.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾، بالكفر والشرك وتكذيب القرآن والرسول ﷺ مخاطبين المؤمنين: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما تتبعون في تصديقكم محمداً فيما جاء به.
﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رجلاً قد سحر، فاختل عقله. وهم يعلمون حقيقة كذبهم؛ لعلمهم بتمام عقله.

وفي قوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، ويشمل الوصف بالظلم كل من قال مثل قولهم.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ﴾ الاستفهام للتعجب والإنكار، أي: انظر وتأمل وتعجب يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ﴾، أي: كيف شبهوك

ووصفوك بالأوصاف الباطلة، بأنك مسحور، أو ساحر، أو شاعر، أو كاهن، أو مجنون، وغير ذلك.

أو كيف ضربوا لك الأمثال في قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوَنُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾، والأول أظهر. والأمثال: الأشباه والأوصاف.

﴿فَضَلُّوا﴾ الفاء عاطفة وتفيد السببية، أي: فضلوا عن طريق الحق والهدى، وعن الرشد والصواب، بسبب ما وصفوك به من الأوصاف الباطلة.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: فلا يجدون طريقًا إلى الحق بسبب ضلالهم، ولا يستطيعون سبيلًا للنيل منك، ولا من رسالتك ودعوتك.

﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعالى وتعظيم الله وكثر خيره، ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ﴾، أي: خيرًا من ذلك الذي اقترحوه بقولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، ثم فسر هذا الخير بقوله:

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، «جنات» بدل من «خيرًا» منصوب، وتفسير له، أي: بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر برفع اللام: «وَيَجْعَلُ» على الاستئناف، وقرأ الباقر بجزمها: «وَيَجْعَلُ»، وهو معطوف على جواب الشرط: ﴿جَعَلَ﴾.

أي: ويجعل لك قصورًا، أي: بيوتًا مشيدة مبنية من الحجارة.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: إنما يقول هؤلاء ما يقولون ويقترحون، ويضربون لك من الأمثال ما يضربون، تكذيبًا وعنادًا؛ لتكذيبهم بالساعة، أي: بالقيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وليس ذلك منهم استرشادًا أو طلبًا للحق.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا.

﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾، أي: لكل من كذب بالساعة ﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا

مستعرة متوقدة شديدة الحرارة.

وأظهر هنا في موضع الإضمار فلم يقل: وأعتدنا لهم؛ لبيان علة توعدهم بهذا الوعيد، وهو تكذيبهم بالساعة، وليشملهم هم وغيرهم ممن كذب بالساعة.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾، أي: إذا رأت هذه النار المستعرة هؤلاء المكذبين بالساعة في مقام الحشر.

﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قبل وصولهم إليها، وقبل وصولها إليهم.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾، التغيظ: شدة الغيظ. والغيظ: الغضب الشديد، أي: سمعوا لها غيظًا وغضبًا شديدًا وحنقًا عليهم.

﴿وَزَفِيرًا﴾، أي: صوتًا شديدًا من شدة الغيظ والحنق عليهم؛ ولهذا سمعوه من مكان بعيد، فكيف إذا قربوا منها وألقوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا أَلْقَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧-٨]، أي: تكاد تقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة الغيظ والغضب.

﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، قرأ ابن كثير بسكون الياء: ﴿ضَيِّقًا﴾. وقرأ الباقون بكسرها وتشديدها: ﴿ضَيِّقًا﴾.

﴿أَلْقَا مِنْهَا﴾، أي: طرحوا، ﴿مَكَانًا﴾، ظرف مكان منصوب على الظرفية، أو بنزع الخافض، أي: في مكان ضيق.

﴿مُقَرَّنِينَ﴾، حال، أي: حال كونهم مقرنين، أي: مكتفين مصفدين، قد قرنت وجمعت أيديهم بالسلاسل والأغلال إلى أعناقهم، وقرن بعضهم إلى بعض.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٦٩﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩]. والمقرن: المقرون، وصيغة التفعيل فيه للإشارة إلى شدة القرن.

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾، أي: دعوا في ذلك الموقف الشديد الخطير.

﴿ثُبُورًا﴾، أي: ويلاً وهلاكًا، أي: نادوا على أنفسهم بالثبور والويل والهلاك والحسرة والخسران والخيبة، والحزى والفضيحة؛ يدعون وينادون على أنفسهم بقولهم: واثبورنا! واهلاكنا! ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ﴿٦٩﴾﴾

فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ [الانشقاق: ١٠ - ١١]، وكما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَلْفِرْعَوْنَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ هذا توبيخ وتبكيث لهم، وعذاب معنوي لقلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي للأجساد، أي: أنكم مهما دعوتهم وناديتهم على أنفسكم بذلك، لن ينفعكم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٤﴾.

لما ذكر عذاب الظالمين المكذبين، بين ما بينه وبين ما أعد للمتقين في جنة الخلد من الثواب والنعيم المقيم، من البون الشاسع، والفرق الواسع.

قوله: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، والهمزة للاستفهام التقريري، والإشارة إلى ما أعدده الله وأرصد له لمن كذب بالساعة من السعير، وتغيظها عليهم وزفيرها، وإلقائهم في أماكن ضيقة منها مقرنين، وندائهم على أنفسهم بالويل والثبور، أي: أذلك المذكور خير.

﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾، «أم» حرف عطف، وهي المتصلة، و﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: أم جنة الخلود والمكث الدائم في النعيم المقيم؟! والمفاضلة قد ترد بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة؛ لأن النار شر محض لا خير فيها مطلقاً.

﴿الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي: التي وعدها الله عز وجل عباده المتقين، بفعل أوامره، واجتناب نواهيها.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾، أي: ثواباً على تقواهم.

﴿وَمَصِيرًا﴾، أي: ومالاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: لهم خاصة في جنة الخلد ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾، أي: الذين يشاؤون ويشتهون من ألوان النعيم وأصنافه، من المأكول والمشرب والملابس والمسكن والأزواج والمراكب والمناظر وغير ذلك، ولهم من الله المزيد على ذلك.

كما قال تعالى: ﴿جَنَّكَ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ [النحل: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق: ٣٥].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْمُرْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ [السجدة: ١٧]».

وأعلى ذلك وأجله وأعظمه: التمتع برؤية وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضوانه.

﴿خَالِدِينَ﴾، أي: ماكثين فيها ومقيمين إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.
 ﴿كَانَ﴾، أي: كان وعد المتقين بجنة الخلد، وكونها لهم جزاء ومصيراً، ومنحهم فيها ما يشاؤون من النعيم، وخلودهم فيها.
 ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعَدًّا مَّسْئُولًا﴾، أي: وعداً عليه حقاً منجزاً واجباً، لا بد أن يقع وأن يكون؛ لأنه لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، أي: لا أحد أوفى بعهده منه عز وجل.
 وهو أيضاً ﴿وَعَدًّا مَّسْئُولًا﴾ عنه، فيسأل المتقون ربهم بلسان حالهم ومقالمهم أن ينجز لهم ما وعدهم.

الفوائد والأحكام:

- ١- طعن المشركين والمكذبين في رسالته ﷺ، بحجة أنه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق لطلب الكسب؛ كسائر البشر، وليس بملك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾.
- ٢- أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم من البشر، وإنما اختصهم الله من بين البشر بالوحي إليهم؛ ليلغوا رسالاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

إِلَّا رَجَالًا تُؤْتَىٰ إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴿١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

٣- تنقص المكذبين له ﷺ بعدم كفايته وحده للإنذار، وتحمل الرسالة، واقتراحهم أنه هلا أنزل معه ملك؛ ليكون نذيرًا معه، ومصداقًا له؛ لقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُون مَعَهُ نَذِيرًا﴾.

٤- إثبات وجود الملائكة، وإيمان المشركين بذلك.

٥- اقتراحهم أن لو يلقى إليه كنز من السماء ينفق منه، أو تكون له جنة يأكل منها؛ ليستغني بها عن المشي في الأسواق لطلب الكسب، ويُستدل بها على صدقه؛ لقولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

٦- سعي هؤلاء المشركين الظالمين في التحذير من اتباعه ﷺ، برمييه بأنه رجل مسحور مغلوب على عقله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، وهذا ديدن أعداء الرسل، وأعداء الحق ودعاته في كل زمان ومكان.

٧- أمر الله تعالى له بالنظر والتأمل والتعجب، كيف ضربوا له الأمثال، ووصفوه بأقبح الأوصاف، للتنفير منه ومن دعوته، والتحذير من اتباعه، فقالوا: مسحور، وقالوا: ساحر، وقالوا: شاعر، وقالوا: كاهن، وقالوا: مجنون، وقالوا غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾.

٨- بيان ضلالهم وحيرتهم، فلم يجدوا سبيلاً للنيل منه ﷺ ومن دعوته، ولم يجدوا طريقاً يهتدون به إلى الحق؛ لأن الله كتب عليهم الضلال.

٩- إثبات عظمته عز وجل وبركته وكثرة خيره، وأنه لو شاء جعل له ﷺ خيراً مما اقترحوه، من أن يلقى إليه كنز؛ أو تكون له جنة يأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١١﴾﴾.

وقال ﷺ: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً. وقال ثلاثاً أو نحو هذا، فإذا جمعت تضرعت إليك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٤٥، وأحمد ٥٢٥٤؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال الترمذي:

وخَيْرٌ ﷺ بين أن يكون رسولاً ملكاً، وبين أن يكون عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً^(١).

١٠- حكمة الله عز وجل البالغة بحبس الدنيا عن أنبيائه ورسله، لما كانت في غاية الحقارة، وجعلهم وسيدهم محمداً ﷺ كغيرهم من البشر يمشون في الأسواق، ويسعون في طلب المعاش.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى، وأن ما شاء كان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ﴾.

١٢- أن الذي حمل هؤلاء على اقتراح ما اقترحوه، وعلى ضرب هذه الأمثال له ﷺ؛ ليس الاسترشاد أو طلب الحق، وإنما هو العناد وتكذيبهم بالساعة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾

١٣- الوعيد والتهديد لمن كذب بالساعة بالنار المستعرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

١٤- أن النار موجودة الآن معدة مرصدة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ الآية.

١٥- شدة تغيظ النار وزفيرها عند رؤية المكذبين من بعيد قبل وصولهم إليها، وقبل وصولها إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

١٦- دعاؤهم على أنفسهم بالويل والثبور عند إلقاءهم فيها في أماكن ضيقة مقرنين ومكتفين بالأغلال والسلاسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

١٧- تكبيتهم وتيئيسهم من أن ينفعهم دعاؤهم بالثبور ذلك اليوم مهما كثر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

١٨- لا مقارنة ولا مقاربة بين ما أعدده الله للمكذبين من السعير، وما فيها من أصناف العذاب الشديد، وبين ما أعدده بفضلته ورحمته من جنة الخلد للمتقين جزاء لهم

«حديث حسن».

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومالاً، وما لهم فيها مما يشاؤون من أصناف النعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِيراً ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٤﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤٥﴾ فَوَكَهَهُمْ مَكْرُمُونَ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٤٧﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٨﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٩﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٥٠﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٥٢﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكُونٌ ﴿٥٣﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٥﴾ يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٦﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٧﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٨﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٩﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرِيدُنَّ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ لَا نِعْمَةَ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ أَمْأَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٦٢﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٥﴾ أَذَلِكْ خَيْرٌ نَّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّرْقُمِ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات: ٤٠-٦٢].

١٩- عظم نعيم أهل الجنة وتنوعه كما يشاؤون ويشتهون، وعدم انقطاعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْفُرُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

٢٠- تكفله عز وجل بما وعد به المتقين من جنة الخلد والجزاء العظيم، والمال الكريم، وما لهم فيها من النعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾، أي: لا بد من حصوله لهم.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٢- الترغيب بتقوى الله تعالى لما أعد الله للمتقين من الجنة وألوان النعيم، والتحذير من التكذيب بالحق، لما أعد الله للمكذبين من السعير والعذاب الأليم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ
 أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا
 أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ
 وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
 نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ
 الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَاءً لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
 بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا
 يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
 وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَيِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا
 مَحْجُورًا ﴿٢٣﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٤﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ
 أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا
 أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ
 وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
 نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب وحفص بالياء:
 ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، وقرأ الباقر بالنون: «نَحْشُرُهُمْ».

أي: واذكر يوم يحشرهم، أي: يوم يجمع الله المشركين المكذبين في الموقف العظيم
 يوم القيامة ويناقشهم الحساب.

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، «ما» اسم موصول مبني في محل نصب عطفًا
 على الضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، أي: والذي يعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.
 ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾؛ الاستفهام للتقريع، أي: فيقول
 مخاطبًا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم من دون الله:

﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾، أي: هل أنتم دعوتموهم وأمرتموهم

بعبادتكم وسعيتم في إضلالهم؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ ﴿المائدة: ١١٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهْم مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿أَمْرُهُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام، أي: بل أهم ضلوا السبيل، أي: تنكبوا الطريق من تلقاء أنفسهم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾، أي: تنزيهاً لك وتقديساً وتعظيماً.

﴿مَا كَانَ يَدْعِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، قرأ أبو جعفر بضم النون وفتح الخاء: «نَتَّخِذَ»، وقرأ الباقون بفتح النون وكسر الخاء: «نَتَّخِذَ».

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل على قراءة أبي جعفر ومن معه، أي: ما كان لاثقاً بنا أن نتخذ، أي: أن نجعل من دونك أولياء؛ فإننا عبيدك، فقرأ إليك.

وعلى قراءة الباقيين يكون المصدر في محل رفع فاعل، أي: ما كان يليق بنا ولا يجوز لنا اتخاذ أولياء نعبدهم ونواليهم ﴿مِنْ دُونِكَ﴾، أي: غيرك، أي: لا ولي لنا ولا لجميع الخلائق سواك.

أي: أننا ما دعوناهم إلى ما هم فيه من الضلال، ولا أمرناهم بعبادتنا، وما كان لاثقاً بنا نحن أن نتخذ من دونك من أولياء، فكيف نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء من دونك؛ كما قال عيسى جواباً لقول الله تعالى له: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، قال عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

﴿وَالَّذِينَ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

لما تبرؤوا من أن يكونوا اتخذوا بأنفسهم أولياء من دونه، أو يكونوا أضلوا غيرهم

بدعوتهم إلى اتخاذ آلهة من دونه، ذكروا سبب ضلال هؤلاء المشركين، وهو ما متعوا به هم وآباؤهم من النعم.

قوله: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ﴾، أي: ولكن ضلوا من تلقاء أنفسهم بسبب انشغالهم بما متعتهم به وآباؤهم من النعم ولذات الدنيا وشهواتها. ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾، الذي أنزلته على السنة رسلك، وغفلوا وأعرضوا عنه بسبب ذلك.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾، «بورًا» جمع بائر، أي: هالك خاسر، أي: وكانوا قومًا هالكين خاسرين لا خير فيهم. قال تعالى: ﴿وَاحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، أي: دار الهلاك والخسران والخيبة. قال ابن الزبيري حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجاري الشيطان في سنن الـ غي ومن مال ميله مثبور^(١)

فكان سبب ضلالتهم أمرين:

الأول: انشغالهم بمتاع الدنيا ولذاتها وشهواتها.

والثاني: عدم وجود المقتضي للهدى، وهو أنهم لا خير فيهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُواكُمْ﴾، الفاء: استئنافية، و«قد» حرف تحقيق، والضمير الواو في «كذبوكم» يعود إلى المعبودين من دون الله، والخطاب فيه يعود إلى العابدين، أي: فقد كذبكم أيها المشركون هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾. روي عن قبل: «يقولون» بالياء على الغيبة، وقرأ الباقر بالخطاب: ﴿تَقُولُونَ﴾.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تقولونه، أو بقولكم: أنهم آلهة وشركاء لله، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، أو أنهم أمروكم بعبادتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى

(١) انظر: «جامع البيان» ١٣/٦٦٩، «سيرة ابن هشام» ٢/٤١٩، «أسد الغابة» ٣/٢٣٩.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحاف: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾، قرأ حفص بقاء الخطاب: ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: فما تستطيعون صرفًا، أي: دفعًا للعذاب عنكم بأنفسكم، ولا نصرًا لها من خارج عنكم. وقرأ الباقون بياء الغيبة: «يستطيعون»، أي: فما يستطيع هؤلاء المعبودون صرفًا للعذاب عنكم، ولا نصرًا لكم، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَتَّصِرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسَاءِمُونَ ﴿٣٦﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].

﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ﴾، بالشرك والكفر، وترك الحق بعد معرفته ظلمًا وعنادًا. ﴿نَذِقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾، أي: عذابًا عظيمًا في النار، لا يقدر قدر كبره وعظمته إلا من وصفه بذلك؛ وهو الكبير المتعال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٧﴾:

هذا رد على المشركين المكذابين في قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ [الفرقان: ٧].

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾، «إلا» أداة حصر، واللام في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ للتوكيد. أي: إلا أنهم كغيرهم من البشر يحتاجون لأكل الطعام ليتغذوا به، وإلى المشي في الأسواق للتكسب والتجارة وطلب المعاش، وليس ذلك بمناف ولا قاذح في رسالاتهم، فكيف يتعجب المشركون المكذبون من قومك من كونك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق؟ وهل كان جميع الرسل إلا بشرًا مثلك، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]،

أي: فما جعلناهم ملائكة.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾، أي: ابتلاءً واختبارًا، أي: اخترنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، وهذا عام في جميع الخلق، ابتلى الله بعضهم ببعض، فابتلى الرسل بالمرسل إليهم، ودعوتهم إلى الحق، والصبر على أذاهم وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتنح المرسل إليهم بالرسول، وهل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم، أم يكفرون بهم ويقاثلونهم؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك»^(١).

وابتلى المؤمنين بالكافرين، وامتنح الكافرين بالمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١١١]، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾ إِلَىٰ جَزَيْتُهُمْ أَيَّومٍ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِرُونَ ﴿١١٢﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١].

وابتلى السادة والأقوياء والأغنياء بالأتباع والضعفاء والفقراء؛ كما ابتلى الأتباع والضعفاء والفقراء بالسادة والأقوياء والأغنياء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَّوْنَا إِلَىٰ﴾ [الأحقاف: ١١].

وكما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿مَا تَرَكْنَا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرَكْنَا إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يَبَادُوا﴾ [الرأي: ٢٧].

كما امتحن العلماء بالجهال: هل يعلمونهم وينصحون لهم ويصبرون على ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء: هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وامتحن الأمرين بالمعروف

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار ٢٨٦٥، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

بالمأمورين، والمأمورين بالأمرين، وهكذا^(١)؛ ولهذا قال:

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾، أي: أتصبرون على ما ابتلاكم الله وامتنحن به بعضكم ببعض، فيؤدي كل منكم ما عليه من حقوق، وتطيعوا الله، ولا تعصوه، أم لا تصبرون؟ وفي هذا تسلية له ﷺ وللمؤمنين، وعدة جميلة، فلا يضيق صدره، فالصبر جميل وعاقبته حميدة؛ كما قال تعالى: ﴿لَتُجْلِبُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال ابن القيم: «قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر ها هنا وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠]، فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة محصنة له ومخلصة من الذنوب؛ كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبث، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها^(٢).

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾، أي: وكان ربك يا محمد بصيرًا، أي: ذا بصر وعلم واسع، وإطلاع تام، يعلم من هو أهل للرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويعلم من يستحق الهداية فيهديه بفضله، ممن لا يستحق ذلك، فيضله بعدله، ويعلم أعمالهم فيجازي كلًّا بعمله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [١١] يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا [١٢] وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٠.

هَبَاءَ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٤﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، أي: وقال الكافرون المكذبون الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا بلقاء الله تعالى، ولا بوعده ووعيده، ولا يرجون ثوابه، ولا يخافون عقابه، قالوا تعنتًا وعنادًا، وجرأة على الله تعالى:

﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾، «لولا» حرف تفضيض، أي: هلا أنزل علينا الملائكة بالرسالة، أي: هلا أرسل إلينا رسولاً من الملائكة؟

ويحتمل أن المعنى: هلا أنزل علينا الملائكة تشهد لك بالرسالة؟ كما في قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وكما في قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقولهم: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وهم في هذا كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، فتكون رؤيتنا له علامة على صدقك، أو فيخبرنا بأنك رسوله إلينا.

﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، والسين والتاء للمبالغة، أي: والله لقد بالغوا في التكبر في أنفسهم.

﴿وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾، أي: تجاوزوا الحد في الطغيان والظلم والعناد والمكابرة، ولهذا اجترؤوا هذه الجرأة العظيمة، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لِلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: هم سيرون الملائكة، لكنها رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤيا تسوؤهم، وأول ذلك عند الاحتضار، فتبشرهم بالنار، وغضب الجبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ

وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُفُوفًا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥٢﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتنفرك في جسده» الحديث (١).

ثم في القبر؛ كما في حديث البراء المذكور: «فيأتيه ملكان، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلعه».

وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة؛ فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين» (٢).

ثم يوم القيامة؛ حيث تسوقهم الملائكة إلى النار، ويتولى خزنتها تعذيبهم فيها، ففي كل هذه المواقف سيرون الملائكة رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤية تسوؤهم.

وهذا بخلاف حال المؤمنين؛ فإن الملائكة تبشرهم في جميع المواقف بما يسرهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلَّمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنَّ عَفْوَرٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه المتقدم: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان،

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٧٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٠، وأبو داود في السنة ٤٧٥١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥٠، ٢٠٥١.

ورب غير غضبان».

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، «حجراً» مفعول مطلق لفعل محذوف، ﴿مَّحْجُورًا﴾، نعت لحجر منصوب، وهو مؤكد للمعنى، وجملة ﴿حِجْرًا﴾ في محل نصب مقول القول، و«الحجر»: المنع، ومنه سمي «الحِجْر» عند البيت؛ لأنه يُمنع الطواف به، وسمي «العقل» حِجْرًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ۖ﴾ [الفجر: ٥]؛ لأنه يمنع صاحبه من فعل ما لا يليق أو قوله.

أي: وتقول الملائكة للمجرمين: حرام محرم عليكم البشري والفلاح ودخول الجنة، وقيل: وتقول الملائكة عودًا معاذًا.

وقيل: ذلك من كلام المشركين؛ يتعوذون من الملائكة.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ﴾، «ما» موصولة، و«من» بيانية، أي: وقصدنا وعمدنا إلى الذي عملوه من أي عمل كان، وأتينا عليه.

﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾، أي: فصيرناه ﴿هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾، «الهباء»: ما يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة، مما لا يمكن قبضه، وهو أتفه الأشياء وأحقرها.

والمعنى: فجعلناه باطلاً مضمحلًا زائلاً، لا قيمة له، لفقده الإيمان والإخلاص والمتابعة للشرع، وهذا كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

لما توعد الكافرين المجرمين بالعذاب وبإحباط أعمالهم؛ أتبع ذلك بوعد أهل الجنة المؤمنين بأنهم خير مستقرًّا وأحسن مقيلاً.

قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، أي: أهلها وساكنوها وملازموها؛ وهم المؤمنون.

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾، أي: خير مستقرًّا من أهل النار، و«المستقر»: مكان الاستقرار والمكث؛ كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].
 ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، أي: وأحسن مقيلًا من أهل النار، و«المقيل»: مكان القيلولة والراحة والمنزل والمأوى.

فمستقرهم خير من مستقر أهل النار، ومقيلهم أحسن من مقيل أهل النار؛ لما في الجنة من ألوان النعيم والعيش الكريم، ولما في النار من أصناف العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].
 وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿وَأَحْسَنُ﴾ هنا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات حشر الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾.
- ٢- أن المشركين يحشرون هم وأهنتهم التي يعبدونها من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.
- ٣- خطاب الله عز وجل للمعبودين وسؤاله إياهم؛ تقريرًا لعابديهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ يَا أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.
- ٤- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِي﴾.
- ٥- تنزيه المعبودين لله تعالى، وتقديسهم إياه، وأنه ما كان لهم اتخاذ أولياء من دون الله بأنفسهم، أو الدعوة بأن يتخذوا أولياء من دون الله، أو الرضا بذلك؛ لقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٦- بيانهم أن سبب ضلال هؤلاء المشركين: انغماسهم فيما متعوا به من نعم الدنيا وملذاتها وشهواتها، ونسيانهم الذكر، وإعراضهم عنه، وغفلتهم؛ لقولهم: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.
- ٧- أن من نسي ذكر الله تعالى وغفل عنه وأعرض؛ فمآله البوار والهلاك والخسار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

٨- تبيكت المشركين بتكذيب معبوديهم لهم بما يقولون ويزعمون أنهم شركاء مع الله، وأنهم يقربونهم إليه زلفى، وأنهم أمرهم بعبادتهم فأضلّوهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾.

٩- عدم استطاعتهم صرف العذاب عنهم بأنفسهم، ولا الانتصار بغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

١٠- تهديد الظالمين المعاندين، ووعيدهم بالعذاب الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

١١- الرد على المكذبين الطاعنين في رسالته ﷺ بكونه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ بأن هذه حال وصفة المرسلين كلهم قبله، وفي هذا دفاع عنه ﷺ، وتسليّة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

١٢- أن الله جعل الناس بعضهم لبعض فتنة وابتلاء وامتحنانًا، فامتحن المرسل إليهم بالرسول، وامتحن الرسل بالمرسل إليهم، وامتحن السادة والأقوياء والأغنياء بالأتباع والضعفاء والفقراء، وبالعكس، وامتحن المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

١٣- أن الحكمة من ابتلاء الناس وامتحنان بعضهم ببعض؛ لتمييز ويظهر من يصبر، فيطيع الله ولا يعصيه، ويؤدي ما عليه من حقوق الله تعالى وللخلق، ممن ليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْصَبِرُونَ﴾.

١٤- علم الله تعالى الواسع، واطلاعه التام؛ وعلمه بمن هو أهل للرسالة، وبمن يستحق الهداية ممن ليس كذلك، وعلمه بأعمال العباد ومجازاتهم عليها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

١٥- جرأة المكذبين بالبعث ولقاء الله تعالى على الله تعالى، وشدة عنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾.

١٦- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، وقوله:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾.

- ١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَنَرَىٰ رَبِّنَا﴾.
 ١٨- شدة استكبارهم، وكبر عتوهم وعظمتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.
 ١٩- أن الاستكبار والعناد من أعظم أسباب رد الحق وعدم قبوله، فيجب الحذر من ذلك.

- ٢٠- أن المكذبين والمجرمين سيرون الملائكة، لكنها رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤية تسوؤهم، وذلك عند الاحتضار، وفي القبر، ويوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.
 ٢١- حرمانهم من البشري والفلاح والجنة، ومن كل خير، وتأكيده ذلك؛ لقول الملائكة لهم: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

٢٢- إحباط جميع أعمالهم، وعدم انتفاعهم بأي شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ لِّجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

٢٣- أن العمل لا يقبل بدون الإيمان والإخلاص والمتابعة للشرع.

- ٢٤- شتان بين مستقر أهل الجنة ومقيلهم في جنات النعيم، وبين مستقر أهل النار ومقيلهم في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

٢٥- أخذ بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: أن الله عز وجل يجاسب الخلائق في نصف النهار الأول ضحوة، وفي آخره يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿١٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿١٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿١٨﴾
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١٩﴾ وَقَالَ
الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا
لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾ وَلَا
يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَى
وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿١٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿١٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿١٨﴾
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١٩﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ﴾: قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي وعاصم
بتخفيف الشين: ﴿تَشْقُقُ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿تَشَّقُّقُ﴾.

أي: واذكر يوم القيامة ذلك اليوم العظيم، يوم تشقق السماء بالغمام، وهو
السحاب الأبيض الرقيق، وتتفطر وتتفتح؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾
[الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى:
﴿وَفَتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٦﴾﴾ [النبا: ١٩].

﴿وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾، قرأ ابن كثير: «وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ» بنونين: الأولى مضمومة،
والثانية ساكنة، مع تخفيف الزاي، ورفع اللام، ونصب الملائكة.
وقرأ الباقون بنون واحدة مضمومة، وتشديد الزاي، وفتح اللام ورفع الملائكة:
﴿وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ﴾.

أي: ونزل الملائكة من السماء، فيحيطون بالخلائق في أرض المحشر، ثم يجيء الرب

تبارك وتعالى لفصل القضاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿فِيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٥-١٧].

﴿الْمَلَكُ﴾، أي: الملك كله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، أي: الحق الثابت للرحمن وحده، لا يشاركه فيه أحد من الخلق.

كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٦﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

وليس معنى هذا: أنه كان له شريك في الملك قبل ذلك؛ لأن الملك له عز وجل وحده من قبل ومن بعد، في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿تَبَرُّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١].

وإنما معناه أنه يظهر في ذلك اليوم تمام الظهور، ويتبين ويتضح تفرد وحده عز وجل بالملك، حين تزول ملوك الأرض، وتتهاوى ممالك الجبابرة.

كما قال ﷺ: «يطوي الله السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»^(١). وفي إضافة الملك لاسم الرحمن طمأنة للنفوس، وشرح للصدور؛ بأن رحمته عز وجل سبقت غضبه، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾، نكَّر «يومًا» للتعظيم والتهويل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وراءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿١﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٣﴾ وَتَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٤﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٥﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٦﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٤-١٠].

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٨، وأبو داود في السنة، الرد على الجهمية ٤٧٣٢، وابن ماجه في المقدمة ١٩٨، وفي الزهد ٤٢٧٥، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

والمعنى: وكان هذا اليوم العظيم ﴿يَوْمًا عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، أي: شديدًا صعبًا ثقيلًا طويلًا عليهم؛ لأنه يوم عدل، وقضاء فصل؛ كما قال تعالى: ﴿فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرٌ بِسِيرٍ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: ٩-١٠].

وهذا بخلاف حال المؤمنين؛ فإنه يسيرٌ خفيف عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفَدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قيل: يا رسول الله: ﴿يَوْمٌ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا»^(١).

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧﴾﴾، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ، فزجره عقبة بن أبي معيط، فنزل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧﴾﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنسٰنِ خَدُوْلًا ﴿٩﴾﴾، قال: ﴿الظَّالِمُ﴾: عقبة، و﴿فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٧﴾﴾: أبي بن خلف»^(٢).

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ﴾، أي: واذكر يوم القيامة العظيم، ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، والعض: الشد بالأسنان من حيث الأصل، ﴿الظَّالِمُ﴾ بالشرك والكفر وتكذيب الرسل، والمعاصي، ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، أي: على أصابع يديه؛ تأسفًا وتحسرًا وندمًا، ولات ساعة مندم.

﴿يَقُولُ﴾ متمنيًا: ﴿يَلَيْتَنِي﴾، قال رؤبة بن العجاج^(٣):

(١) أخرجه أحمد ٣٧٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٤٤٠.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ١٧١.

ليت وهل ينفع شيئاً ليْتُ ليتَ شباباً بُوعَ فاشتريتُ
وقال أبو العتاهية^(١):

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

وفي المثل: «التمني: رأس مال المفاليس»، والياء في قوله: ﴿يَلَيْتَنِي﴾ للتنبه.
﴿أَتَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾، أي: ليتني جعلت مع الرسول طريقاً إلى الجنة
بالإيمان به وتصديقه واتباعه، وهيهات ذلك.

﴿يَوَيْلَ لِي﴾، نداء على نفسه بالويل والهلاك.

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾، أي: يا ليتني لم أجعل فلاناً؛ يعني: الذي أضله وصرفه
عن الحق من شياطين الإنس أو الجن، ويسميه باسمه.

﴿حَلِيلًا﴾، أي: صديقاً وحيباً وصبياً، والخلة أعلى أنواع المحبة، فالخليل الذي
بلغت محبته غايتها، وتحللت نياط القلب، كما قال بشار بن برد^(٢):

قَدْ تَحَلَّلْتَ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلَ خَلِيلًا

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾، تعليل للتمني السابق، واللام لام
القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

وهو بهذا القسم والتأكيد يلوم نفسه بعد فوات الأوان، مما يزيده حسرة، أي: والله
لقد أضلني هذا الخليل عن القرآن وما جاءت به الرسل من الحق بعد بلوغه إليّ، بتزيينه
لي ما هو عليه من الضلال، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وسواء كان سبب نزول هذه الآية عقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف، أو غير ذلك،
فإنها عامة، فكل ظالم إذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه
حسرة وأسفاً؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [٦٦] وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا

(١) انظر: «ديوانه» ص ٣٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ٢/ ٤٧٥.

ءَاتِيهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعَنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

قال ابن القيم: «فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول؛ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة، فهذا حال الخليلين المتخالفين على خلاف طاعة الرسول»^(١).

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾، أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويزهده فيه، ويزين له الباطل، ويدعوه إليه، ويعدده الأمانى الباطلة، ويخدعه بغروره، ويتبرأ منه. وهذا من كلام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْرَظْكُمْ أَهْلِيؤُا الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُؤُا ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥-٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويجتمل أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾، من كلام الإنسان الظالم. والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣١﴾﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي: وقال الرسول محمد ﷺ المعهود في الأذهان، منادياً ربه عز وجل، وشاكياً لربه إعراض قومه كفار قريش عما جاءهم به، ومتأسفاً على حصول ذلك منهم.

﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، أي: جعلوه مهجوراً، فأعرضوا عنه وهجروه وتركوه ولم يتدبروه، بل كذبوه وعارضوه، وتواصوا بعدم

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٢.

سماعه، وباللغو واللغظ عندما يتلى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهجر القرآن يكون بهجر تلاوته، وعدم تدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومواظمه وأخباره، وهجر العمل به، وترك تحكيمة واتباعه.

قال ابن القيم: «هجر القرآن أنواع؛ أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمة والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها،

فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا دَخَلَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض المهجر أهون من بعض»^(١).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [٣٦].

هذا فيه تسلية للنبي ﷺ تجاه عداوة من عاداه من قومه، وأذيتهم له، وهجرهم للقرآن، وتكذيبهم به، ومعارضتهم له، وصددهم عنه.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكاف للتشبيه، أي: مثل ما كذبتك يا محمد المشركون من قومك وعادوك وأذوك، وهجروا القرآن الذي جنتهم به؛ كذلك جعلنا كونًا وقدرًا لكل نبي من الأنبياء قبلك عدوًّا من المجرمين يكذبونه ويؤذونه ويعارضون ما جاءهم به.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى الْبَعْضِ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [١١٧] وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٢-٢٩٣.

مُقَرَّرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿[الأنعام: ١١٢-١١٣].

والحكمة من ذلك: ليتبين الحق ويظهر، ويعلو على الباطل؛ لأن معارضة الباطل للحق تزيد الحق وضوحًا وظهورًا، وعلوًا وتألُّقًا؛ كما أن فيه ابتلاءً لأهل الحق، وتمحيصًا لهم، كما قال أحدهم:

عِداي لهم فضل عليّ ومنة
همُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتها
وقال أبو تمام^(٢):

وإذا أراد الله نشر فضيلة
لولا اشتعال النار فيما جاورت
طويت أتاح لها لسان حسود
ما كان يعرف طيب عَرَف العود

والمراد بذكر عداوة المجرمين للأنبياء من قبله ﷺ تسليته وتقوية قلبه وإلهامه الصبر، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾^(٣١)، أي: وكفى بربك يا محمد هاديًا لك ولمن شاء من عباده، يهدي من يشاء بفضله.

﴿وَنَصِيرًا﴾^(٣١) لك ولمن اتبعك من المؤمنين، فاستكف به وتوكل عليه، يكفك كل

شيء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^(٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُورُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٣٤) [الفرقان: ٣٢-٣٤].

هذا من جملة اقتراحاتهم الباطلة، واعتراضاتهم وعنادهم؛ كما في قولهم قبل هذا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ نُورًا أَوْ نَزَّلْنَا رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، أي: هلا نزل عليه، أي: على محمد

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. انظر: «ديوانه» ص ٢٤٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ١/٣٩٧.

﴿الْقُرْآنُ جُمْلَةٌ وَحِدَةٌ﴾، أي: من غير تفريق؛ كما نزلت الكتب قبله: التوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم عز وجل بقوله:

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ اللام للتعليل، أي: كذلك نزلناه عليك مفرقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والأحداث، وما يُحتاج إليه من الأحكام؛ لأجل تثبيت قلبك وتقويته، وتيسير حفظه وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، أي: قرأناه عليك مرتلاً ترتيلاً، في تثبت وترسل، بعضه يعقب بعضاً، وبيناه تبييناً تاماً، وأمرنا بقراءته مرتلاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وأي محذور في نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله مفرقاً منجماً أكمل وأحسن وأبلغ؛ لما فيه من معالجة الوقائع حال حدوثها، وهذا أشد تثبيتاً للقلوب، وطمأنة للنفوس.

قال ابن كثير^(١): «ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً، سفراً وحضرًا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه أعظم نبي أرسله الله».

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: ولا يأتيك هؤلاء المكذبون للقرآن، المعاندون لك ﴿بِمَثَلٍ﴾، أي: بوصف عجيب من باطلهم مما يقترحونه، أو يعارضون به الحق ويقدحون به في رسالتك.

﴿إِلَّا جِئْتِكَ بِالْحَقِّ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا أتيناك بالحق في القرآن الذي يدمغ ذلك الباطل ويزهقه، ويزيله ويمحقه؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ

(١) في «تفسيره» ١١٨/٦.

الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: وأحسن وأتم بيانًا وإيضاحًا لألفاظه ومعانيه ودلالاته.
قال ابن القيم: «فالحق: هو المعنى المدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق؛ فهي تفسيره وبيانه»^(١).

ومثال ذلك إبطال قولهم: ﴿مَالٍ هَذَا الرُّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وإبطال قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُنَبِّئَكَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

لما ذكر إبطال ما يعترض به الكفار من الاقتراحات والقوادح؛ توعدهم وهددهم بحشرهم إلى جهنم.

قوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: يجمعون ويساقون على وجوههم إلى جهنم؛ إهانة لهم وإذلالاً، وتشديدًا في عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه، قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»^(٢).

﴿أُولَٰئِكَ﴾، أي: أولئك الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أي: هم شر من كل أحد، ومكانهم جهنم شر مكان.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٦٠، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٦.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: وأضل طريقًا في الدنيا والآخرة؛ إذ لا أضل طريقًا في الدنيا ممن كفر وخالف طريق الرسل عليهم السلام، ولا أضل طريقًا في الآخرة ممن حشر على وجهه إلى جهنم، عيادًا بالله، فهم شر الناس منزلة، وأضلهم طريقًا في الدنيا والآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- عظم يوم القيامة، وشدة أهواله، ووجوب الاستعداد له، ففيه تشقق السماء بالغمام، ونزول الملائكة، ومجيء الرب تعالى لفصل القضاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

٢- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء. والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة.

٣- ظهور تفرد عزه وجل بالملك يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، وفي هذا تهديد ووعد للظالمين والجبابرة المتسلطين على العباد من الملوك والسلاطين.

٤- إثبات اسم الله «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ لقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

٥- أن رحمة الله سبقت غضبه؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ بإضافة «الملك» لاسمه «الرحمن»، وفي هذا طمأنة للنفوس، وشرح للصدور في ذلك الموقف العصيب، وبشارة للمؤمنين.

٦- شدة عسر ذلك اليوم على الكافرين، وثقله وطوله وصعوبته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾، وفي هذا تحذير من الكفر، ومفهوم الآية: أنه يسير على المؤمنين، ويدل على هذا قوله ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله...»^(١).

(١) سبق تحريجه.

٧- تأسف الظالمين وندمهم على تفريطهم في جنب الله، ومخالفتهم سبيل الرسول ﷺ وطريق أهل الجنة حين لا ينفع الندم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧)، وفي هذا تحذير من الظلم.

٨- أن كل طريق إلى الجنة مسدود؛ إلا طريق الرسول ﷺ.

٩- نداء الظالم على نفسه بالويل، وتمنيه أنه لم يخالل أحدًا من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، وإقراره بالحق في ذلك اليوم حين لا ينفعه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾.

١٠- أن المرء على دين خليله، وأن الخليل والقرين الضال سبب لضلال خليله وقرينه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾، وفي الحديث: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(١)، وقال ﷺ: «مثل المجلس الصالح والمجلس السوء، كحامل المسك ونافخ الكبر» الحديث^(٢).

١١- أن الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، وكل خلة ليست في ذات الله فهي مضمحلة زائلة، أو وبال على صاحبها.

١٢- يجب الحذر كل الحذر من قرين السوء، وجليس السوء؛ لأنه شر ووبال على صاحبه، وسبب لهلاكه وضلاله. زالوحدة خير من جليس السوء. قال الشافعي^(٣):

إذا لم أجد خلاً تقيًا فوحدني ألدُّ وأشهى من غويٍّ أعاشرُهُ
وأجلسُ وحدي للعبادة آمنًا أقرُّ لعيني من جليس أحاذرُهُ

١٣- إثبات اسم القرآن «الذكر»؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾.

١٤- خذلان الشيطان للإنسان وعداوته له، يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويزين

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٣٣، والترمذي في الزهد ٢٣٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥٣٤، ومسلم في الصلة والأداب ٢٦٢٨، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٧.

له الباطل، ويدعوه إليه، ومن ثم يتبرأ منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا﴾.

١٥- شكايته ﷺ إلى ربه هجران قومه للقرآن، وتكذيبهم به، وعدم إيمانهم به، وإعراضهم عنهم، وعدم تدبرهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

١٦- أن شكوى الحال في كل شيء ينبغي أن تكون للرب عز وجل، الذي يسمع النجوى، ويرفع البلوى.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَرَبِّ﴾.

١٨- إعراض مشركي مكة عن القرآن وهجرانهم إياه.

١٩- تحريم هجر القرآن، والإعراض عنه، وعدم تدبره والإيمان به.

٢٠- أن الله عز وجل جعل قدرًا لكل نبي من الأنبياء أعداء من المجرمين؛ كما جعل مشركي قريش أعداءً لنا ﷺ، وفي ذلك إظهار للحق، وابتلاء وتمحيص لأهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٢١- تسليته ﷺ تجاه تكذيب المشركين لرسالته، وعداوتهم وأذيتهم له، وعناية الله

تعالى به.

٢٢- إثبات الجعل والتقدير الكوني، وأن الله قدر جميع أعمال الخلق خيرها وشرها.

٢٣- ما أعظم كفاية الله تعالى في هدايته، يهدي من يشاء بفضله؛ كما يضل من يشاء بعدله، وما أعظم كفايته في نصرة رسله وأوليائه! وفي هذا تسلية له ﷺ تجاه كفر قومه وضلالهم، وصددهم عما جاء به، ووعد له بالنصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بَرِيكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

٢٤- اقتراح الكفار- عنادًا منهم- هلا نزل عليه القرآن جملة واحدة؛ كما أنزلت

الكتب قبله، ورده عز وجل عليهم مبینًا الحكمة في ذلك؛ وهي تثبيت قلبه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

٢٥- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُنشِئَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.
 ٢٦- امتنانه عز وجل بترتيله القرآن ترتيلاً، بترسل وتمهل ومكث، وبيانه بياناً تاماً، وأمره بترتيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤].

٢٧- عناية الله عز وجل بنبيه ﷺ، وبالوحي الذي أنزله إليه، وإبطال ما يورده المكذبون له عناداً منهم من اقتراح أو قدح، بإظهار الحق وبيانه أتم بيان، ودمغ الباطل وإزهاقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.
 وفي هذا رد على الجهمية وغيرهم ممن يقولون: إن نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معانٍ غير ما يفهم منها؛ لأنه على قولهم هذا لا يكون القرآن أحسن تفسيراً.
 ٢٨- وعيد الكفار وتهديدهم بحشرهم على وجوههم إلى جهنم؛ إهانة وإذلاً لهم، ونكاية في تعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.
 ٢٩- إثبات حشر الخلائق وجمعهم يوم القيامة، وإثبات جهنم، وأنها مرصدة للكافرين.

٣٠- ذمهم في مآلهم ومسلكتهم، فمآلهم جهنم شر مآل، ومسلكتهم أضل طريق: طريق الهلاك والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ شَرُّ مَكَّانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمُومًا لِلنَّاسِ آيَةً ٣٧﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٨﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ٣٩﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَّ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ٤٠﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ فَأَلَمَ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلِّ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْا مِنْ يَسْخِدُونَكَ إِلَّا هُرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رُسُلًا ٤٢﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ٤٣﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ٤٤﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمُومًا لِلنَّاسِ آيَةً ٣٧﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٨﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ٣٩﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَّ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ٤٠﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ فَأَلَمَ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلِّ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ٤١﴾.

لما ذكر ما لقيه ﷺ من المشركين من العناد والتكذيب والأذى، وتوعدهم بالقيامة وأهوالها وبجهنم، ذكر ما أحله بالأمم الماضية المكذبة للرسول من العقوبات الدنيوية، مع ما أعدده للظالمين من العذاب الأليم في الآخرة؛ تهديدًا للمشركين، وتحذيرًا لهم من مخالفته ﷺ، وتسليية له.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة، أعظم كتب الله بعد القرآن الكريم.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾، أي: نبيًا ورسولًا مؤازرًا ومؤيدًا وناصرًا ومعينًا، وذلك بدعوة ووجهة من موسى؛ بقوله: ﴿وَلَجَّعَل لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي ٣٥﴾ أَشَدُّ بِهِ ٣٦﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ٣٧﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

ولهذا قيل: إنه لا يوجد أحد من الإخوة أعظم فضلاً وأشد منة من موسى على أخيه هارون، حيث دعا الله أن يجعل أخاه هارون رسولاً - والرسالة أعلى المقامات - فاستجاب الله له.

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، وهم فرعون وقومه. ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾، أي: أهلكناهم إهلاكاً شديداً بالغرق.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾، أي: وقوم نوح عليه السلام، أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ﴿لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾، أي: حين كذبوا الرسل، أي: كذبوا نوحاً عليه السلام، ومن كذب رسولاً فهو كمن كذب جميع الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة؛ هي توحيد الله تعالى، ولا فرق في هذا بين رسول ورسول.

وبدأ بذكر موسى عليه السلام مع أنه متأخر بالنسبة إلى قوم نوح؛ لأن موسى أقرب عهداً، وفرعون أشد عتواً. والله أعلم.

﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾، أي: أغرقناهم جميعاً بالطوفان، إلا من آمن مع نوح عليه السلام، وهم قليل، أنجاهم الله معه في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾، أي: عظة وعبرة، يتعظ ويعتبر بها من وفقه الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتَكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أَدْنُ وَعِيبَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وُدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٣ - ١٥].

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: وأعدنا وهيأنا وجهزنا في الآخرة ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾، بالشرك والكفر ومخالفة الرسل من الأمم الماضية، ومن هذه الأمة.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلماً موجعاً حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب، وهو عذاب النار.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: وأعدنا لهم؛ لتسجيل وصف الظلم عليهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين، وليبان علة هذا الوعيد وسببه، وهو الظلم، مع ما في ذلك من تنبيه للمخاطب، كما في الالتفات.

﴿وَعَادًا﴾، أي: وأهلكنا عادًا لما كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام.
 ﴿وَتَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّيْسِ﴾، أي: وأهلكنا ثمود وأصحاب الرس لما كذبوا الرسل.
 و«ثمود» هم قوم صالح عليه السلام، و«أصحاب الرس» نسبة إلى الرس؛ وهي البئر.
 ﴿وَقُرُونًا﴾، أي: وأهلكنا قرونًا، أي: أممًا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾، أي: بين تلك الأمم
 المذكورة، ﴿كَثِيرًا﴾، أي: قرونًا وأممًا كثيرة أهلكناهم لما كذبوا الرسل.
 ﴿وَكُلًّا﴾، أي: وكلًا من هؤلاء الأقوام والقرون والأمم المكذبة.
 ﴿صَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ﴾، أي: بيننا ونوعنا لهم الحجج والدلائل، وقربنا لهم المعاني،
 وأوضحنا لهم الحق، وأزحنا عنهم الأعذار، وأقمنا عليهم الحجة، وحذرناهم مما حل
 بالمكذبين قبلهم.

﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿تَبَرَّزْنَا تَبَرُّرًا﴾، أي: أهلكناهم إهلاكًا تامًا عظيمًا؛ كما قال
 تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].
 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾، أي: ولقد أتى كفار مكة على القرية؛ أي: قرية قوم لوط،
 أي: مروا عليها، وهي قرية «سدوم».

﴿الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا﴾، أي: مطر عذاب يسوء الممطرين؛ أمطرت بحجارة
 من السماء من سجيل فأهلكتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا
 سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا
 هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر:
 ٧٤-٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: ١٧٣،
 النمل: ٥٨].

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾، الاستفهام للتوبيخ والتقرير، أي: أفلم يكونوا يرون
 هذه القرية في طريقهم في سفرهم إلى الشام، فيعتبرون بها حل بأهلها من العذاب
 والنكال، بسبب تكذيبهم رسولهم، ومخالفة أمر الله؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لَتَمُرُونَ

عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿٧٣﴾ وَبِالْجِبَالِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٤﴾ [الصفات: ١٣٧-١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر: ٧٩].

ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل هم يرونها، ولكن لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ولا يؤملون بالنشور، ولا يرجون لقاء الله، ولا يخشون عذابه، بل ينكرون ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٥١﴾﴾ إن كاذبًا لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿٥٣﴾﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

لما ذكر إعراضهم عن الاعتبار والاتعاظ بالأمم والقرى المكذبة بسبب تكذيبهم بالبعث، أتبع ذلك بذكر استهزائهم وسخريتهم به ﷺ.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: وإذا رآك يا محمد هؤلاء المكذبون المشركون من قومك ما يتخذونك ويجعلونك.

﴿إِلَّا هُزُؤًا﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا محلاً للاستهزاء والسخرية والتندر، قائلين على سبيل التنقص والاحتقار والازدراء:

﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ الاستهزاء بالتحقير، وهو متضمن للنفي، أي: إن هذا لا يستحق، ولا يناسب أن يبعثه الله رسولاً؛ وأشاروا إليه بإشارة القريب: «هذا» أيضاً تحقيراً له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أي: الذي يعيب آلهتكم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا ديدن المكذبين للرسول؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَمَا مَلِئَتْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا نُورًا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢].

وصدق الله العظيم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾، أي: إن كاد محمد، أي: قارب، ﴿لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، تفيد التوكيد، أي: إنه ليصرفنا عن عبادة آلهتنا، أي: أصنامنا.

﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، «لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، أي: لولا صبرنا عليها، وتجلدنا وتمسكنا بها لأضلنا عنها، وهم بهذا يفتخرون بتمسكهم بما هم عليه من الباطل؛ كما في قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقُ الْأَمَلُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَمَلَةِ الْأَخْرَى إِنَّ هَذَا إِلَّا خُتُلُوقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٥-٧].

والصبر محمود في المواضع كلها إلا في مثل هذا الموضع الذي فيه الصبر على ما يكون سبباً للهلاك والعذاب، وهو الصبر على معصية الله، لا عن معصية الله.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾، تهديد ووعد لهم، أي: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ علمًا حقيقيًا ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ ويشاهدونه بعين اليقين.

﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: من أضل طريقًا وأخطأ منهجًا؟ أهم باختيارهم طريق الهلاك والعذاب، أم الرسول ﷺ الذي دعاهم إلى الإيثار والتوحيد وإلى طريق النجاة؟ لا شك أنهم سيعلمون ويتيقنون بعد أن يروا العذاب أنهم هم الأضل سبيلًا.

﴿أَرَأَيْتَ﴾، أي: أخبرني، والخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

﴿مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾، أي: من جعل معبوده ﴿هَوَاهُ﴾، أي: ما تمناه نفسه فكل ما هوته نفسه الأمانة بالسوء عبده واستحلها، وهذا تعجيب من حاله السيئة، وأنه لا أضل منه، ولا حيلة فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [الفصص: ٥٠]، ولهذا قال:

﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لست عليه وكيلًا، مسيطرًا مسلطًا تلزمه الهداية وتحفظه من اتباع هواه؛ لأن هداية القلوب بيد

علام الغيوب.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ رُزِنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِثْرَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ اللَّيْلُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي هي للإضراب، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتحسب، أي: أتظن أن أكثر الخلق يسمعون سماع تفهم وانتفاع، أو يعقلون عقل تفكر وتدبر، أي: لا تظن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هم إلا كالأنعام السارحة السائمة، تأكل وتشرب، ولا عقل لها ولا تكليف.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل هم أضل من الأنعام طريقاً وأخطأ مسلكاً؛ لأن الأنعام تهتدي لما خلقت له، فتأكل ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتعطف على أولادها، وتغدو أول النهار إلى مراعيها، وتروح آخر النهار إلى مراحيها، إلى غير ذلك؛ كما قال ﷺ عن الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(١).

وهم لم يهتدوا لما خلقوا له، خلقوا لعبادة الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فعبدوا غير الله وأشركوا به، مع ما كرمهم الله به من العقول التي ميزهم الله بها عن الأنعام، ومع قيام الحججة عليهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ ولهذا صاروا شر الدواب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥].

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه، ونبوة هارون وجعله وزيراً لموسى عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ۝٣٥﴾.
- ٢- أن هارون أخ شقيق لموسى عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ ۝٣٦﴾.
- ٣- إرسالها إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وتكذيبهم بآيات الله، وإهلاكهم إهلاكاً شديداً بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبْنَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٧﴾.
- ٤- إثبات رسالة نوح عليه السلام، وتكذيب قومه له، وإهلاكهم بالطوفان، وجعلهم عظة وعبرة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۝٣٨﴾.
- ٥- أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ۝٣٩﴾، وهم إنما كذبوا نوحاً، وهو أول رسول.
- ٦- ينبغي الاعتبار والاتعاظ بما حل من العقوبات بالماكذبين، والحذر من مسالكهم، والسعي من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۝٤٠﴾.
- ٧- الوعيد والتهديد للظالمين بالشرك والكفر ومخالفة الرسل من جميع الأمم بالعذاب الأليم في النار، والجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٤١﴾.
- ٨- أن النار موجودة مرصدة مهياًة لأهلها الآن.
- ٩- إهلاك عاد وثمود وأصحاب الرس وأمم كثيرة بين ذلك لما خالفوا أمر الله، وكذبوا رسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۝٤٢﴾.
- ١٠- إقامة الحججة وبيان الحق، وإيضاح الحججة لأولئك الأقوام، وإهلاكهم بعد الإعذار منهم، إهلاكاً شديداً؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا

تَبَرَّنَا تَتَبِيرًا ﴿٣١﴾.

١١- الإنكار على المشركين وتقريعهم؛ لعدم اعتبارهم بما حل من العقوبة الشديدة بقرية قوم لوط من إمطارها مطر السوء بالحجارة، وقد أتوا عليها ورأوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مِنْ السَّيِّئِ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾.

١٢- عظم فاحشة اللواط، وأنها قد بلغت الغاية في الفحش؛ ولهذا عاقب الله تعالى قوم لوط بأشد العقوبات، فجعل عالي قريتهم سافلها، وأمطرهم مطر السوء؛ حجارة من سجيل.

١٣- إنكار المشركين للبعث، وأن الذي حملهم على عدم الاعتبار والاتعاظ هو كونهم لا يؤمنون بالبعث والنشور، ولقاء الله، والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

١٤- إثبات أن البعث والحساب و الجزاء حق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾.

١٥- سخريتهم واستهزائهم بالرسول ﷺ عند رؤيتهم إياه، وازدراؤهم واحتقارهم وتنقصهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

١٦- افتخارهم في تصلبهم وشدة تمسكهم بما هم عليه من الباطل والشرك بالله؛ لقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

١٧- لا حيلة فيمن طمس الله بصيرته وأضله الله على علم، فرأى الحق باطلاً، والباطل حقاً، والهدى ضلالة، والضلالة هدى.

١٨- فرط مجاهدته ﷺ في دعوته لهم، وبذل قصارى وسعه في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم؛ لقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾.

١٩- أن الصبر- وإن كان محموداً في كل المواضع- فإنه لا يحمى في مثل هذه الحال أبداً؛ لأنه صبر على ما يؤدي إلى الهلاك والخسران المبين.

٢٠- الوعيد والتهديد لهم بالعذاب، وأنهم سيعلمون عند رؤيتهم له أنهم هم الأضل

سبيلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.
 ٢١- التعجب من حال من جعل إلهه ما تهواه نفسه، فكلما هوى شيئاً عبده؛ لقوله
 تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾.

٢٢- أنه ﷺ ليس بوكيل على الخلق يلزمهم الاهتداء؛ لأن الهداية بيد الله عز وجل؛
 لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾.

٢٣- أن أكثر الخلق لا يسمعون ولا يعقلون، ما هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً
 منها؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
 كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

٢٤- أن الأنعام أهدى من كثير من الخلق؛ لأنها تهتدي لما خلقت له؛ كما قال تعالى:
 ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

بخلاف كثير من الخلق؛ لأن الخلق كلهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فضل كثير منهم
 عما خلقوا له وعبدوا غير الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
 وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج:
 ١٨]، أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب فلم يسجد لله، وهذا مصداق قوله عز
 وجل: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٥٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَا وَالتَّوْفَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٦٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تَذِيرًا ﴿٦١﴾ فَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدْهُمْ بِهِ فِي جِهَادِكُمْ كِبِيرًا ﴿٦٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٦٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٦٤﴾ *.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٥٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَا وَالتَّوْفَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٥٧﴾ *.

لما ذكر عز وجل عتو المشركين وعنادهم، وعدم اتعاظهم بما حل بالمكذابين قبلهم، واستهزاءهم به ﷺ، وعبادتهم أهواءهم، وكونهم أضل سبيلاً من الأنعام؛ أتبع ذلك بالأدلة الدالة على وجوده وكمال قدرته، وتمام نعمته.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، الاستفهام للتقرير والتعجب، أي: ألم تشاهد ببصرك وتتأمل ببصيرتك؟ والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، أي: كيف بسط الظل وجعله طويلاً ممتداً من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، أي: من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس؟ فإنه في هذا الوقت يكون الظل مديداً أطول ما يكون.

وسمي ظلًّا لأنه ذو نور، ولكن بدون شعاع شمس فكان ظلًّا. و«الظل»: ما قبل الزوال، و«الفيء»: ما بعده، أي: الظل: ما نسخته الشمس، والفيء: ما نسخ الشمس.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾، أي: ثابتاً مستقرًّا دائماً على حالة واحدة غير ممتد، فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فلا تحصل المنافع المترتبة على مده وبسطه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧٢].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾.

وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم، أي: ثم جعلنا الشمس دليلًا على الظل؛ لأنها هي التي تظهره وتبينه؛ لأنه يتبعها في حركتها تبعية المدلول لدليله، فلولا وجود الشمس لما عرف الظل، ولما عرف ما فيه من المصالح والفوائد، كما أنه لولا الظل ما عرف ما في الشمس من المصالح والفوائد، والضد يعرف بضده، وبضدها تتبين الأشياء.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أي: ثم قبضنا الظل، أي: ثم كلما ارتفعت الشمس تقلص الظل وانقبض يسيرًا، شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئًا فشيئًا، حتى يصير كهيئته عند طلوعها. قال ابن القيم: «ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال»^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِيَأْسًا﴾، أي: ساترًا لكم بظلامه، كاللباس، بغشيانه الوجود؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، أي: قطعًا للحركة والتعب، وراحة لأبدانكم وأرواحكم. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: وقتًا للانتشار والسعي للكسب، وطلب المعاش والرزق، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِيَتَسَكَّنُوا فِيهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا﴾^(٢) ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَأْسًا﴾ [النبا: ٩-١١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٣) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيَّ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٧.

كَثِيرًا ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٤٩﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠].

لما ذكر دلائل كمال قدرته ونعمته في مد الظل، وجعل الليل لباسًا، والنوم سباتًا، والنهار نشورًا؛ أتبع ذلك بذكر دلائل تمام قدرته ونعمته أيضًا في إرسال وإنزال المطر؛ لإحياء الأرض، وسقي الناس والأنعام، وتصريفه بينهم؛ ليذكروا.

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، قرأ ابن كثير بالإفراد: «الرِّيح»، وقرأ الباقون بالجمع: ﴿الرِّيحِ﴾.

وقرأ حفص: ﴿بُشْرًا﴾ بياء موحدة وسكون الشين، أي: أنها تبشر برحمة الله تعالى، أي: بالمطر، وقرأ الباقون بالنون على اختلاف بينهم، فقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين: «نُشْرًا»، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح النون وسكون الشين: «نُشْرًا». وقرأ الباقون بضم النون والشين: «نُشْرًا».

والمعنى: أنها منتشرة ومتفرقة، وتثير السحاب وتشره.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: قبلها وأمامها، فتثير السحاب وتشره وتحمله وتسوقه وتلقحه، وتبشر بالرحمة؛ وهي المطر.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيُرِي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِمُخْزِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾، إلى التكلم. أي: وأنزلنا من السحاب الذي في العلو، بين

السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿طَهُورًا﴾ «طهور» - بفتح الطاء - : اسم لما يتطهر به، أي: لما تحصل به الطهارة؛ كقوله تعالى: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. وأما «طهور» - بضم الطاء - : فهو التطهر.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ الباء للسببية، أي: لنحيي بسبب الماء بلدة ميتة؛ فتنبت أرضها وتخصر وتكتسي وتزدهي بأصناف النباتات والأشجار مما يأكل الناس والأنعام.

كما قال تعالى: ﴿سُقِّنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَمُسَّقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَايَةَ لَهُمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿وَنَسْقِيهِ﴾، قرأ أبو عمرو وحفص في رواية عنها بفتح النون: «وَنَسْقِيَهُ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿وَنَسْقِيَهُ﴾، والواو: عاطفة، أي: ولنسقيه ﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾، أي: من الذي خلقنا ﴿أَنْعَمًا﴾، أي: أنعامًا كثيرة العدد والأنواع والأجناس، تشمل بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوان والطيور وغير ذلك.

﴿وَأَناسِيَ كَثِيرًا﴾، «أناسي»: جمع «إنسان».

أي: ونسقيه أناسًا كثيرين، يشربون منه، ويسقون زروعهم وثمارهم، من الغدران التي تبقى على وجه الأرض، ومما يخزن فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقدم إحياء الأرض، وسقي الأنعام على سقي الأناس والله أعلم؛ لأن حياتهم بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم، ولأنهم إذا ظفروا بسقيا أرضهم

وأنعامهم لم يعدموا سقياهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بسكون الذال وتخفيف الكاف مضمومة: ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾، وقرأ الباقون بتشديد الذال والكاف: ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾، وأصلها: «ليتذكروا»، وأدغمت التاء في الذال.

أي: ولقد صرفنا المطر بينهم كما نشاء بحكمة بالغة، فأنزلناه على أرض دون أخرى، وأنزلناه عامًا على أرض، وعامًا على غيرها، وغير ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «ما عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾»^(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: «ليس عام بأكثر من عام، ولكن الله يصرفه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾»^(٢).

وقيل: صرفنا القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]، والأظهر والأقرب من حيث السياق القول الأول.

﴿لِيَذَكَّرُوا﴾، أي: ليتذكروا بذلك عظمة الله تعالى ونعمته، وتمام قدرته، وأنه عز وجل هو المتفرد وحده بإنزال المطر، لا الأنواء، قال ﷺ لأصحابه على أثر سماء كانت من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(٣).

وليتذكروا أيضًا: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على بعث الخلائق وإحياء الموتى، وليتذكر من نزل عليه المطر نعمة الله تعالى عليه فيشكرها، ويتذكر من منع القطر أنه بذنب أصابه، فيتوب ويستغفر الله.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/٤٦٨-٤٦٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/٤٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٦، ومسلم في الإيمان، بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء ٧١، وأبو داود في الطب ٣٩٠٦؛ من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾، أي: امتنع أكثر الناس وأصروا، ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كفورًا بالله، وكفورانًا بنعمته، بنسبة المطر إلى الأنواء والأجواء ونحو ذلك، أو بالأشر والبطر وعدم الشكر، أو بالقنوط من رحمة الله إذا امتنع المطر. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥٧﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾، الواو: حرف عطف، و«لو» شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: لو أردنا كونًا.

﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لأرسلنا في كل قرية من القرى ﴿نَّذِيرًا﴾، أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم عذاب الله، ويدعوهم إلى الله تعالى، أي: ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس كلهم هذا القرآن؛ كما قال ﷺ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»^(١).

وقال: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(١).

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾؛ الفاء: واقعة في جواب شرط مقدر. ﴿وَجَهْدُهُمْ بِهِ﴾، أي: بالقرآن، أي: ابذل جهدك ووسعك في مجاهدتهم بالقرآن، بتبليغهم لهم والحجة والبيان.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، «جهادًا» مفعول مطلق منصوب، أي: جهادًا عظيمًا لا يخالطه فتور؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿* وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ

(١) سبق تحريجه.

أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا
فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ [الفرقان: ٥٣-٥٤].

قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾، أي: أرسلهما في مجاريهما متلاصقين بحيث لا يتمازجان، ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾، أي: هذا حلو شديد العذوبة والحلاوة، وهي مياه الأنهار والعيون والآبار، ونحوها.

﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾، أي: شديد الملوحة والمرارة، وهي البحار والمحيطات الساكنة التي لا تجري.

قال ابن كثير^(١): «ولكن تتموج وتضطرب، وتغتمل في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك».

وقال أيضًا: «فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء؛ لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوي الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحًا كان هوؤها صحيحًا، وميتها طيبة».

وفي كل من هذين البحرين: العذب والمالح، من المنافع والفوائد والمصالح الكثيرة للعباد ما لا يعد ولا يحصى؛ ولذا امتن الله عز وجل بهما على عباده.

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا ﴾، أي: بين البحرين: العذب والمالح.

﴿ بَرْزَخًا ﴾، أي: حاجزًا، وهو اليبس من الأرض؛ يمنع وصول أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به وإفساد خاصيته؛ كما قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠]، أي: لا يبغى أحدهما على الآخر، ولا يطغى عليه، فيزيل خاصيته المقصودة منه. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل: ٦١].

﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾، أي: مانعًا وحاجزًا شديدًا يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر.

(١) في «تفسيره» ١٢٦/٦.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾، أي: من مني الرجل والمرأة ﴿بَشَرًا﴾، أي: إنساناً سوياً؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩].

﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا﴾، أي: قرابة من جهة النسب، وهم: آباء، وأبناء، وإخوة، أي: أبوة، وبنوة، وأخوة، وبنو أخوة.

﴿وَصَهْرًا﴾، وهم قرابة المصاهرة، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها.

فالمرء في ابتداء أمره نسيب، ثم يتزوج، فيصير صهراً، ويصير له أصهار. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وكان ربك عظيم القدرة على كل شيء، حيث خلق من هذا الماء بشراً سوياً، كامل القوى الجسدية والعقلية والفكرية.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقدير كمال قدرة الله تعالى ونعمته في مد الظل، والترغيب في النظر والتأمل، وشكر الله تعالى على ذلك؛ لما يترتب عليه من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، ومعرفة أوقات الصلوات وغير ذلك، ومن تعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ الآية.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ والمؤمنين وتشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٣- أن الله عز وجل لو شاء لجعل الظل ساكناً غير ممتد، فلا تحصل المصالح المترتبة على مده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٥- أن الشمس دليل على الظل، فلولا وجود الشمس ما عرف الظل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٦﴾.

٦- الاستدلال بالشيء على ضده، ومعرفة الشيء بضده، وأن قدر النعمة لا يعرف إلا بفقدها.

٧- الامتنان بقبضه عز وجل الظل وتقليصه قليلاً قليلاً بارتفاع الشمس، وما في ذلك من حصول المنافع وانتفاء المضار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

٨- تمام قدرته تعالى ومنته في جعل الليل لباساً ساتراً للخليفة، والنوم راحة للأبدان، وجعل النهار وقتاً للانتشار والسعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٧٧﴾.

٩- قدرته تعالى التامة ونعمته العظيمة في إرسال الرياح مبشرات بالمطر، وإنزاله من السماء ماءً طهوراً لحياة الأرض والبلاد، وسقي الأنعام والعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿١٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿١٩﴾.

١٠- أن من منافع الرياح سَوَقِ السحاب وتلقيحه والبشارة بالمطر.

١١- أن المطر رحمة من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

١٢- حكمة الله تعالى في كون المطر ينزل من السماء؛ ليعم المرتفعات وسفوح الجبال والهضاب والأودية والسهول، وفي كونه طهوراً؛ ليظهر كل ما ينزل عليه.

١٣- أن الأصل في الماء الطهارة، فكل ما نزل من السماء أو نبع من الأرض فهو طهور أنزله الله من السماء.

١٤- إثبات الأسباب، وإثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾، وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾.

١٥- تصريفه عز وجل المطر بين العباد والبلاد بحكمته ومشئته وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾.

١٦- أن الحكمة في تصريف المطر: لأجل أن يتذكر العباد عظمة الله تعالى، وتمام قدرته، وتفرد وحده بإنزال المطر، فلا ينسبوه إلى الأنواء، ولا إلى الأجواء، وليتذكروا أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، وليتذكر من منع القطر أن

- ذلك بذنب أصابه، فيتوب إلى الله ويستغفره؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾.
- ١٧- إصرار أكثر الناس على كفر نعمة الله تعالى وعدم شكرها، ونسبة المطر إلى غيره؛ من الأنواء والأجواء، وغير ذلك، أو القنوط من رحمة الله عند امتناعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.
- ١٨- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، أي أبوا بمحض اختيارهم، وفي هذا رد على الجبرية.
- ١٩- أن الله عز وجل لو شاء لأرسل في كل قرية نذيرًا لهم خاصة؛ كما هي حال النذر السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ [الشعراء: ٢٠٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ [سبأ: ٣٤].
- ولكنه عز وجل شاء أن يخص محمدًا ﷺ بالرسالة العامة إلى جميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ ﴿٥١﴾.
- أي: ولكن لم نشأ ذلك، بل شئنا إرسالك إلى جميع الناس.
- ٢٠- نبيه عز وجل له ﷺ عن طاعة الكافرين، وأمره بجهادهم بالقرآن بتبليغه لهم، وبالحجة والبرهان، وهو نبي وأمر لأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكٰفِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾.
- ٢١- قدرته عز وجل التامة ونعمته في إرسال البحرين: العذب الفرات، والملح الأجاج، وما فيهما من المنافع والمصالح للعباد، وحجز أحدهما جزأ تامة عن الوصول إلى الآخر والاختلاط به وإذهاب خاصيته؛ لقوله تعالى: ﴿* وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿٥٣﴾.
- ٢٢- قدرته تعالى التامة ومنته في خلقه من ماء الرجل والمرأة بشرًا سوياً، وجعله ذا نسب وصهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.
- ٢٣- إثبات قدرته عز وجل العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٥٦ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ٥٨ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ٦٠ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ٦١ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ٦٢ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٥٦ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ٥٨ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ٦٠ ﴿

لما ذكر دلائل تمام قدرته ونعمه الموجبة لشكره وذكره وعبادته وحده، أتبع ذلك بدم المشركين وبيان سفاهتهم، الذين يعبدون من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم، ويمتنعون من السجود له، ثم أمره ﷺ بالتوكل عليه عز وجل وتسيحه، وبين له كفايته عز وجل بذنوب عباده؛ تسلية له ﷺ.

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون ويدعون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.

قال ابن القيم: «أي: يدعونهم دعاء مسألة للنفع والضرر، ودعاء خوف ورجاء وعبادة، وهما متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة

متضمن لدعاء العبادة»^(١).

﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي لا ينفعهم ولا يضرهم من الأصنام والأوثان، أي: الذي لا يجلب لهم نفعًا، ولا يدفع عنهم ضرًا، ولا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوه.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ﴾، «ال»: للاستغراق، أي: كل كافر.

﴿عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، أي: عونًا للشيطان على ربه بالشرك، مظاهرًا له بالمعصية، ومواليًا له، ومعاديًا لربه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٦١)، «إلا» أداة حصر، أي: وما أرسلناك يا محمد إلا مبشرًا للمؤمنين بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة، ونذيرًا للكافرين من الشقاء في الدنيا والآخرة والنار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَشَرَّ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾^(٤٧) [الأحزاب: ٤٧]، ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾^(٤٦) [الكهف: ٤].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿أَجْرٍ﴾ نكرة في سياق النفي، أي: ما أسألكم أي أجر على تبليغ رسالة ربي إليكم، فتستثقلون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّعْرَمٍ مُّتَقَلُونَ﴾^(٤٦) [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾؛ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن»، و«من» موصولة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«شاء»، أي: إلا الذي شاء اتخاذ سبيل إلى ربه، أي: طريقًا إلى ربه بالافتداء بما جئت به.

أي: لا أسألكم أجرًا على تبليغي إياكم رسالة ربي، إلا الاستجابة لما أدعوكم إليه، وسلوك صراط الله المستقيم، وإلا من شاء أن ينفق في مرضاة ربه وسبيله، وهذا لكم، وليس أجرًا لي.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، أي: اعتمد وفوض في أمورك كلها على «الحي».

«الحي» من أسماء الله عز وجل، أي: ذي الحياة الكاملة التامة الدائمة، ولهذا قال: ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، أي: الذي لا يموت أبداً، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]، أي: فتوكل في جميع أمورك على الحي الذي له الحياة الكاملة التامة من جميع الوجوه، وله البقاء الدائم، الذي لا يموت أبداً، وهو الله عز وجل؛ يكفك كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَسَبِّحْ﴾، التسبيح: التنزيه والتعظيم والتقديس.

﴿بِحَمْدِهِ﴾، الباء للملابسة، أي: سبح الله تعالى ونزهه وقدسه متلبساً بحمده، أي: قارناً بين تسيحه وحمده؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»^(١).

أي: أخلص له العبادة والتوكل؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٩].

﴿وَكَفَى بِهِ دُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾﴾، أي: ذا خبرة تامة بها، واطلاع واسع عليها، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليلها، سيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لسعة علمه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا يخفى عليه خافية.

أي: فليس عليك هداهم، ولا إليك حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿* لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿* مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١١٢٢، من حديث عائشة رضي الله عنه.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: أوجدهما بما فيها وما بينهما من المخلوقات.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ من أيام الدنيا المعلومة.
﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أي: ثم استوى بعد ذلك على العرش، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

والعرش: سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأكبرها وأجملها وأكملها.
﴿الرَّحْمَنُ﴾ بدل من الضمير في ﴿اسْتَوَىٰ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

﴿فَسَأَلَ بِهِ خَيْرًا﴾، الباء بمعنى: «عن»، أي: فاسأل عنه عز وجل خيرًا؛ وهو نفسه الكريمة؛ إذ لا أحد أعلم بأوصافه عز وجل من نفسه.
قال ابن جريج: «يقول لمحمد ﷺ: إذا أخبرتك شيئًا فاعلم أنه كما أخبرتك؛ فأنا الخبير»^(١).

أي: أنه عز وجل قد أبان من أسمائه وأوصافه الجليلة، وأفعاله وأحكامه، ما يدل على كمال عظمته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره.

وقيل: المراد بقوله: ﴿فَسَأَلَ بِهِ خَيْرًا﴾، أي: استعلم عنه من هو خير عالم به، فاتبعه، واقتد به، وهو نبيه ورسوله محمد ﷺ؛ إذ لا أحد من الخلق أعلم منه بربه عز وجل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقيل: المراد بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾.

بعدما ذكر كمال حياته عز وجل، وتما عظمته وعلوه، وعظيم قدرته، أتبع ذلك بذكر امتناع المكذبين من عبادته والخضوع له، وإنكارهم رحمته.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٤٨٠.

أي: وإذا قيل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون آلهة من دون الله: اسجدوا للرحمن الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، واعبدوه وحده لا شريك له.

﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾، الاستفهام للتعجب والاستغراب والإنكار، أي: قالوا متعجبين ومنكرين وجاحدين: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾، أي: ما نعرف الرحمن، وما نقر به، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه «الرحمن»؛ كما قال سهيل بن عمرو يوم الحديبية لما قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم. ولهذا أنزل الله قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] (١).

﴿أَنْسُجِدْ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، قرأ حمزة والكسائي بالغيب: «يَأْمُرُنَا»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَأْمُرُنَا﴾.

والاستفهام استفهام امتناع واستكبار وتكذيب، و«ما» مصدرية، أي: أنسجد لأمرك؟ أو موصولة، أي: أنسجد للذي تأمرنا بالسجود له، أي: أننا لا نسجد لمجرد أمرك، ولا نسجد للذي تأمرنا بالسجود له.

﴿وَزَادَهُمْ﴾، أي: وزادهم دعوتهم للسجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾، أي: بعدًا عن الحق والإيمان، واستكبارًا.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعالى وتعظيم، وكثر خيره وإحسانه وبركته.

﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ المراد بالسماء: العلو، وليس المراد به السقف المحفوظ؛ لأن هذه البروج دونها، والبروج: جمع برج، وهو البناء العالي المرتفع.

(١) أخرجه البخاري في الشروط، الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٧٣٤، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

واختلفوا في المراد بها في الآية، فقال بعضهم: هي الكواكب العظام، والنجوم الكبار، وقال بعضهم: هي منازل الشمس الاثني عشر التي تنتقل فيها؛ وهي: الميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، والحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة.

وهذه البروج تقطعها الشمس في السنة، والقمر يقطعها في الشهر، وله منازل؛ ثمان وعشرون منزلة، تشتمل على هذه البروج الاثني عشر.

قال السعدي^(١): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزل بمنزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ بعدما ذكر البروج وهي المنازل الاثنا عشر - كما قال بعض أهل العلم - ذكر النازل فيها؛ وهو الشمس والقمر.

قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم السين من غير ألف على الجمع: «سُرَجًا». وقرأ الباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على الإفراد: ﴿سِرَاجًا﴾، أي: شمسًا مضيئة حارة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ [النبا: ١٣].

﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾، فيه النور بلا حرارة، وهذا من دلائل عظمته عز وجل، وجليل نعمه؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح؛ ولهذا امتن الله به على العباد؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة النور: ١٥]، ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦].

قال ابن القيم: «هو تعظيم وثناء منه تعالى على نفسه بجعل هذه البروج والشمس والقمر في السماء، وقد اختلف في البروج المذكورة في الآية، فأكثر السلف أنها القصور أو الكواكب العظام والنجوم الكبار، وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى البروج الاثني عشر، التي تنقسم عليها المنازل، كل برج منزلتان وثلث، وهذه المنازل

الثمانية والعشرون يبدو منها للناظر أربعة عشر منزلاً أبداً، ويخفى منها أربعة عشر منزلاً؛ كما أن البروج يظهر منها أبداً ستة، ويخفى ستة، والعرب تسمى أربعة عشر منزلاً منها شامية، وأربعة عشر بيانية، فأول الشامية: السرطان، وآخرها: السماك الأعزل، وأول البيانية: العفر، وآخرها: الرشا، إذا طلع منها من المشرق غاب رقبته من المغرب، وهو الخامس عشر. وبها تنقسم فصول السنة الأربعة، فلربيع منها: الحمل والثور والجوزاء، ومنازلها: الشرطين والبطين والثريا والدبران والمقعة والهنة والذراع.

وللصيف منها: السرطان والأسد والسنبلة، ومنازلها: الثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك.

ولللخريف منها: الميزان والعقرب والقوس، ومنازلها: الغفر والزبان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة.

ولللشئاء منها: الجدي والدلو والحوت، ومنازلها: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرع المقدم، ويسمى الأول، والفرع المؤخر، ويسمى الثاني، والرشا.

ولما كان نزول القمر في هذه المنازل معلوماً بالعيان والمشاهدة، ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٨-٣٩].

فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس، وإن كانت مقدرة المنازل؛ لظهور ذلك للحس في القمر، وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل منزلٍ منزلٍ.

ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم، وأبعد من الغلط، وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي؛ ولهذا قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيَلِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ [يونس: ٥]، ولم يقل ذلك في الشمس؛ ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازلها، لا على حساب الشمس وسيرها؛ حكمة من الله ورحمة، وحفظاً لدينه؛ لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعذر الغلط

والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب، فهذا الذي أخبرنا تعالى به من شأن المنازل وسير القمر فيها، وجعل الشمس سراجًا وضياء يبصر به الحيوان، ولولا ذلك لم يبصر الحيوان»^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أي: وهو عز وجل الذي جعل الليل والنهار خلفه، أي: متعاقبين يخلف أحدهما الآخر باستمرار ولا يجتمع معه، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يُعْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحَرَاتٍ بِأَمْرِي﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ولو اجتمع أحدهما مع الآخر لفاتت مصالِح كثيرة عظيمة رتبها الله عز وجل على تعاقبها.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال مسكنة، وتخفيف الكاف مضمومة: «يَذَكَّرُ»، وقرأ الباقون بتشديدهما مفتوحتين: ﴿يَذَكَّرَ﴾، واللام للتعليل، و«من» موصولة، أي: جعلها خلفه متعاقبين للذي أراد أن يذكر، أي: يعتبر ويتذكر قدرة الله تعالى، وزوال الدنيا وفناءها، ويذكر الله تعالى بإقامة الصلوات المكتوبات ورواتها في أوقاتها، وصلاة النوافل، وقيام الليل، فمن فاته ورد الليل قضاءه في النهار، ومن فاته عمل في النهار قضاءه في الليل، قال ﷺ: «إن الله يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل»^(٢).

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أي: أو أراد شكورًا لله تعالى على نعمه العظيمة بطاعته؛ لأن في تعاقبها تجدد النشاط والهمة في العبادة والحيوية.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٩-٣٠١.

(٢) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

- ١- ذم المشركين وبيان سفاهة عقولهم؛ لعبادتهم من دون الله ما لا يجلب لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾.
- ٢- أن الكافر ظهير للشيطان وعون له على ربه بالكفر والشرك والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾.
- ٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾.
- ٤- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.
- ٥- أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للمرسل إليهم هي البشارة لمن آمن منهم بالجنة، والندارة لمن كفر بالنار، ومن لازم ذلك البلاغ، وبيان التكاليف الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.
- كما أنه مطالب كغيره من الأمة بالقيام بالتكاليف.
- ٦- أنه ﷺ لم يسأل على تبليغ رسالة ربه أجرًا، فيحتج المكذبون بثقل هذا الغرم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ﴾.
- ٧- أنه ﷺ ما يسألهم إلا اتباعه وسلوك صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.
- ٨- أن من أنفق نفقة في سبيل الله فأجر نفقته لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: وليس ذلك أجرًا مقابل تبليغ الرسالة إليه.
- ٩- تقوية قلبه ﷺ، وتثيته بأمره عز وجل له بالتوكل عليه، والتسبيح بحمده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾.
- ١٠- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وأنه عز وجل ذو الحياة التامة الكاملة من جميع الوجوه، الدائمة الباقية؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

١١- أن الواجب الجمع بين عبادته عز وجل والتسبيح بحمده والتوكل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

١٢- بيان تمام كفايته عز وجل خبيرًا بذنوب عباده، إليه إياهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم، وفي هذا تسلية له ﷺ ليكل أمرهم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾.

١٣- إثبات عظمته عز وجل، وتمام قدرته، وكمال خلقه، وسعة ملكه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

١٤- إثبات علوه عز وجل، واستوائه على العرش بعد خلق السموات والأرض وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾.

١٥- إثبات اسمه عز وجل «الرحمن»، وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾، وقوله: ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾.

١٦- إثبات كمال الله عز وجل، وأنه لا أحد أعلم بالله، وأعرف به وبصفاته منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْعَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾، أي: أن ما أخبر به عن نفسه هو كما أخبر.

١٧- إنكار المشركين اسم الله «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾.

١٨- استكبارهم وعتوهم وعنادهم وامتناعهم من السجود لله تعالى، والخضوع له وعبادته واحتقارهم للنبي ﷺ؛ لقولهم: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

١٩- ازديادهم بدعتهم إلى السجود للرحمن نفورًا عن الحق وبعدها عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾؛ ولهذا يشرع السجود في هذا الموضع بالاتفاق، طاعةً وامتثالًا لأمر الله، ومخالفةً للمشركين.

٢٠- إثبات كمال عظمته عز وجل، وتعالیه، وتمام قدرته، وكثرة خيره وبركته، والثناء على نفسه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾.

٢١- أن من أعظم دلائل قدرته وخيره وبركته: جعله في السماء بروجًا، وسراجًا

وقمراً منيراً؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾.

٢٢- قدرة الله التامة، ونعمته الجليلة، ومنتته في مخالفته بين الليل والنهار؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خُلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

٢٣- أن منة الله تعالى ونعمته في تعاقب الليل والنهار؛ إنما ينتفع بها ويقدرها قدرها من اعتبر بذلك، واستدل به على عظمة الله وكمال قدرته، وشكر الله تعالى على ذلك، بالاستعانة به على ذكر الله وعبادته وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

٢٤- أن الأيام والليالي هي من أعظم ما منحه الله للعبد؛ فهي خزائن للأعمال الصالحة لمن وفقه الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾.

لما ذكر في الآيات السابقة عبادة المشركين من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وكونهم أوعوانا للشيطان على ربهم بالشرك والكفر والمعاصي، والنفور من الحق - أتبع ذلك بذكر صفات عباد الرحمن الحسنة الجميلة، وأعمالهم الجليلة، وأخلاقهم النبيلة؛ من التحلي بالكمالات الدنيوية، والاستقامة على شرائع الإسلام، والتطلع إلى الزيادة من صلاح الأحوال في هذه الحياة، والتخلي عن ضلالات أهل الشرك والذنوب والمعاصي؛ ثناء عليهم، وامتداحًا لهم، وترغيبًا في صفاتهم.

قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، أي: الذين هم أهل عبوديته الخاصة عبودية الألوهية، وأهل رحمته الخاصة، وهم أنبياء الله تعالى، وأتباعهم المؤمنون، وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين، وأضافهم إلى اسمه «الرحمن» تشريفًا وتكريماً لهم، وأنهم إنما بلغوا هذه المنزلة بسبب رحمته، وترجية لهم برحمته، وأنها تسبق غضبه.

وفي هذا تمييز لهم عن غيرهم من أهل عبوديته العامة عبودية الربوبية، وهم جميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ

عَبْدًا ﴿٣٦﴾ [مريم: ٩٣].

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، «هونًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته، أي: مشيًا هونًا، والهون بفتح الهاء: الرفق واللين؛ وهو صفة أهل الإيمان، والهون بضم الهاء: الهوان؛ وهو صفة أهل الكفر الذين مآلهم النيران.

والمعنى: الذين يمشون على الأرض بسكينة ووقار من غير مرح ولا تجبر، ولا أشر ولا بطر ولا استكبار؛ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقوله ﷺ: «إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»^(١).

وقوله ﷺ مخاطبًا جموع الحجاج في انصرافه من عرفات إلى المزدلفة: «السكينة، عليكم السكينة»^(٢).

وليس معنى ذلك: أنهم يمشون مشية المتمارض المتصنع رياء، كلا، فقد كان قدوتهم أفضل الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم: «إذا مشى تكفأ تكفؤًا، كأنها ينحدر من صيب»^(٣)، وفي حديث: «وكانها الأرض تطوى له»^(٤).

وقد رأى عمر رضي الله عنه شابًا يمشي رويدًا، فقال: ما بالك؟ أنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالذرة، وأمره أن يمشي بقوة^(٥).

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾، الواو عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية، أي: وإذا خاطبهم ذوو الجهل والسفه بجهل وتناول وسيء من القول.

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، المشي إلى الجمعة ٩٠٨، ومسلم في المساجد، استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٣٢٧، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد ٧٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٧١، ومسلم في الحج ١٢٨٢، وأبو داود في المناسك ١٩٢٠، والنسائي في مناسك الحج ٣٠١٨، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٣٧، من حديث علي رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٤٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث غريب».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» ١٣١/٦.

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾، «سلامًا» صفة لمحذوف، أي: قالوا قولًا سلامًا، أي: سدادًا وصوابًا، يسلمون فيه من الإثم، ومن مقابلة الجاهل بجهله، فلا يقابلونه بجهله انتصارًا لأنفسهم فيزداد جهلاً وسفهاً، ولا يسكتون فيظن أنه على الحق وأنه غلبهم وأنهم ضعفاء، بل يقابلون جهله بالحلم، وسفهه بالعقل، وإساءته بالعمو والصفح وبالتي هي أحسن.

وهذا من هون المشي المعنوي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وعن النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ، وسب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: وعليك السلام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ملكًا بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام. قال: بل عليك، وأنت أحق به»^(١).

قال ابن القيم: «وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿الَّذِينَ يَمَسُّونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

أي: بسكينة ووقار، لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام، فهو نطق حلم وسكينة ووقار، لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾، أي: يبيتون الليل مخلصين لربهم، متذللين له. ﴿سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾، أي: حال كونهم سجدًا وقيامًا في عبادته والصلاة له، أي:

يصلون؛ كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ عَائِاتِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

وخص السجود والقيام؛ لأنها من أعظم أركان الصلاة، فالقيام أشرف ما في الصلاة من حيث الذكر وقراءة القرآن، والسجود أشرف ما في الصلاة من حيث الحال

(١) أخرجه أحمد ٥٤٤٥. قال ابن كثير في «تفسيره» ١٣٢/٦: «إسناده حسن».

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٣٠٢.

والهيئة؛ ولهذا قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١).
وقدم السجود لمراعاة الفاصلة، مع الإشارة إلى أهمية السجود.
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، أي: ادفعه
عنا بحفظنا من موجباته، ومغفرة ذنوبنا.

و«جهنم»: اسم من أسماء النار سميت به؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها،
وشدة حرها.

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، تعليل للدعاء قبله، أي: شديدًا لا يطاق، مستمرًا
دائمًا ملازمًا لأهلها ملازمة الغريم لغريمه.

وهذا بالنسبة للعذاب المطلق، وهو عذاب من مات على الكفر، أما مطلق العذاب
وهو عذاب من دون الكفر، فليس بلازم، فقد يعذب العاصي في النار بحسب ذنبه، ثم
يخرج إلى الجنة، وقد يعفو الله عنه.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، تعليل بعد تعليل، أي: جهنم ﴿سَاءَتْ﴾،
أي: بسئت، ﴿مُسْتَقَرًّا﴾، تمييز، أي: مكان استقرار للعصاة الذين يعذبون فيها ثم
يخرجون منها، ﴿وَمُقَامًا﴾، معطوف على ﴿مُسْتَقَرًّا﴾، أي: مكان إقامة أبدية للكفار
المخلدين فيها.

ويجوز أن يكون ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مترادفين، أي: مكان استقرار وإقامة لمن
دخلها، سواء كان من المخلدين فيها أو من غير المخلدين.

وهذا بخلاف الجنة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، وبقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾
[الفرقان: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر
بضم الياء وكسر التاء: «يُقْتَرُوا».

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧، من حديث أبي
هريرة رضي الله عنه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وكسر التاء: «يَقْتَرُوا». وقرأ الباقون بفتح الياء وضم التاء: «يَقْتَرُوا»، أي: والذين أنفقوا في أي وجه من وجوه النفقة الواجبة والمستحبة.

﴿لَمْ يَسْرِفُوا﴾، أي: لم يتجاوزوا الحد وقدر الحاجة في إنفاقهم، لا كمية ولا كيفية، ولم ينفقوا في محرم ومعصية.

﴿وَلَمْ يَفْتَرُوا﴾، أي: ولم يضيعوا في الإنفاق.

أي: فليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء فيقصرّون في ذلك؛ ولهذا قال:

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، «القوام»: العدل والقصد بين الطرفين، أي: وكان إنفاقهم مستقيماً وسطاً بين الإسراف والتقتير، حسب ما تقوم به الحال؛ كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «من فقه الرجل: رفقته في معيشته»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»^(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾

(١) أخرجه أحمد ١٩٤/٥.

(٢) أخرجه أحمد ٤٤٧/١.

(٣) أخرجه أبو بكر البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ١٣٤/٦.

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧﴾.

سبب النزول:

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: «إن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]»^(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «نزلت هذه الآية بمكة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾».

فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام، وقد عدلنا بالله، وقد قتلنا النفس التي حرم الله، وأتينا الفواحش؟! فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧﴾﴾»^(٢).

لما ذكر صفات المؤمنين التي يتخلقون بها قولاً وعملاً، أتبع ذلك بذكر الصفات التي يجتنبونها ويتعدون عنها قولاً وعملاً.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، أي: لا يعبدون مع الله معبودًا غيره، بل يعبدونه وحده، ويدعون وحده دعاء مسألة، ودعاء عبادة ورجاء.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب عند الله أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وقد خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». ونزلت هذه الآية،

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١٠، ومسلم في الإبان ١٢٢، والنسائي في تحريم الدم ٤٠٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٣٦٤٢، وفي التفسير ٤٧٦٥، ومسلم في الإبان ٣٠٢٣، وأبو داود في الفتن والملاحم، تعظيم المؤمن ٤٢٧٣.

تصديقاً لقول الرسول ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(١).

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾، أي: التي حرّمها الله، أو التي حرم الله
قتلها، وهي النفس المعصومة، وهي أربعة أنفس: نفس المسلم، ونفس الذمي؛ وهو من
عقد معه عهد على بذل الجزية والحماية، ونفس المعاهد؛ وهو من وقع بيننا وبينه عهد
بعدم القتال، ونفس المستأمن؛ وهو من دخل من الكفار إلى بلاد المسلمين بأمان منهم.
﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، «إلا» أداة حصر، والباء للملابسة، أي: متلبسين بالحق، أي: إلا
بما يوجب قتلها شرعاً؛ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، وقتل المرتد، قال
ﷺ: «لا يجل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه
المفارق للجماعة»^(٢).

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ لما ذكر انتهاك الأنفس ذكر انتهاك الأعراض، أي: ولا يرتكبون
فاحشة الزنا التي هي من أعظم الفواحش.

وخص هذه الأفعال الثلاثة؛ لأنها أكبر الذنوب والموبقات والكبائر، فالشرك فيه
فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، الإشارة تعود إلى دعاء إله آخر مع الله، وقتل
النفس المعصومة، والزنا، أي: ومن يفعل ذلك المذكور، بأن يشرك بالله، أو يقتل نفساً
معصومة، أو يزني ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾، «يلق» جواب الشرط «من» مجزوم بحذف حرف
العلة الألف، ﴿أَثَامًا﴾، أي: عقاباً ونكالاً وجزاء.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾^(٣)، تفسير وبيان؛

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ٤٧٦١، ومسلم في
الإيمان- كون الشرك أقبح الذنوب ٨٦، وأبو داود في الطلاق- تعظيم الزنا ٢٣١٠، والترمذي في
التفسير ٣١٨٣، وأحمد ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ٦٨٧٨، ومسلم في القسامة ١٦٧٦، وأبو داود في الحدود ٤٣٥٢، والنسائي
في تحريم الدم ٤٠١٦، والترمذي في الديات ١٤٠٢، وابن ماجه في الحدود ٢٥٣٤، من حديث عبدالله
بن مسعود رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿أَثَامًا﴾.

قرأ أبو بكر بضم الفاء والذال: «يُضَاعَفُ»، و«يُخْلَدُ»، وقرأ الباقون بجزمها: ﴿يُضَعَّفُ﴾، و﴿وَيُخْلَدُ﴾.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين، مع الجزم: «يُضَعَّفُ».

ومعنى ﴿يُضَعَّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: يزداد ويعاد ويكرر عليه العذاب والنكال ويغلظ يوم القيامة، ومضاعفة الشيء: تكثيره وتكريره، قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١].

﴿وَيُخْلَدُ فِيهِ﴾، أي: ويمكث ويقيم ويبقى في هذا العذاب المضاعف أبدًا، ﴿مُهَانًا﴾ حال، أي: محتقرًا ذليلًا.

فجمع له بين العذاب الحسي الجسدي في النار، وبين العذاب المعنوي القلبي، بالإهانة والتحقير والإذلال.

والوعيد بمضاعفة العذاب لمن ارتكب هذه الأفعال المذكورة أو واحدة منها؛ لأنها كلها من كبائر الذنوب.

والوعيد بالخلود لمن ارتكبها كلها، أو ارتكب الشرك وحده؛ لأن ما عدا الشرك من الذنوب، كالقتل العمد، والزنا، وغيرهما لا يخلد فاعله في النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو استثناء متصل، و«من» موصولة، أي: جزاء من ارتكب هذه الموبقات وعقابه مضاعفة العذاب له يوم القيامة، وخلوده فيه مهانًا، إلا الذي تاب من هذه الذنوب وغيرها ورجع وأتاب إلى الله، وآمن وعمل صالحًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾، أي: إلا من تاب توبة صحيحة بشرطها الخمسة، وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم عليها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون في وقتها قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم، وأن تكون خالصة لله تعالى. ﴿وَأَمَّنَ﴾، بترك الشرك والدخول في الإسلام والإيمان، وآمن أيضًا: بترك

المعصية كالقتل والزنا وغير ذلك؛ لأن مرتكب المعصية - وإن كانت دون الكفر - يرتفع عنه الإيمان؛ كما قال ﷺ: «لا يزيي الزاني حين يزيي وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ينظر الناس إليه فيها وهو مؤمن»^(١).

﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، ذكر الموصوف هنا - وهو قوله: ﴿عَمَلًا﴾ - للتوكيد، والغالب حذفه، والاكتفاء بالصفة ﴿صَالِحًا﴾؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾، أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تعظيمًا ورفعة لشأنهم. ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، «التبديل»: جعل شيء ووضعه مكان شيء آخر. ومعنى يبدل الله سيئاتهم حسنات: أن ما عملوه من سيئات ماضية يبدلها الله بالتوبة النصوح حسنات؛ لأن توبتهم منها بإقلاعهم عنها، وندمهم على فعلها، وعزمهم على عدم العود إليها، وكونها خالصة لله تعالى في وقتها المناسب: كل ذلك حسنات تسجل لهم مقابل تلك السيئات، فبدلت سيئاتهم وانقلبت حسنات بهذا الاعتبار، فهو تبديل جزئي.

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولًا إلى الجنة، يؤتى برجل، فيقول: نَحُو كِبَارِ ذُنُوبِهِ، وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيقال: إن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها ههنا. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذ»^(٢).

قال ابن القيم: «إن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب، من ذل وانكسار وخشية وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، وأبو أهل الجنة منزلة ١٩٠، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٦، وأحمد ٥١٧٠.

ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه، مما يوجب جعل مكان السيئة حسنة، بل حسنات. ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل^(١).

وقيل: إن معنى ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾: أن الله أبدلهم مكان عمل السيئات عمل الحسنات، فهو تبديل قدرى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم المؤمنون، كانوا قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحوهم إلى الحسنات، وأبدلهم مكان السيئات حسنات»^(٢).

ومن هذا: ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: أنه يقال للمؤمن في قبره: «انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراها جميعاً»^(٣).

وفي حديث البراء رضي الله عنه: «يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك، لو عصيت الله أبدلك الله به هذا»^(٣).

والسياق أدل على المعنى الأول، فهو الأظهر والأقرب، وهو الأبلغ في الدلالة على عظيم فضل الله وعفوه، وكرمه وواسع رحمته؛ لأنه يدل على أن الله أبدلهم بالسيئات بعد أن عملوها حسنات، بخلاف المعنى الثاني؛ فإنه يدل على أن الله صرفهم عن السيئات قبل أن يعملوها إلى عمل الحسنات.

والتأمل في هذا المعنى من أعظم ما يحمل على تعظيم الله ومحبته، وبذل الجهد والوسع في عبادته وطاعته، واللياذ به، والطمع فيما عنده، فالله أكبر، ما أعظم إفضاله وإنعامه! وما أبلغ جوده وكرمه! «يبدل سيئات التائب حسنات»!

على أنه لا منافاة بين القولين، ولا مانع من حمل الآية عليهما؛ فمن تاب صرفه الله في الدنيا عن عمل السيئات إلى عمل الحسنات، وجازاه في الآخرة بدلاً من السيئات حسنات.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه من

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣١٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٥١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٧٣٣.

(٣) سبق تخريجه.

عباده؛ يتجاوز عن ذنوبهم ويسترها.

وذا رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالتائبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٣١﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠٤﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].
﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ﴿٧١﴾، أي: يرجع إلى الله رجوعاً صحيحاً عن قصد ونية وعزم وجزم وإخلاص لله تعالى وحده قولاً وعملاً، توبة عظيمة كاملة تقع موقعها؛ كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

الفوائد والأحكام:

١- ثناء الله عز وجل على عباد الرحمن وامتداحه لهم بذكر صفاتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة، وأخلاقهم النبيلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الآيات.

٢- إثبات اسمه عز وجل ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية؛ عامة وخاصة.

٣- إثبات عبودية المؤمنين له عز وجل عبودية خاصة، عبودية الألوهية.

٤- في إضافة عباده عز وجل إلى اسمه «الرحمن» تشريف وتكريم لهم، وأنهم إنما بلغوا هذه المنزلة بسبب رحمته، وترجية لهم برحمته، وأنها تسبق غضبه.

(١) سبق تحريجه.

٥- أن من صفات عباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض بسكينة ووقار، من غير مرح ولا تجبر ولا استكبار؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

٦- مسألتهم الجاهلين، وعدم مقابلتهم بمثل جهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾.

٧- أن من صفاتهم المداومة على العبادة وقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾.

وهذا مخصوص بما دلت عليه السنة من أن أفضل القيام قيام داود عليه السلام: «كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»، وهكذا كان قيام نبينا محمد ﷺ^(١).

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾، ﴿رَبَّنَا﴾.

٩- أن السجود والقيام من أعظم أركان الصلاة، وأشرف أعمالها؛ لهذا خصهما تعالى بالذكر؛ لقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾.

١٠- في تقديم السجود إظهار للاهتمام به؛ لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، مع ما في ذلك من مراعاة فواصل الآي.

١١- دعاؤهم ربهم، وسؤالهم إياه أن يصرف عنهم عذاب جهنم بحفظهم من موجباته، ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآيات، وهذا يدل على أنهم لا يُدُلُّون على الله بأعمالهم، فهم مع عبادتهم لله خائفون من النار.

١٢- شدة عذاب جهنم وملازمته لأهلها دائماً وأبداً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

١٣- أن جهنم ساءت وقبحت مستقرًا ومقامًا لأهلها وسكانها من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

١٤- أن من صفات عباد الرحمن اعتدالهم وتوسطهم في الإنفاق من غير إسراف

(١) سيأتي تخرجهما في تفسير سورة المزمل.

ولا تقتير، وبقدر الحاجة وما تقوم به الحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾.

١٥- أن من أعظم الصفات التي يجتنبونها ويتعدون عنها: الشرك بالله، وقتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها، والزنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ٦٨﴾.

١٦- تحريم الشرك، وأنه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر؛ لهذا بدأ الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ٦٩﴾.

١٧- تحريم قتل النفس المعصومة؛ وهي نفس المؤمن، ونفس الذمي، ونفس الكافر المعاهد والمستأمن، وأن ذلك أكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ لهذا قرنه الله تعالى بالشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ٧٠﴾.

١٨- أن النفس المعصومة التي حرم الله قتلها، إذا ارتكبت ما يوجب قتلها، من قتل نفس عمدًا، أو الردة عن الإسلام، أو الزنا بعد الإحصان؛ فإنها تقتل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ ٧١﴾.

١٩- شدة فحش الزنا، وأنه من أكبر الكبائر؛ لأن الله قرنه مع القتل العمد بالشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ٧٢﴾.

٢٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن فعل الموبقات الثلاث: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله قتلها بغير حق، والزنا، بالعقاب والنكال ومضاعفة العذاب وتخليده فيه مهانًا ذليلًا حقيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٧٣﴾
يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ٧٤﴾.

٢١- يستثنى من قوله: ﴿وَيَخْلُدُ فِيهِ ٧٥﴾ ما عدا المشرك، كالمقاتل عمدًا، والزاني المحصن وغيرهما من أهل الكبائر؛ لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ٧٦﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

٢٢- إثبات يوم القيامة وما فيه من الحساب والعذاب.

٢٣- أنه يجمع للمعذبين في النار بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي بالإهانة والإذلال والتحقير.

- ٢٤- أن النار لا تفتنى ولا يفنى عذابها.
- ٢٥- أن من تاب من الشرك، والقتل العمد والزنا، ورجع وأتاب إلى الله تعالى، وآمن وعمل عملاً صالحاً تاب الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية.
- ٢٦- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحاً، أي: خالصاً لله، تبعاً لشرعه.
- ٢٧- أن من فضل الله تعالى وجوده وكرمه وسعة رحمته؛ تبديله سيئات التائبين حسنات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.
- ٢٨- رفعة منزلة التائبين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ﴾.
- ٢٩- إثبات سعة مغفرته عز وجل ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
- ٣٠- ينبغي لمن تاب أن يتوب متاباً صحيحاً عن قصد ونية وعزم وحزم وجزم، وإخلاص لله تعالى وحده، قولاً وعملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (٧١).

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧١﴾ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٣﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٤﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٥﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧١﴾ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٣﴾.

هذا استمرار لذكر صفات عباد الرحمن.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: لا يحضرون مجالس الزور، والزور هو: الميل عن الحق الثابت إلى الباطل الزائل، فكل ما مال عن الحق فهو زور، أي: كذب وباطل، فإن كان قولاً فهو كذب، وإن كان فعلاً فهو باطل، كالشرك بالله، والخوض في آياته، والجدل بالباطل، والغيبة والنميمة، والفسق واللغو، والغناء وشرب الخمر، وغير ذلك من المعاصي، ولا يشهدون شهادة الزور؛ وهي الشهادة بالكذب متعمداً.

فهم لا يحضرون مجالس الزور، ولا يقولونه ولا يفعلونه؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ١٤٠﴾ [النساء: ١٤٠].

ولا يشهدون شهادة الزور، التي هي من أكبر الكبائر؛ كما في حديث أبي بكرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!»^(١).

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾، اللغو: كل ما يلغى ويطرح، وما لا خير فيه ولا فائدة منه.

(١) سبق تحريجه.

﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾، «كرامًا» حال، أي: معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن ساعه، والخوض فيه، أو الرضا به والجلوس مع أهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وأيضًا ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ محاولين الإصلاح والإفادة من وجودهم، وذلك بنقل هذا اللغو إلى أمر مفيد؛ لأن الكريم يعطي غيره فينفع نفسه وغيره، فيفيدون ويستفيدون، ويكونون مباركين أينما كانوا، وهذا حال المؤمن الموفق؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: إذا ذكروهم أي مذكر، أي: وعظهم بآيات ربهم الشرعية والكونية الدالة على عظمتهم.

﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: لم يخروا عند سماعهم إياها صمًا لا يسمعونها، عميانًا لا يبصرونها، بل يسمعونها ويبصرونها، ويخرون عليها سجدًا وبكيتًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

والحكمة - والله أعلم - في اختيار الصفة السلبية في قوله: ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، دون أن يقول: وخروا عليها سامعين مبصرين مطيعين - هي التعريض بالكافرين، أي: بخلاف الكفار؛ فإنهم إذا ذكروا بالآيات خروا عليها صمًا وعميًا؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِةَ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٦﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ

رَجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].
 قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
 وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

لما ذكر صلاحهم في أنفسهم ذكر سعيهم لإصلاح غيرهم من أزواجهم وذرياتهم
 بدعائهم لهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾، ﴿وَمِنْ﴾
 بيانية، أي: هب لنا وأعطنا من أزواجنا. و«أزواج» جمع «زوج»، وكل من الرجل
 وامرأته زوج للآخر، فكل منهما يدعو بهذا الدعاء للآخر.

وقد يشمل قوله: ﴿أَزْوَاجِنَا﴾ الأزواج والقرناء والأصحاب.
 ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير ويعقوب وابن عامر وحفص،
 بالألف على الجمع: ﴿ذُرِّيَّاتِنَا﴾، وقرأ الباقون بغير ألف على الأفراد: ﴿ذُرِّيَّتِنَا﴾.
 والذرية: الأولاد، ذكورهم وإناثهم، وأولاد البنين وإن نزلوا، دون أولاد البنات،
 وقد تطلق على ما يشمل أولاد البنات أيضًا وإن نزلوا.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ «قرة العين» مأخوذة من «القر»، وهو البرد؛ لأن العين القريرة
 باردة، بخلاف العين الحزينة، فهي حارة، ودمعها حار، أي: وهب لنا من تقر
 بصلاحهم أعيننا من أزواج وذريات، بحيث نراهم مخلصين لك العبادة وحدك لا
 شريك لك، مطيعين لك، متبعين لشرعك، ونفرح بذلك ونأنس به ونسر وتلذذ؛ فإنه
 لا شيء أقر لعين المسلم الموفق من أن يرى أولاده وأحفاده وأهل بيته مستقيمين على
 طاعة الله تعالى مطيعين لوالديهم.

ولك أن تتصور ما مدى شعور الوالد الصالح إذا دخل في الصلاة وبعض أولاده عن
 يمينه، وبعضهم عن يساره، وماذا يجالجه من الغبطة والفرح والأنس وقرة العين، مما لا
 يكاد يوصف، بل ولا يحيط به الوصف، حتى إنه لو كان يعاني من مرض السكري وضغط
 الدم، وأخذت قياسهما في هذه الحال لوجدتهما في أعدل الأحوال؛ لما هو فيه من الفرح
 والنشوة، وهذا التصور وهذا المعنى لا يدركه إلا من وفقه الله، وذاق حلاوة الإيمان.

بل إن من العجيب والغريب أن المسلم إذا رأى أزواجه وذريته مطيعين لله تعالى،

تقر عينه وإن كان هو نفسه فاسقًا، ولا يجب أن يكونوا مثله؛ لأن المسلم مفطور على محبة طاعة الله تعالى.

﴿وَأَجْعَلْنَا﴾، أي: نحن وأزواجنا وذرياتنا ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، «إمامًا» يصلح للواحد والجمع، كالأمة والأسوة، أي: قدوة يقتدى ويهتدى بنا في الدين والتقوى والعلم والخير والصلاح.

والمعنى: واجعلنا للمتقين أئمة، وهذا من أعلى المطالب، والتوفيق له من أعظم المناقب، وكما قال المتنبي^(١):

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

وقال أيضًا^(٢):

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

فسألوا الله لأنفسهم الإمامة في الدين؛ ليحصل لهم أجرهم وأجر من اهتدى بهم، وأجر من اهتدى على يد من اهتدى بهم، وهكذا.

وسألوا ذلك لأزواجهم وذرياتهم؛ ليحصل لهم أجرهم وأجر من اهتدى على أيديهم إلى آخر ذلك.

وقد قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية»^(٣).

ومن لوازم هذا وذاك اجتهادهم في تحصيل هذا المطلب لأنفسهم بالصبر واليقين والمجاهدة، واجتهادهم أيضًا في تحصيل ذلك لأزواجهم وذرياتهم بتربيتهم على المجاهدة والصبر واليقين؛ لأن الإمامة في الدين لا تنال إلا بذلك؛ كما قال تعالى:

(١) انظر: «ديوانه» ص ٢٦١.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٣٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في الوصية، ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾
[السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَةً
وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾:

لما ذكر صفات عباد الرحمن وأعمالهم الفاضلة الجليلة، وأخلاقهم العالية الرفيعة،
ومطالبهم السامية النبيلة؛ أتبع ذلك بذكر ما أعد لهم من الجزاء العظيم في غرفات
الجنات.

قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، الإشارة لعباد الرحمن الموصوفين بالصفات المذكورة العظيمة.
﴿يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ﴾، وهي أعلى منازل الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا
رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرُوفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرُوفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَصْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي
الْعُرُوفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، الباء: للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صبرهم على طاعة الله
تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء،
وإسكان اللام، وتخفيف القاف: «وَيُلَقَّوْنَ».

وقرأ الباقر بضم الياء، وفتح اللام، وتشديد القاف: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾. أي:
ويلقون في الجنة وغرفها، أو في غرف الجنات.

﴿مَنَاجِيَةً وَسَلَامًا﴾، من الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿يَجْتَنِبُهُمْ يَوْمَ يُلَقَّوْنَهُ
سَلَامًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨].

ومن الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٣﴾﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

وسلام من بعضهم على بعض؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

فيلقون التحية والسلام قولاً؛ من الله عز وجل، ومن الملائكة، ومن بعضهم لبعض، ويلقون الحياة التامة والسلامة الدائمة من الله تعالى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الجنة لا تفتنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها؛ كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨].

﴿حَسُنَتْ﴾، أي: طابت الجنة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، منصوبان على التمييز، أي: مكان استقرار وإقامة لهم على الدوام، وهذا في مقابل قوله عن النار: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾:

لما أثنى على المؤمنين بذكر صفاتهم العظيمة، وهمهم الرفيعة، ومطالبهم العالية، ونعمه وفضله عليهم وعظيم جزائه لهم، أخبر أنه لا يعبا بغيرهم.

قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾، أي: قل يا محمد للمكذبين المشركين: ﴿مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾، أي: ما يكثرث بكم ولا يبالي بإهلاككم والقضاء عليكم، ولا يعجزه ذلك. ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾، «لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود.

﴿دُعَاؤُكُمْ﴾، «دعاء» مصدر مضاف إلى فاعله، أي: لولا دعاؤكم إياه وعبادتكم له، أي: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: فالذي يمنعه من إهلاككم هو دعاؤكم إياه.

ويحتمل: أن يكون المصدر مضافاً إلى مفعوله، أي: لولا دعاؤه إياكم إلى عبادته. قال ابن القيم: «والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أيُّ

شيء يعبؤه بكم لولا عبادتكم إياه، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل». وقال أيضاً: «وأصح الأقوال في الآية أن معناها: ما يصنع بكم ربي لولا عبادتكم

إياه؟»^(١).

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، الفاء: تعليلية، و«قد» حرف تحقيق، أي: لأنكم قد كذبتُم ما دعاكم إليه من الحق ولم تدعوه ولم تعبدوه.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَامًا﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«سوف»: حرف استقبال، أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، أي: مقتضيًا لهلاككم وعذابكم، أو فسوف يكون العذاب لزامًا لكم في الدنيا والآخرة، في الدنيا كما حصل لهم يوم بدر، وفي الآخرة في النار وبئس القرار.

الفوائد والأحكام:

١- أن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون مجالس الزور والباطل، ولا يقولونه ولا يفعلونه، ولا يشهدون شهادة الزور بالكذب المتعمد على غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.

٢- أن من صفاتهم إكرام أنفسهم إذا مروا باللغو بالإعراض عن سماعه، وعدم الخوض فيه، أو الرضا به، أو الجلوس مع أهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

٣- أن المرء حيث يضع نفسه ويختار لها، فمن أكرم نفسه بطاعة الله تعالى والبعد عن اللغو ومجالس الردى؛ أكرمه الله تعالى وامتدحه وأثابه.

٤- أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم يستمعون إليها ويبصرونها، ويتأملون فيها، وينقادون لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

٥- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين وبه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿رَبِّي﴾.

٦- أن من صفاتهم دعاءهم بصلاح أزواجهم وذرياتهم؛ لتقر بهم أعينهم في الدنيا والآخرة، ويستمر لهم نفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٢٠-٣٢١.

﴿أَزْوَاجَنَا وَذُرِّيَّتَنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

٧- أنه لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى أزواجه وأولاده صالحين مطيعين لله تعالى، بل لا تقر عينه إلا بذلك، يدرك هذا من وفقه الله، ويعمى عنه الكثيرون.

٨- دعاؤهم لأنفسهم وأزواجهم وذرياتهم بالإمامة في الدين، التي هي من أعلى المطالب، مع بذلهم الأسباب لذلك؛ ليحصل لهم مثل أجر من اهتدى بهم؛ لقولهم: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

٩- فضيلة الإمامة في الدين بكون الإنسان قدوة في الخير والهدى والتقوى والصلاح، والدعوة إلى الله عز وجل، وأنها من أجل المناقب وأحسن الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٣٣]، [فصلت: ٣٣]، ومن أفضل ذلك وأجله الإمامة في الصلاة في المساجد، لمن قدر لذلك قدره.

١٠- وعد الله تعالى لعباد الرحمن الموصوفين بهذه الصفات العظيمة بالجزاء العظيم في غرفات الجنة بسبب صبرهم، وابتدأهم بالتحية والسلام من ربهم ومن الملائكة، وفيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [٧٥].

١١- فضيلة الصبر بأنواعه الثلاثة، وأنه من أعظم أسباب دخول الجنة وتوفية الأجر بغير حساب.

١٢- أنه يجمع لأهل الجنة بين النعيم الحسي وبين النعيم المعنوي للقلوب بالتحية والسلام ونحو ذلك.

١٣- خلودهم فيها خلوداً أبدياً بلا انقطاع، في أحسن مستقر وأطيب مقام؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [٧٦].

١٤- شتان بين الجنة أحسن مستقر وأحسن مقام، وبين النار أسوأ مستقر وأسوأ مقام.

١٥- أنه عز وجل لا يعاب بالمكذبين، ولا يكثرث بهم، لولا دعاؤهم إياه وعبادتهم له؛ لأنه لم يخلقهم وسائر الخلق إلا لعبادته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.

١٦- أن الدعاء مانع من العقوبة وجالب للرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.

١٧- تكذيب المشركين له ﷺ، وتهديدهم بلزوم العذاب لهم في الدنيا والآخرة،
هم وأمثالهم من المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

٥	تفسير سورة النور.....
٧	المقدمة.....
٧	أ- اسم السورة:.....
٧	ب- مكان نزولها:.....
٧	ج- فضلها:.....
٨	د- موضوعاتها:.....
١٢	تفسير قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا...﴾ الآيات [١-٣].....
٤٠	تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ الآيات [٤، ٥].....
٥٧	تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ...﴾ الآيات [٦-١٠].....
٧٣	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ الآيات [١١-٢٠].....
١٠٨	تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ الآيات [٢١، ٢٢].....
١٢٥	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ...﴾ الآيات [٢٣-٢٥].....
١٣٢	تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَيْثُوتُ لِلْحَيْثِينَ...﴾ الآية [٢٦].....
١٤٠	تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ الآيات [٢٧-٢٩].....
١٥٦	تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ الآيات [٣٠-٣١].....
١٨٤	تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ...﴾ الآيات [٣٢-٣٤].....
٢١١	تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [٣٥].....
٢٢٦	تفسير قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعُوا وَيَذْكَرُوا بِهَا أَسْمَهُ...﴾ الآيات [٣٦-٣٨].....

- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ...﴾ الآيةان [٣٩، ٤٠] ٢٤٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِجُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيةان [٤١، ٤٢] ٢٦١
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَزِيغُ سُبُلًا يَمْ يُولِفُ بَيْنَهُ...﴾ الآيةان [٣٤، ٤٤] ٢٦٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ...﴾ الآية [٤٥] ٢٧٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ...﴾ الآية [٤٦] ٢٧٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ...﴾ الآيات [٤٧-٥٠] ٢٨٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...﴾ الآيةان [٥١، ٥٢] ٢٩٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ...﴾ الآيةان [٥٣، ٥٤] ٢٩٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية [٥٥] ٣٠٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ الآية [٥٦] ٣١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهَمُّ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ الآية [٥٧] ٣١٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَفِيدَ نَكْمَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْقُوا الْحِلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...﴾ الآيات [٥٨-٦٠] ٣٢٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...﴾ الآية [٦١] ٣٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية [٦٢] ٣٥١
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا...﴾ الآية [٦٣] ٣٥٦

- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَزَّلَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [٦٤] ٣٦١
- تفسير سورة الفرقان ٣٦٥
- المقدمة ٣٦٧
- أ- اسم السورة: ٣٦٧
- ب- مكان نزولها: ٣٦٧
- ج- موضوعاتها: ٣٦٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا...﴾
- الآيات [١-٦] ٣٧٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ الآية [٧-١٦] ٣٨١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية [١٧-٢٤] ٣٩٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا...﴾ الآية [٢٥-٣٤] ٤٠٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا...﴾ الآية [٣٥-٤٤] ٤١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا...﴾
- الآيات [٤٥-٥٤] ٤٢٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ...﴾ الآية [٥٥-٦٢] ٤٣٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ الآية [٦٣-٧١] ٤٤٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ...﴾ الآية [٧٢-٧٧] ٤٥٩
- فهرس الموضوعات ٤٦٩

دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958